بشائر النبوة الخاتمة

تأليف

الدكتور رءوف شلبى

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، ورضى الله تبارك وتعالى عن أصحاب رسول الله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ...

فان دلائل النبوة وعلاماتها وبشائرها ستظل دليلا واضحا على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ذلك لأن الله هو الذى اختاره نبياً خاتماً وهو الذى بيده مقاليد السموات والأرض يصرف الأمور على نسق يحقق دائما لنبيه أدلة أنه رسول الله العاقب . ودلائل النبوة فيما قبل الرسالة تمثل عنصراً هاماً عند الدارسين للدعوة الإسلامية لأنها تفسر كثيراً من مجريات الأمور عند التبليغ :

إنها تلقى ظلالا كاملة على إيمان النجاشي دون تردد منه أو مطالبة بالدليل ، وتلقى ظلالا كاملة — كذلك — على إيمان سلمان الفارسى ، وعبد الله بن سلام ، كما تفضح أسرار المعاندين أمثال أبى جهل وأبى لهب رغم اعتقادهم صحة النبوة من عند الله لرسوله الخاتم عليه أفضل الصلاة والسلام .

والكتاب الذى نقدم له اليوم ليس فقط سرداً لدلائل النبوة

كما فعل القدامى — وجزاهم الله خيراً — بل هو تحليل اجتماعى لظروف المجتمع العربى الذى عاصر نشأة الدعوة ، وربط بين سلوك الناس فيه ومبادئ الدعوة طرداً وعكساً ، وتوضيح للتفاعل الاجتماعى الذى أثارته الارهاصات بالنبوة حتى غدت حديث العلماء من اليهود والنصارى مع مثقفى العرب ، وظهرت الجزيرة العربية فى ثوب معرفى أضاءته البشائر بعلامات من العلم عند أهل الكتاب ، وعلامات خارقة للعادة من عند الله وعلامات من المواريث الثقافية عن جد الأنبياء سيدنا إبراهيم .

ومع هذا يضيف الكتاب فقهاً جديداً لمفهوم التحنث وبشرية الأنبياء كما يصفى المعركة العلمية بين علماء الأخلاق فيما يتعلق بالأخلاقيات فى المجتمع العربى ، ثم يقدم أدلة على صدق مهمة البشائر فيما قبل الرسالة وبما لها من أثر مبارك فى الذين أسلموا وآمنوا واعتزوا برسالة الإسلام دون طلب دليل أو حجة مثل السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها والصديق الصديق أبو بكر رضى الله عنه وبلال وعلى و . . . الخ .

وبالجملة فان هذا الكتاب دراسة مهمة لمن يهتم بشئون الدعوة الإسلامية كمرحلة تمهيد للدعوة قبل عهدها المكى ليفسر كثيراً من الأحداث فيما بعد عند التبليغ نقدمه معتزين به مقدرين للدكتور رءوف شلبى إخلاصه فى خدمة الإسلام والمسلمين . نسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والسداد .

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

مقـــدمة المؤلف

دراسة الدعوة الاسلامية فى العهد الحديث تتطلب منا منهجياً التعرف عليها أول نشأتها فى العهد المكى ، ثم ظروف امتدادها فى العهد المدنى حتى يتسنى للدارسين لها حديثاً التعرف على مناهجها ووسائلها ومراحل تبليغها ، ويسبق هذه الدراسة بالطبع التعرف على طبيعة المجتمع العربى الذى نشأت فيه وما كان له من خصائص كانت كالتربة العادية للبذرة الصالحة القادرة على الانبات فى هذه التربة ، ثم مالها من الخصائص بعد الإنبات لتستوى على سوقها فى مناخ آخر لأن صلاحيتها للحياة من ذاتها ، وكانت البيئة العربية الأولى هى التربة العادية غير المنحرفة لإنبات الدعوة الإسلامية . . . ولهذا تتوجه هذه الدراسة لابراز هذه الخصائص فى جو الارهاصات بالنبوة الخاتمة التى هيأ الله سبحانه وتعالى المجتمع العربى ليكون الحقل العادى لاستقبال هذه الدعوة : كما هيأ حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً .....

وقعت هذه الدراسة فى بابين :

الباب الأول : لإبراز حقيقة تاريخية هى أن اللهسبحانهوتعالى هيأ النبي صلى الله عليه وسلم والمجتمع لاستقبال الرسالة الأخيرة ، واندرج تحت هذا الباب فصلان :

الفصل الأول :

تصوير للبيئة العربية وهى البؤرة التى ستظهر فيها الدعوة الإسلامية وقد أثبتت الدراسات فى هذا الفصل أن المجتمع العربى فى مكة كان أفضل مجتمع احتوى على امتيازات تؤهله بالانفراد لاستقبال هذه الدعوة .

لقد كان هناك الحنفاء الذين يوحدون الله جل شأنه وينتظرون النبي العاقب ومن أمثلة هؤلاء قس بن ساعدة الأيادى وزيد بن عمرو بن نفيل وقد جعل الإمام البخارى لحديثه هذا بابا خاصاً شرحه الإمام ابن حجر فى كتابه الجليل فتح البارى[1] .

وكان هناك الباحثون عن العدل الدينى فقد امتازت الفطرة فى البيئة العربية بأنها تؤمن بالله وكان هناك فريق يتأفف من عبادة الاصنام فراح يبحث عن العدل فى هذه القضية وكان من أمثلة هؤلاء ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو بن نفيل كذلك ، وكان فى البيئة

---

(١) راجع ج ٨ ص ١٤٢ .

العربية من الحكماء من يدين بالتنزيه والتوحيد لله جل شأنه وكان عامر ابن الظرب ، وأكثم بن صيفى وعبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم من نماذج هؤلاء الحكماء الذين آمنوا بالتوحيد والتنزيه قبل الرسالة .

وللحمس شدة وتعصب فى دينهم الذى يفتخرون بالنسبة إليه لأنهم من سلالة سيدنا إبراهيم الذى رفع القواعد من البيت فهم أشد الناس تحمساً لملته ودينه فكانوا فى هذا السلوك حمساً أشداء .

ومع هذا فقد كان العدل الاجتماعى خلقية أبية كريمة صورها حلف الفضول ، لقد تعاقدوا فيه على رد المظالم إلى أهلها دون أجر يراد أو شكر ينتظر ، فكانت البيئة العربية فى القرون الوسطى فيما قبل الرسالة أفضل من الدول الحديثة التى لا تبرم المعاهدات إلا بعد موازنة للربح والخسارة . . . . ونقضها من أجل تغير الجو السياسى أمر مألوف معهود ،وقد زكى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحلف لسموه ورفعة شأنه فى الميزان الأخلاقى والعدل الاجتماعى فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » .

وكانت التقاليد والعادات فى البيئة العربية بغض النظر عن الانحرافات التى كانت موجودة آنذاك أفضل التقاليد والعادات الموجودة فى البيئات الأخرى :

لقد كان المقياس للتقاليد والعادات الذى قست به ظروف المجتمع العربى هو مقياس حرية التعبير وحرية الحركة ومقدار شرف النسب واحترام العرض ، وسهولة العلاقات داخل المجتمع :

[فكانت حرية التعبير والحركة لها أسواق فى عكاظ والمجنة وذى المجاز . ومقدار شرف النسب واحترام العرض كان فى الأمة العربية وحدها خلقاً أصيلا .

يقول عنترة :

وأغض طرفى إن بـــــدت لى جارتى
حتى يـــــوارى جارتى مثواهـــــا

ولقد كانت العلاقات ميسرة سهلة ليس فيها تعقيد سياسى أو نظام حكم صارم يعرقل حركة الدعوة إذا قامت :

ولم يكن وأد البنات خلقية فى العرب بل كان انحرافاً فى بيئة متاخمة على الحدود للملوك المناذرة ، وخوفاً من العار إذا دهمتهم حرب أو عجزوا عن دفع الجزية دسوا بناتهم فى التراب حفاظاً على العرض لا قسوة ولا كراهية وإلا قتلوها ذبحاً أو شنقاً وهو نوع مشهور آنذاك فى المحافظة على العرض كما تقتل الحرة نفسها إذا سبيت .

والمقاييس الأخلاقية فى المجتمع لا تزن الانحرافات وحدها ولا تتخذها ميزاناً للحكم على المجتمع أخلاقياً ، ومن هنا فقد ناقشت بعض

الكاتبين من علماء المسلمين فيما ذهبوا إليه من تصوير البيئة العربية على أنها كانت فى ظلام دامس وانحراف مزعج استحق أن يوجد فيهم رسول ليهديهم إلى الصلاح والهدى ، وليست تلك مهمة الرسول ، وإلا كانت سهلة ميسرة وقبل الناس بكل ارتياح وترحاب لأنهم كانوا يحبون الفضيلة ويفتخرون بالشرف والحسب ويعتزون بطهارة العرض وكرامة المحتد . —

وقد استندت فى ضوابط هذه الخلقية إلى ما كتبه العلامة ابن خلدون وينتهى هذا الفصل بحقيقة : « لقد كانت أم القرى والجزيرة العربية خير مركز لرسالة الإسلام » .

وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الآدمية خير أمة لاستقبال هذا الدين الحنيف ، كما يشهد بذلك العالم الإسلامى الهندى الكبير السيد أبو الحسن على الحسنين الندوى[1] .

الفصل الثانى :

عالج قضية أساسية فى التصور الإسلامى كثيراً ما يعرضها المثقفون عرضاً غير دقيق ، هذه القضية هى بشرية النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد أثبتت النصوص الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم اختير

---

(١) راجع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ .

للرسالة وآدم منجدل فى طينته ، وأنه بشارة عيسى بن مريم ورؤيا أمه ورؤيا أمهات الأنبياء حق، فالحديث عن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغى أن يلاحظ فيه :

أنه اختير للرسالة منذ الأزل .

وأنه بشارة عيسى .

وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وأن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على الأنبياء من قبله أن يبشروا به ويعززوه وينصروه .

ومن هنا فان إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة كان منذ شيء له أن يكون رسولا .

فولادته وما أحاطها من البركات والإرهاصات ورضاعه وما شمله الله به من العناية .

وشق صدره الكريم مرات عدة .

ورعيه الغنم .

ونهيه عن كشف العورة .

وعصمته من الإتيان بشئ من أفعال الجاهلية وهو فى سن الشباب .

كل ذلك لا ينبغى أن يدرس من زاوية البشرية العادية التى تخضع لعلم النفس ودراسة علم الاجتماع ونظريات التربية . فان بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم فوق حدود نظريات علم النفس وعلم الاجتماع والتربية .

إنها بشرية (يوحى إلى) بشرية من قال له ربه :

(ألم يجدك يتيما فآوى .

ووجدك ضالا فهدى .

ووجدك عائلا فأغنى) .

إنها بشرية من قال له الله :

(فإنك بأعيننا) .

(وإنك لعلى خلق عظيم) .

وعلى هذا فالوصف بالنبوة والرسالة هى الأوصاف الطبيعية الحقيقية للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه خاتمها وقلادة عقدها الأخير وأنه الماحى الذى يمحو الله به الكفر وهو العاقب الذى لا نبى من بعده أبداً .

أما العبقرية والزعامة والقيادة فهى أوصاف بشرية عادية تتكرر وتتفاوت وتتغاير وتتضاد وتجتمع وتفترق وتتجدد .

وإذن فمن زاوية الدراسة العلمية الإسلامية لا ينبغى أن تتخذ بشرية الرسول موضع دراسة فى العبقرية أو الزعامة أو القيادة :

فإنما هو بشر « يوحى إليه » وهو وحده الذى وسعت أقطار نفسه الشريفة أن يتحمل الوحى بأثقاله وأن يتجاوز السموات السبع حتى سدرة المنتهى . فأين الباحثون جميعاً بذكائهم وتخصصاتهم من تلك المقامات السامية التى لا ينالها إلا من قيل له : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ولم تكن هذه البشرية السوية كما اصطلحت عليها فى هذه الدراسة منعزلة عن المجتمع كل الانعزال ولا منغمسة فيه كل المغامسة : لقد كانت بشرية سوية أعدها الله محصنة بريئة من القدرة على استقبال عدوى لا تتفق مع طبيعتها النبوية .

فاليتم .
ورعى الغنم على قراريط .
والعمل فى التجارة .
والمشاركة فى حلف الفضول .
تربية خاصة .

لقد عاشر المجتمع وظهرت آثار هذه التربية . فلقبوه بالأمين . وهم قوم ليس عندهم تقاليد كسرى وقيصر ولا نياشين فارس ولا ألقاب

الروم إنها مشيخة تدين فيها الذرية للمجد الأكبر ولكن المجتمع العربى اتفق طواعية منه على أن يعطى محمداً صلى الله عليه وسلم هذا اللقب وحده (الأمين) فقد كان موئل سرهم وأمين ودائعهم ، والقاضى فى مدلهمات أمورهم . كان وحده فى المجتمع قاطبة ، كان الأمين .

فتدربت هذه الشخصية السوية على كل أنماط الحياة فى المجتمع وعاشت حياة البشر فى كل مستوياتها فحصلت له بالممارسة معرفة بثقافة البيئة وتعرف على حاجات الناس ومشكلاتهم ، وذلك القدر من الأعداد هو ما يحير الاخصائيين فى معاهد التدريب فى العالم كله لأن الحساسية الاجتماعية التى يدرك بها المصلح الاجتماعى آلام الناس وحاجاتهم لا تتربى فى وسط قاعة محاضرات ومجموعات النظريات والكتب والمحاضرين والمناقشين ، ولكنها ترتبط أصلا بالتدريب الميدانى الذى يصطلح عليه حديثاً العاملون فى حقل خدمة المجتمع .

ولقد سبقت مرحلة التمهيد للدعوة الاسلامية جميع نظريات الإصلاح الاجتماعى بهذه التربية الإلهية التى أعد الله بها حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم ليكون النبى الخاتم للعالمين أجمعين .

وينتهى هذا الفصل وقد قرر حقيقتين :

الأولى : أن بشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرية الأنبياء لا تخضع لدراسة العلوم البشرية الحديثة لأنها فوق جميع نظريات علوم التربية والنفس والاجتماع . . . . الخ .

الثانية : أن الله قد هيأ نبيه صلى الله عليه وسلم بتدريب كامل اشتمل على ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه دون أن ينفعل بهذه الثقافة ، وأن المجتمع قد احترم فيه بشريته السوية فلقبوه بالأمين ، وهو لقب يتيم على مدى االدهر كله اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد المجتمع بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة وهو فى أعلى ذروة من الثقة والأخلاق المجيدة .

الباب الثانى وتحته فصلان :

الفصل الأول :

فى التحنث وقد أكدت الدراسات فى هذا الفصل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسلم عليه الحجر إيذاناً بقرب يوم اللقاء بين البشرية السوية والوحى الأمين وقد خاض العلماء فى مسألة الشرع الذى كان يتعبد به النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء وهى مسألة خاصة بالتربية الإلهية لنبيه صلى الله عليه وسلم لا سبيل إلى علم من علوم الفقهاء لدراستها وبحثها وقد استخلصت من شروح العلماء أن بدء النبوة كان بالرؤيا الصادقة وأن بدء إعلان هذه النبوة كان بالوحى وعلى هذا فان النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غار حراء نبياً .

فى مسلم : « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن » وذلك قبل الرؤيا الصادقة .

قال القسطلانى :

أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحى الرؤيا الصالحة ثم

حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء — كما مر — فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحى لأن كلمة ثم للترتيب .

والرؤيا الصالحة وحى تترتب عليه أحكام شرعية لقد نفذ سيدنا إبراهيم رؤيته : (يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) .

وخضع سيدنا إسماعيل ، وتله أبوه للجبين ثم ناداه ربه أن قد صدقت الرؤيا وفداه بذبح عظيم .

والرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أعد ركب الحجيج إلى مكة معتمراً تنفيذاً لرؤياه : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) .

ولا يختلف العلماء فى أن الرؤيا الصادقة جزء من الوحى . وعلى هذا فان التحنث فى غار حراء كان تعبداً من نبى بدأه الله بالنبوة بالرؤيا تمهيداً وتوطئة لإعلانها له فى اليقظة على نحو ما قاله ابن حجر .

وينزل الوحى معلناً النبوة والرسالة . وتمضى العلاقات بين النبى صلى الله عليه وسلم وربه على مستواها الخاص ولكن بعض الروايات تدرج كلاماً لا يتفق مع منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا مع مستوى العلاقة بين النبى وربه . . فيقولون فى فترة الوحى : إنه حزن حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من رءوس شواهق الجبال .

ومع أن هذه المدرجات أو البلاغات قد نفاها أحد العلماء المختصين فى الحديث وعلومه فضيلة الأستاذ الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة وجزاه الله خيراً غير أن علماءنا الأجلاء السابقين قد تركوها ودافعوا عنها ،

فتعرضت لها لأنفيها مطلقاً برواية يتحدث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه عن فترة الوحى ولا يملك أحد مطلقاً بعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عن هذه الفترة بعد أن تحدث هو عنها لأنه الصادق المصدوق وهو الأعلم بحاله مع ربه وهى رواية البخارى عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يحدث عن فترة الوحى — : بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ففرقت منه فرجعت وقلت زملونى زملونى .

وليس لأحد بعد رسول الله رأى أو فقه أو رواية .

الفصل الثانى :

فى اختبار مرحلة التمهيد بعد وجود اللقاء بين النبوة التى وعى الله المجتمع لها بإرهاصات وبين الناس الذين عاشوا لحظات هذه التوعية قبل الرسالة وفى مقدمة هذا الفصل ناقشت المدرسة العقلية التى تنفى مقدمات دلائل النبوة متعللين بأن مواجهة العرب للدعوة كان منشؤها المفاجأة ويصور هذه المدرسة فضيلة الدكتور محمد خليل الهراس، ولو أن فضيلته اتخذ منهجاً محدداً فى رد دلائل النبوة لكانت المناقشة مع فضيلته فى إطار أكاديمى لكنه اضطرب فثار وهو يعلق على كتاب « الخصائص الكبرى » « للإمام السيوطى » ينفى الإرهاصات ويدعى أنها خرافات، وأن إثبات النبوة والرسالة ليس فى حاجة إلى

هذا ، ومرة يعلن : الموافقة فوضعته أمام نفسه فى هذا التعارض ثم قدمت إليه دلائل النبوة للأنبياء السابقين من القرآن الكريم وأشرت إلى فصول فى كتب العلماء الأجلاء خاصة بهذه الدلائل ، واكتفيت فى هذه المقدمة للفصل الثانى بأن أثبت أن مرحلة التمهيد أو دلائل النبوة سنة مسنونة بين الله وأنبيائه .

ثم اختبرت مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية التى عقدتها فى الباب الأول ووضعت لهذا الاختبار نماذج منها :

* أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم الاعرف بحاله وسلوكه وهى السيدة خديجة رضى الله عنها .
* ثم أعرف الناس بكتاب الإنجيل والتوراة وهم ورقة ، والنجاشى ونسطورا ، وبحيرا .
* ثم علماء اليهود وفى مقدمتهم : عبد الله بن سلام ومخيريق .

أما خديجة رضى الله عنها فلقد قالتها فى حزم وجد وصدق وإيمان ويقين منذ اللحظة الأولى وهو يخبرها بما يرى من الرؤيا الصادقة :

إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

وأثبت فى هذه الدراسة عن حياة السيدة خديجة مع النبي صلى الله عليه وسلم أنها :

* وضعت أساس أسرة الداعية الذى ينبغى أن يتصدى لدعوة الله وما ينبغى أن تكون عليه من المعرفة والثقة والمعاونة .

* وأنها قدمت للتاريخ دليل النبوة للنبى صلى الله عليه وسلم بحاله وتصرفاته وأخلاقه فعطلت بذلك مدارس علم الكلام كلها .

* وأنها أول من بدأ اختبار الملاحظة وتطبيق المنطق التجريبى عمليا .

* وأنها رفضت الزواج وهى العاقلة الحازمة الشريفة بعد أن تزوجت مرتين [1] لأنها كانت تنتظر معرفة الرجل ذى الأوصاف النبوية التى أخبر بها اليهودى نساء قريش يوم أن اجتمعن فى عيد لهن وحصبته النساء ووعت خديجة وحدها ذلك . فلما ظهرت دلائل النبوة كانت مصدقة مقرة مؤمنة ولذلك بشرها ربها ببيت فى الجنة من القصب ، وهدية الله لها تكريماً لوفائها وتصديقها لأحب الأنبياء إلى ربه .

وأما ورقة : فقد أقر بالنبوة والرسالة وحدد معالم الطريق كله وتمنى أن يكون فى جذعا إذ يخرجه قومه .

---

(١) تزوجت من عتيق بن عابد : وأنجبت منه بنتا هى ، هند أم محمد بن صيفى المخزومى ومن أبى هالة هند ، فأنجبت له ولدا ذكرا اسمه هالة وآخر اسمه هند ج ١ ص ١٦٧ الحلبية .

وأما النجاشى : فقد أقر بأن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة :

وأما بحيرا : فقد قال لأبى طالب ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم :

وأما نسطورا : فقد قال لميسرة : هو نبى ، وهو آخر الأنبياء ثم دنا من النبى صلى الله عليه وسلم وقبل رأسه وقال : آمنت بك وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة ، وتستمر هذه الاختبارات تؤكد صحة مرحلة دلائل النبوة أو مرحلة التمهيد للدعوة حتى عهد المدينة المنورة .

فيقول عبد الله بن سلام : وهو من علماء اليهود : قال لعمته أى عمة : هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به .

فتقول له عمته : أهو النبى الذى كنا نخبر به أنه يبعث مع بعث الساعة ؟

فيقول لها عبد الله : فذاك إذن :

ثم يسلم ويكتم إسلامه لأنه يعرف صفة اليهود وصدأ قلوبهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوة الإسلام .

وتمضى الحياة فى المدينة المنورة ومازالت دلائل النبوة لها آثار .

فهذا مخيريق : وهو حبر يهودى ثرى يهدى أمواله كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ويأخذ سيفه ليجاهد فى سبيل الله يوم زالت عنه غشاوة الكفر وقال لقومه : يامعشر اليهود : والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق .

ومثل ذلك سلمان الفارسى : تتقلب به الأحوال والأيام حتى يأتى إلى رسول الله فى المدينة فيتعرف عليه من دلائل النبوة حسبما قصها عليه الأحبار والرهبان وسمعها من أحاديث العارفين بها فى مرحلة التمهيد التى شاءها الله جل شأنه .

فتثبت صحة مرحلة التمهيد فى آثارها التى ظهرت فى إسلام ثلة من الأولين الذين شرح الله صدورهم للإسلام .

وفى الجانب السلبى تبدو أهمية مرحلة التمهيد فى إظهار أسباب الكفر أنها لم تكن المفاجأة كما تذهب المدرسة المنكرة لدلائل النبوة ، ولكنها أشياء أخرى منها ماقاله أمية بن أبى الصلت :

والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً .

إنى لاستحى من بنات ثقيف[1].

---

(١) راجع فتح البارى ج ٨ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

وهرقل قال يوماً : لو كنت عنده لغسلت عن قدمه[١] .

ولكن شغله الملك ومنعته صيحة الشغب التي صاحها شعبه كأنهم حمر مستنفرة كراهية في دين الإسلام .

وتظهر هنا صفحتان متقابلتان :

صفحة الخضوع والإذعان للنبوة بدلائلها كما فعل النجاشي وقال لقومه ، « وإن نخرتم » فأسلم وصدق وآمن رغم أنف غضبة قساوسته .

وصفحة الملك المتأبي الضعيف أمام الشعب الذي حاصر به شعب أحب عبودية البشر من دون الله وذلك أمر هرقل .

وبذلك يتم اختبار مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية كما أرادها الله لتظهر للتاريخ حقيقتين :

الأولى : أن دعوة الإسلام عليها دلائل وفي مقدمتها حال الداعية وتبشير أهل الكتاب به وما أظهره الله من علاقات .

الثانية : أن الذين ردوا دعوة الله كان ذلك لمرض في صدورهم

---

(١) في سولاويسى الجنوبية Sulâuisi selatan باندونيسيا تعتبر هذه العادة من — التقاليد الكريمة التي يكرم بها أعظم الضيوف . . وما زالت حتى العصر الحاضر عادة متبعة لتكريم العظماء والزائرين . فانظر كيف كان هرقل يود أن يكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

أو ضعف فى نفوسهم « سمه حسداً أو قومية » أو ماتشاء ، من علل النفس والقلب والعقل والشعور .

وبذلك تتم مرحلة هامة فى دراسة الدعوة أساسها بشائر النبوة الخاتمة كعامل وركيزة فى تفهم سير الدعوة فى عهدها المكى ثم فيما يأتى من بعد . . .

وبالله التوفيق ،

دكتور رءوف شلبى

البَابُ الأَوَّلُ

الفصل الأول :

البيئة التى نشأت فيها الدعوة ..

الفصل الثانى :

اعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة ..

الفصل الأول

البيئة التى نشأت فيها الدعوة

تواجه الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث عديداً من التيارات ، والمذاهب المواجهة لها .

انها تواجه فى الحقل الاقتصادى الشيوعية التى تجر بمذهبها المادى الكفر والإلحاد كمبدأ وسلوك وعقيدة .

وتواجه فى الحقل الدينى تحالف قوى المسيحية واليهودية معا وبقية الديانات الوضعية مثل : القاديانية والبهائية . . . الخ .

وتواجه فى الحقل الثقافى العام نزعات التحلل والاباحية والعندية مثل الوجودية . وبقية الصناعات التطورية فى السلوك الأخلاقى .

وهذه المواجهة فى العصر الحديث تشابه ما واجهته الدعوة فى بدئها الأول .

ولمعالجة قضايا المجابهة فى العصر الحديث كان لابد من التعرف على اسلوب الدعوة فى عصرها الأول ليستأنس بسلوكها قديماً فى معالجة حاضرها الذى نعيشه .

والحديث عن أمس الدعوة أو الدعوة فى أمسها حديث خطير يستلزم عرضاً — ولو بصورة وسط — لظروف البيئة التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية حتى تبرز سمات القوم ومناهجهم الذى ناصروا به الدعوة وجابهوا به القوى الثلاث ، ليدرك الذين آمنوا بها اليوم وقعدوا عن نصرتها ، أو خلطوها أو قربوها من احدى المفاهيم — الثلاث . . . أن انتكاسة العاملين فى حقل الدعوة يرجع سببها لعيب فيهم ، أو فى المنهج ، أو فيهما معا .

والباعث الذى يحدونا إلى تقديم دراسات عن : البيئة التى نشأت فيها الدعوة منشؤه :

١ — ان المجابهة التى تعيشها الدعوة فى العصر الحديث لم تكن جديدة عليها فقد نشأت فى بدء فجرها وسط بيئة مماثلة حاولت منذ التعرف على سمات النبى صلى الله عليه وسلم أن تقتله[1] ، كما حاول جانب آخر من الناس أن يتعرفوا عليه وانتظروه طويلا ، وكلا الأمرين يجتمعان فى العصر الحديث :

٢ — ان جانبا من الكاتبين اتهموا الجو العربى فيما قبل البعثة بالجهل والغلظة والعنجهية : . .

ويصورون ذلك فى صور بشعة رديئة يحس بها القارئ أن وجه الأمة

---

(١) خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام ١٥١ .

العربية لم يكن مؤهلا لبشاشة رجاء ينبئ بها عن بعثة نبي يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وجعلوا هذه الصورة القاتمة المتشائمة من أسباب بعثة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهذا الاتجاه يجعل الدعوة الإسلامية حدثاً مفاجئاً للحياة العربية قبل الإسلام .

وفى نظرى وإحساسى أن هذا الاتجاه فضلا عن مخالفته للواقع التاريخى الصحيح فهو إنما يصدر عن باحث يخضع الدراسات التى يتناولها لمزاجه الخاص وعاطفته الخاصة .

فما كانت الدعوة الإسلامية حدثاً مفاجئاً : لا للفكر ولا للمجتمع .

فقد كانت البيئة المكية وما حولها فى جو من البحث عن العدل الدينى ، والعدل الاجتماعى .

وكان الأحبار والرهبان والكهان والعرافون والملوك والسوقة من الناس ينظرون قدوم نبى آخر الزمان .

فاذا سلمنا جدلا أن الدهماء والسوقة والغوغاء من الناس آنذاك قبلوا فكرة الأصنام كعقيدة فان المستقيمين من الناس وهم :

* الحنفاء .

* والباحثون عن العدل الدينى .

* والمتنافسون فى إقامة العدل الاجتماعى . . من الأذكياء والحكماء وذوى النظر والرأى والمشورة .
* والحمس المتشددون فى التدين :

هؤلاء جميعاً قد احتقروا عبادة الأصنام ، ورأوها رذيلة مسفة بالعقل والخلق والوجدان الإنسانى .

وأن النماذج التى نقدمها لهى الصورة التى أغفلها الباحثون فى حديثهم عن أسباب البعث المحمدى . وهى الصورة المتفائلة التى تجعل من الدعوة وحياً ربانياً اختار الله له البيئة التى تصلح لشرف حمل الرسالة .

أولا : نموذج الحنفاء

يقول الشهرستانى :

« ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنة وشرائع » . . .[1]

فيعطينا بهذا النص فقها عن أحوال البيئة الأولى التى نشأت فيها الدعوة ، ولقد كان فيها مستقيمون حنفاء معتدلون على الفطرة التى فطرهم الله عليها .

---

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ للشهرستانى — راجع ص ٧٨ ج ٢ الموافقات لأبى اسحاق الشاطبى .

وكان من هؤلاء الحنفاء الذين عطروا الجو العربى بروائح الذكر والحب الالهى :

١ — قس بن ساعدة الأيادى .

٢ — زيد بن عمرو بن نفيل .

٣ — أمية بن أبى الصلت .

٤ — أبوقيس بن أبى أنس .

٥ — خالد بن سنان :

* * *

١ — قس بن ساعدة الأيادى

عربى فى زمن الجاهلية موحد مؤمن أبغض الأصنام والازلام ... ونصح الناس فى عكاظ :

أيها الناس : اجتمعوا واسمعوا ، وعوا، وإذا وعيتم شيئاً فانتفعوا ،

انه من عاش مات :

ومن مات فات .

وكل ماهو آت ، آت .

مطر ونبات :

وأرزاق وأقوات .

وبحار تفور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع :

أقسم بالله لا حانثا ولا آثما : إن لله دينا أحب من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبياً قد أظلكم أوانه ، وأدرككم ابانه ، فطوبى لمن أدركه فآمن به ، واتبع هداه ، وويل لمن خالفه وعصاه،مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟

أرضوا بالمقام فقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟

يا معشر بنى آدم ؟

أين الآباء والأجداد ؟

وأين المريض والعواد ؟

طحنهم الثرى بكلكله ، ومزقهم بتطاوله ؟

كلا ، بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود :

في الذاهبـين الأولـين ... من القـرون لنا بصائـر

لمـا رأيت مـواردا ... للقوم ليس لهـا مصـادر

ورأيت قـومى نحـوها ... تمضى الأصاغر والأكابـر

لا يرجع المـاضى إلى ... ولا من الباقين غابـر

أيقنت أنـى لا محـا ... لة حيث صار القوم صائر[1]

---

(١) اختلفت الرواة فى ألفاظ النص ، وقد نقل صاحب السيرة الحلبية طرقا منها ، راجع ١٨٨ ، ١٨٩ ج ١ السيرة الحلبية — ومروج الذهب ج ١ ص ٦٩ — ٧٠ . والسيرة النبوية لابن كثير ص ١٤١ — ١٥٣ — ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٤ وكتب الآدب والشفاء ج ٣ ص ٢٦٩ ، وجواهر الآدب ج ٢ ص ١٩ ..

يقول الشهرستانى :

ومن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب قس ابن ساعدة الأيادى ، قال فى مواعظه :

كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ، ولئن ذهب ليعودن يوما .
وقال :

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد
أعاد وأبدى وإليه المآب غدا

وله شعر فى الإعادة والبعث رواه له الشهرستانى[1].

يقول عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — :

(رحم الله قسا ، أما إنه سيبعث يوم القيامة أمة وحده)[2].

* * *

---

(١) الملل والنحل ج ٢ص ٢٥١ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٤١ — ١٥٣ ، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة لفضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٥٠ .

٢ ـ زيد بن عمرو بن نفيل

يقول فيه صاحب الأغانى :

وكان زيد بن عمرو أحد من اعتزل عبادة الأوثان وامتنع عن أكل ذبائحهم[١] .

يقول ابن هشام :

قال ابن اسحق : فأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ، ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان ، والميتة والدم ، والذبائح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة وقال :

اعبد رب إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

ويستمر ابن هشام فى التحدث عن زيد فيقول وهو يروى عن هشام عن عروة عن أبيه ، قال :

لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول :

« يا معشر قريش : والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » .

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٢٣ .

ثم يقول :

« اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك ولكنى لا أعلمه ثم سجد على راحلته »[1].

وفى صحيح البخارى ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت :

رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول :

يا معشر قريش : والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى؛ وكان يحيي الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لاتقتلها ، أنا أكفيك مؤنتها ، فيأخذها فاذا ـ ترعرعت قال لأبيها :

إن شت دفعتها إليك ؟

وإن شت كفيتك مؤنتها ؟[2].

وكان زيد يستقبل الكعبة وهو يشدو بهذه الأبيات :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت　　له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما رآها استوت　　على الماء أرسى عليها الجبالا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥ تحقيق الابيارى ، والسقا ، وشلبى أو ج ١ ص ٢٠٤ تحقيق فضيلة الشيخ محيى الدين عبد الحميد .

(٢) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٧٨ ، ١٧٩ راجع فتح البارى لابن حجر ج ٨ ص ١٤٢ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلـــــدة أطاعت فصبت عليها سجالا[1]

وقال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمرو حدثنى أبوبكر بن أبى سبرة عن موسى بن ميسرة ، عن ابن أبى مليكة ، عن حجر بن أبى إهاب قال :

رأيت زيد بن عمرو ، وأنا عند صنم بوانة بعد ما رجع من الشام ، وهو يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى ركعة بسجدتين ثم يقول :

هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل ، لا أعبد حجراً ، ولا أصلى له ، ولا آكل ما ذبح له ، ولا استقسم الأزلام .

وإنما أصلى لهذا البيت حتى أموت .

وكان يحج فيقف بعرفة ، وكان يلبي فيقول :

لبيك لا شريك لك ، ولا ند لك :

ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول :

لبيك متعبداً مرقوقا[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ تحقيق الابيارى ، السقا ، شلبي راجع الأغانى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٥٩ .

ومن ابتهالاته عند الكعبة مايروية ابن هشام :

كان زيد إذا استقبل الكعبة داخل المسجد ، قال :

لبيك حقا حقا ، تعبدا ورقا .

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل القبلة وهو قـــائم

إذ قال :

أنفى لك اللهم عان راغـــم مهما تجشمنى فإنى جـــاشم[1]

البر أبغى لا الخال[2] .

ليس مهجر كمن قال[3] .

كفاحه من أجل الدين الحق

يقول صاحب الأغانى والروض ، وابن كثير :

إن زيدا خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فالقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال : لعلى أدين بدينكم فأخبرنى بدينكم ؟

(١) العانى : الأسير ، تجشمنى : تكلفنى .

(٢) الخال : الكبرياء .

(٣) المهجر : الماشى فى وقت الهاجرة ، كمن قال : النائم المستريح فى وقت القيلولة — القائلة — راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٠ تحقيق السقا ، الابيارى شلبى .

فقال اليهودى : إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد : لاأفر إلا من غضب الله ، وما أحمل من غضب الله شيئا ابدا ، وأنا استطيع فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟

قال : ماأعلمه إلا أن يكون حنيفا .

قال : وما الحنيف ؟ .

قال : دين إبراهيم .

فخرج زيد من عنده ، وتركه ، فأتى عالما من علماء النصارى ، فقال له نحوا مما قال لليهودى . فقال له النصرانى : إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ؟ .

فقال زيد : إنى لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا ، وأنا أستطيع فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟

فقال له : نحوا مما قال اليهودى له : لاأعلم الا أن يكون حنيفا .

فخرج من عندهما . . . وقد رضى بما أخبراه واتفقا عليه من دين إبراهيم فلما برز رفع يده ، وقال :

اللهم إنى على دين إبراهيم[1] .

---

(١) راجع الأغانى ج ٣ ص١٢٦ ، ١٢٧ ، الروض الأنف ج ١ ص ١٤٧ ، سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٥٦ — ١٦٠ .

حسن خاتمته :

جال زيد بن عمرو الشام كله حتى انتهى إلى راهب بميفعة[1] من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية — فيما يزعمون — فسأله عن الحنيفية : دين إبراهيم ، فقال :

إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ولكن قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق به فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه .

فخرج سريعا حين قال الراهب ماقال يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه[2] فقال ورقة بن نوفل بن أسد يبكيه :

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنورا من النار حاميـــا
بدينك ربا ليس رب كمثلـــه وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيـــا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكـــن من الناس جبارا إلى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الارض سبعين واديا[3]

---

(١) هى المكان المرتفع ، وفيها لغة بحذف الميم : بيفعة .

(٢) يروى الأستاذ محمد بك غنيم فى كتابه : خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام أن بعض ملوك غسان قد سم زيد بن عمرو فمات بدمشق ، ج ١ ص ١٩٩ وراجع ص ١٦٢ سيرة ابن كثير ج ١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ تحقيق : شلبى ، السقا ، الأبيارى .

يقول فى شأنه فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود :

استمر زيد يجاهد فى سبيل الوصول إلى الله كان يجاهد بمنطقه وتفكيره وتارة بسؤاله كل من يصادفه من ذوى المعرفة الدينية .

كان يسأل الناس إذا قام ، ويسألهم إذا ارتحل حتى انتهى فى النهاية إلى مذهب اطمأنت إليه نفسه ، فخاطب قريشا قائلا :

يامعشر قريش ، والذى نفسى بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى[1] .

فخط زيد بن عمرو بهذا الجهاد طريق الإرهاص لاتباع الحنيفية الغراء .

يقول فيه الشهر ستانى :

فمن كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر ويعتقد الدين الحنيف وينتظر المقدم النبوى . زيد بن عمرو بن نفيل . كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول :

أيها الناس ، هلموا إلى ، فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى[2] .

يقول فيه النبى — صلى الله عليه وسلم — لابنه سعيد بن زيد ، وقد سأل مع عمر بن الخطاب :

أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ .

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٠ ، ٢١ ط ٣ الأنجلو .

(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ .

فقال النبي — صلى الله عليه وسلم :

نعم ، فإنه يبعث أمة وحده[1] .

اللهم اغفر له فقد كان نورا على الطريق .

٣ — أمية بن أبى الصلت

هو الشاعر العربى المشهور قال فيه الكميت :

أمية أشعر الناس[2] .

ولقد حفل شعره بذكر الرسل والأنبياء والجنة والنار ، وكان كثير العجايب يذكر فى شعره خالق السموات والأرض ، يروى عنه هذا الشعر وقد نسبه ابن هشام إليه :

ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لاتخفى من الله خافيا

وإياك لاتجعل مع الله غـــيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا

رضيت بك اللهم ربا فان أرى ... أدين إلها غيرك اللهم ثانيا

أدين ارب يستجاب ولاأرى ... أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٦ راجع سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٦٢ والأغانى ج ٣ ص ١٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٤٧ من مراجع هذا البحث شرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٦٣ وما بعدها ط أولى المطبعة الأزهرية عام ١٣٢٦ هـ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

وأنت الذى من فضل من ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له ، أأنت سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له ، أأنت رفعت هذه بلا عمد ، ارفق إذا بك بانيا
وقولا له ، أأنت سويت وسطها منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له ، من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الارض ضاحيا
وقولا له ، من ينبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه وفى ذلك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى اضعاف حوت لياليا
وانى ولو سبحت باسمك ربنا لاكثر ، الا ماغفرت خطائيا[1]

هذه نزعة رجل موحد مؤمن بخالق الملكوت معترف بفضل ربه .

يروى فيه صاحب الاغانى .

قال الزبير ، وحدثنى مصعب عن مصعب بن عثمان قال :
كان أمية بن أبى الصلت قد نظر فى الكتب وقرأها وليس المسوح تعبدا ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل ، وحرم الخمر ، وشك

---

(١) سيرة ابن هشام ح ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ تحقيق : شلبى ، السقاء ، الابيارى .

فى الاوثان ، وكان محققا[١] . التمس الدين وطمع فى النبوة ، لانه قرأ فى الكتب أن نبيا يبعث من العرب فكان يرجو أن يكونه[٢] .

وحول هذه النزعة الشرهة لأمية فى استشرافه للنبوة يستمر صاحب الاغانى فى تفسير آماله وأمنيته فيقول :

أخبرنى الحرمى قال : حدثنا الزبير عن عمر بن أبى بكر المؤملى وغيره ، قال :

كان أمية بن أبى الصلت يلتمس الدين ويطمع فى النبوة .

فخرج إلى الشام فمر بكنيسة وكان معه جماعة من العرب وقريش ، فقال أمية :

إن لى حاجة فى هذه الكنيسة فانتظرونى .

فدخل الكنيسة . وابطأ . ثم خرج اليهم كاسفا متغير اللون فرمى بنفسه . واقاموا . حتى سرى عنه . ثم مضوا . فقضوا حوائجهم . ثم رجعوا . فلما صاروا إلى الكنيسة قال لهم : انتظرونى . ودخل الكنيسة . فأبطأ . ثم خرج اليهم أسوأ من حالته الأولى ، فقال أبوسفيان ابن حرب : قد شققت على رفاقك ؟

---

(١) وفى رواية فى نسخة أخرى : وصام محققا .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٢٢ ج ١٢٣ .

فقال: خلونى . فإنى أرتاد على نفسى لمعادى . إن هاهنا راهبا عالما أخبرنى أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات . وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة . وأنا أطمع فى النبوة وأخاف أن تخطئنى . فأصابنى ما رأيت ، فلما رجعت ثانية أتيته فقال : قد كانت الرجعة ، وقد بعث نبى من العرب ، فيئست من النبوة فأصابنى ما رأيت ، إذ فاتنى ما كنت أطمع فيه[1] .

ويحفل كتاب الأغانى بمثل هذه الروايات التى تفصح عن آمال أمية فى النبوة ، تلك الأمنية الغالية التى علم بها من الثقافة التى حصل عليها وطمع فيها لنفسه .

والعلامة على بن برهان الدين الحلبى الشافعى يكشف أمره فيقول فيما يرويه عن أمية فى حديث له مع أبى سفيان :

إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا فكنت أظن أنى هو ، وكنت أتحدث بذلك ثم ظهر لى أنه من بنى عبد مناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت إنه غيره[2] .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ ط الحلبى فى رجب ١٣٤٩ هـ .

ومن النص السالف يبدو للباحث ثلاث حقائق :

١ ـ أن صفات النبوة المنتظرة كانت تتناقلها البيئات الثقافية في محيط المجتمع العربي خاصة مع أهل الكتاب .

٢ ـ أن مجموعة من أشراف قريش كان فيهم مايشابه من وجه هذه الأخلاق .

٣ ـ وأن المجتمع بات يترقب بعث هذا النبي الذي شاع في الناس خبره وصفاته .

ولأمية شعر في هذا المجال : مجال ترقب النبي القادم يرويه لنا صاحب باوغ الأرب والأغاني :

الحمد لله ممسانـا ومصبحنا	بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفية لم تنفـد خزائنه	مملوءة طبق الآفـاق سلطانا
ألا نبي لنـا منا فيخبرنـا	مابعد غايتنـا من رأس محيانا
بينا يربينـا أباؤنـا هلكـوا	وبينما نقتني الأولاد أفنـانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا	أن سوف يلحق أخرانا بأولانا[1]
وقد عجبت وما بالموت من عجب	مابال أحياؤنا يبكون موتانا[2]

---

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) هذا البيت زيادة رواها باوغ الآرب ج ٢ ص ٢٥٣ راجع اشعاره في التوحيد والنعيم والجحيم في جواهر الآدب ج ٢ ص ٩٩ للشيخ أحمد الهاشمي ، وبلوغ الأرب للآلوسي ج ٢ ص ٢٥٤ .

التواء الطريق :

ومع هذا التوحيد الواضح فقد حرم امية من أشهى ما كان يتمنى ، لقد حرم لذة الايمان ، وحرم من حلاوة التوحيد .

إنه يعترف فى صراحة جريئة :

كل دين يـــوم القيـــامـــة   عند الله الا دين الحنيفية زور

ولكن أمانيه لوت طريق فكره واغلقت عليه منافذ الرضوان ، والشهوة إذا ثارت بدلت الحجا حجرا وغيرت البصيرة طمسا وركبت المشاعر متون الشياطين . فقد كفر أمية الذى ينساب شعره توحيدا وصفاء ، وخوفا ورجاء .

يارب لا تجعلنى كافرا أبـــدا   واجعل سريرة قلبى الدهر ايمانا

واخلط به بنيتى واخلط به بشرى   واللحم والدم ماعمرت انسانا

انى اعوذ بمن حج الحجيج له   والرافعون لدين الله اركانا

مسلمين إليه عند حجهـــم   لم يبتغوا بثواب الله أثمـــانا[1]

ولكن غلبت على حنيفيته شقوته ، يروى صاحب الأغانى :

لما مرض أمية مرضه الذى مات فيه جعل يقول :

قد دنا أجلى . وهذه المرضة منيتى وانا أعلم أن الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلنى فى محمد[1] .

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٥٤ .   (٢) الأغانى ج ٤ ص ١٣١ .

ولم الشك يا أمية ؟

لقد عرفت أن هذا الامر سيئول إلى رجل من قريش من بنى عبد مناف ، وأن شباب بنى عبد مناف قد جاوزوا الاربعين ولم يوح اليهم ، ولم يبق فى دائرة الصفات التى علمتها من علماء أهل الكتاب إلا محمد بن عبد الله . فلم الشك فى محمد ؟[1] .

لم الشك ، وقد قلت لصاحبك أبى سفيان لما اخبرك به : أما انه حق فاتبعه ؟ فقال لك : فأنت ما يمنعك ؟ .

فقلت له : الحياء من نساء ثقيف ، انى كنت أخبرهن أنى هو ، ثم اصير تبعا لفتى من بنى عبد مناف[2] .

وينعاه فى رفق حزين صاحب كتاب : التفكير الفلسفى فى الإسلام فيقول :

ولكنه على خلاف ما كنا نتوقع ، قد عادى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وحاربه فغلبت عليه شقوته ، وصح فيه قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

آمن شعره وكفر قلبه .

---

(١) راجع الحوار بينه وبين أبى سفيان فى كتاب : الأغانى ج ٤ ص ١٢٤ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٨ والوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٥٣ ، ٥٤ .

ويخيل إلينا أنه ندم فى آخر حياته ندما شديدا على موقفه ذاك من الرسول فتمنى أن لو كان بدل معرفته وعلمه راعيا فى رءوس الجبال يرعى الوعولا .

لقد قال وهو على فراش الموت هذا الشعر البائس الحزين الرائع :

كل عيش وإن تطاول دهرا منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ما قد بدالى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا[1]

وفى مروج الذهب بيت حزين نادم :

كل عيش وإن تطاول دهرا فقصارى أيامه أن يزولا[2]

قال فيه النبى — صلى الله عليه وسلم :

١ — إن كاد أمية ليسلم[3] .

٢ — وفى البخارى : كاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم[4] .

٣ — آمن لسانه وكفر قلبه[5] .

* * *

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٤ .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٧١ .

(٣) الأغانى ج ٤ ص ١٢٩ .

(٤) فتح البارى ج ٨ ص ١٥٣ .

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٢٠ بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٥٤ .

٤ ـ أبو قيس صرمة بن أبى أنس

هو رجل من بنى النجار سمت فطرته النقية عن الأذى والسوء من عبادة الأوثان ورفض النصرانية ، لقد مجت مداركه الفطرية كل ملة ليست حنيفية ، وأفاض شعره على الورى يسبح الله ويدعو إلى تسبيحه وتمجيده ، ورعاية المحارم فى كنف جلاله :

سبحوا الله مشرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
يا بنى الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
يا بنى النجوم لا تظلموها ... إن ظلم النجوم داء عضال[1]

يقول ابن قتيبة فيه :

وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان ، وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها ، ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لايدخله طامث ، ولا جنب ، وقال :

أعبد رب إبراهيم .

فلما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة .

أسلم وحسن إسلامه[2] .

---

(١) بلوغ الارب ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٢١ راجع التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٥ . راجع مروج الذهب ج ١ ص ٧٤ .

٥ ـ خالد بن سنان

رجل من بنى عبس استلهم بالنظرة الاولى حقيقة العدل الدينى فارتقى بمشاعره ووجدانه عن كل دين غير حنيف :

يقول فيه ابن قتيبة :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :

ذلك نبى أضاعه قومه (١) .

---

(١) يعلق على هذا الحديث فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابة : (رسائل الإصلاح) ج ٢ ص ٩٧ بقوله :

وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به ، ومما يساعد على ردها : قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن جبير مرسلا :

أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، وليس بينى وبينه نبى . ا هـ . يؤيد هذا فى نظرى ما يرويه ابن الجوزى عن المغيرة عند لقائه مع اسقف بكنيسة الاسكندرية قال : فقلت :

اخبرنى ، هل بقى أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، وهو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبى قد أمرنا عيسى باتباعه، أ هـ . ج ١ ص ٤٥ الوفا بأحوال المصطفى .

ويقوى وجهة نظرى ما قاله ابن كثير فى السيرة :

والاشبه أنه كان رجلا صالحا له كرامات فانه ان كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إن أولى الناس =

وأتت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول :

(قل هو الله أحد) ؛

فقالت : كان أبي يقول ذا »[1]

وفي السيرة النبوية لابن كثير ، قال أبو يونس ، قال سماك بن حرب : سئل عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :

ذاك نبي أضاعه قومه ؟

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

مرحبا بابن أخي .

= بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبيا لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك) — آية رقم ٣ من سورة السجدة ا ه ص ١٠٦ .

وفي نظري أن الآية الأخيرة شاملة للأمرين جميعا والله أعلم ، وفي مسلم : أنا أولى الناس بابن مريم ، الأنبياء أولادعلات وليس بيني وبينه نبي « كتاب الفضائل » .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، بلوغ الأرب ج ٢ ٢٧٨ المعارف لابن قتيبة ص ٢١ ، التفكير الفلسفي في الإسلام ٢٥ .

٥ ـ خالد بن سنان

رجل من بنى عبس استلهم بالنظرة الاولى حقيقة العدل الدينى فارتقى بمشاعره ووجدانه عن كل دين غير حنيف :

يقول فيه ابن قتيبة :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :

ذلك نبي أضاعه قومه [1] .

---

(١) يعلق على هذا الحديث فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابة : (رسائل الإصلاح) ج ٢ ص ٩٧ بقوله :

وهذه الروايات كلها ضعيفة لم تقم على سند يعتد به ، ومما يساعد على ردها : قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن جبير مرسلا :

أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، وليس بينى وبينه نبى . اهـ.. يؤيد هذا فى نظرى ما يرويه ابن الجوزى عن المغيرة عند لقائه مع اسقف بكنيسة الاسكندرية قال : فقلت :

اخبرنى ، هل بقى أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، وهو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبى قد أمرنا عيسى باتباعه، أ هـ. ج١ ص ٤٥ الوفا بأحوال المصطفى .

ويقوى وجهة نظرى ما قاله ابن كثير فى السيرة :

والاشبه أنه كان رجلا صالحا له كرامات فانه ان كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال: إن أولى الناس =

وأتت ابنته رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول :

(قل هو الله أحد) ؛

فقالت : كان أبي يقول ذا »[1]

وفى السيرة النبوية لابن كثير ، قال أبو يونس ، قال سماك بن حرب : سئل عنه النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال :

ذاك نبي أضاعه قومه ؛

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

مرحبا بابن أخى .

= بعيسى بن مريم أنا ، لأنه ليس بيني وبينه نبي ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبيا لأن الله تعالى قال : (لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك) — آية رقم ٣ من سورة السجدة ا . هـ ص ١٠٦ .

وفى نظرى أن الآية الأخيرة شاملة للأمرين جميعا والله أعلم ، وفى مسلم : أنا أولى الناس بابن مريم ، الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي « كتاب الفضائل » .

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٦٨ ، بلوغ الأرب ج ٢ ٢٧٨ المعارف لابن قتيبة ص ٢١ ، التفكير الفلسفى فى الإسلام ٢٥ .

فهذا السياق موقوف على ابن عباس ، وليس فيه أنه كان نبيا ، والمرسلات التي فيها أنه نبي لايحتج بها ها هنا . والأشبه أنه كان رجلا صالحا له أحوال وكرامات[1] .

ذلك نموذج من حياة الحنفاء الموحدين الذين هيأوا بالندى العطر من أدعيتهم وابتهالاتهم وأذكارهم الجو العربي الذى نشأت فيه الدعوة الإسلامية .

وإنه لإرهاص بما ستكون عليه الدعوة فى المستقبل :

١ — فقد كان منهم الحنيفى الذى نصح فلم يستجب له مثل قس بن ساعدة وقد خطب الناس فى عكاظ على جمله الأورق ؛ وبشر بالنبى العاقب . وأقسم أن لله دينا هو أفضل مما هم عليه .

٢ — وكان فيهم الحنيفى الذى جاهد فى سبيل الوصول إلى دين الحنفية فعاداه الناس وقتلوه مثل زيد بن عمرو .

كان فيهم الحنيفى السفيانى الذى يصور مذهب الذين قيل
ان أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم
، أمية بن أبى الصلت .

هم الحنيفى الذى استقر على معرفة الحق حتى جاءه
فشة أو حسد ، مثل أبو قيس صرمة بن أبى أنس .

(1) لنبوية لابن كثير ص ١٠٤ — ١٠٦ .

لقد كان الحنفاء فيما قبل البعثة إرهاصا بمستويات الإيمان عند الناس فيما بعد البعثة .

ولقد كان الجو الحنيفي يملأ مجتمع قريش ولو لم تكن الصورة متكاملة غير أن الحنيفية كانت مركز نشاط فى الفكر والسلوك يرشح لهذا مايقوله الشهرستانى :

« وكانوا يداومون على طهارات الفطرة التى ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام وهى الكلمات العشر :

* فإنهن خمس فى الرأس .

* وخمس فى الجسد .

فأما اللواتى فى الرأس ، فالمضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، والفرق ، والسواك .

وأما اللواتى فى الجسد فالاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط وحلق العانة ، والختان .

وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى إذا سرق »[1] .

ويقول :

وممن كان قد حرم الخمر فى الجاهلية :

قيس بن عاصم التميمى .

---

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ٢٥٧ .

وصفوان بن أمية بن حرث الكنانى .

وعفيف بن معدى كرب الكندى .

وقالوا فيها أشعاراً :

وقال الأسلوم الليالى : وقد حرم الخمر والزنا على نفسه :

سالمت قومى بعد طول مضاضة والسلم أبقى فى الأمور وأعرف

تركت شراب الراح وهى أثيرة والمومسات وترك ذلك أشرف

وعففت عنه يا أميم تكرما وكذلك يفعل ذو الحجا المتعفف

ويستمر الشهرستانى فى ذكر عديد من الاتجاهات الحنيفية فيقول :

ومن كان يؤمن بالخالق تعالى ، ويخلق آدم عليه السلام « عبد » لطانجة بن ثعلب بن وبرة من قضاعة :

قال :

وأدعوك ياربى بما أنت أهله دعاء غريق قد تشبث بالعصم

لأنك أهل الحمد والخير كله وذوا الطول لم تعجل بسخط ولم تلم

وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانياً ولم ير عبد منك فى صالح وجم

وأنت القديم الأول الماجد الذى بدأت خلق الناس فى أكثم العدم

وأنت الذى أحللتنى غيب ظلمة إلى ظلمة من صلب آدم فى ظلم[1]

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٧ .

ويقول زهير بن أبى سلمى المزنى — وقد مر بعضاة كانت أورقت بعد يبس :

لولا أن تسبنى العرب لآمنت أن الذى أحياك بعد يبس سيحيى العظام وهى رميم .

ويروى الشهرستانى عن الكلبى :

كانت العرب فى جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها :
كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات

وكان أقبح مايصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين أو يختلف على امرأة أبيه .

ويقول الشهرستانى :

« وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ، ويحرمون » .

قال زهير :

وكم بالغيان من محل ومحرم

ويطوفون بالبيت سبعاً ، ويمسحون بالحجر ، ويسعون بين الصفا والمروة .

وكانوا يلبون ، ويقفون المواقف كلها ، وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار ، ويحرمون الأشهر الحرم فلا يغزون ، ولا يتقاتلون

فيها إلا طى وخثعم ، وبعض بنى الحارث بن كعب فإنهم كانوا لايحجون ولا يعتمرون ولا يحرمون الأشهر الحرام[1] .

ذلك هو جانب الحنفاء الذى عطر بإرهاصاته الحنيفية جو الأمة العربية لتستقبل فى وعى ويقظة الشرف الأعظم دعوة سيدنا محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم :

ثانيا : نموذج الباحثين عن العدل الدينى

كانت النزعة الدينية عارمة عنيفة فى صدور رجال ، ألهمتهم فطرتهم الأولى حسن التوجه إلى جناب الحق يستنشقون من رضوانه عبير الحرية التى ترفض السجود لغير جلاله .

لقد رفضوا الأصنام كفكرة صحيحة للألوهية ، وبقى جناب الحق أملا منشوداً .

لقد أدركوا — وهم الأذكياء فكراً ، الأصحاء جسداً — أن :

الحركة أفضل من السكون .

والحياة أشرف من العدم .

---

(١) المرجع السالف ، من مراجع هذا البحث .

تاريخ الفكر العربى الدكتور عمر فروخ ص ٩٨ ، ٩٩ . ط بيروت ١٩٦٢ م .

والمحبر ص ١٧١ ، ١٧٢ .

والسمع أكرم من الصمم .

والتكلم خير من الخرس .

إنهم — وهم يمجدون الإنسان — يعتقدون أن هناك أفضل، وهناك لا أفضل .

فكيف يقبلون الصنم مصدراً للأفضل .

إذن تخيب مساعيهم ، وتضل عقولهم .

فكان لهؤلاء الرجال رغبة فى التعرف على فاطر السموات والأرض العزيز العليم .

وإذن فلابد من البحث .

يقول ابن هشام :

واجتمعت قريش يوماً فى عيد صنم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عليه ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيًّا ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض قالوا : أجل وهم :

١ — ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى .

٢ — وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة ابن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة .

٣ — وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى .

٤ — وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط ابن رباح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤدى .

فقال بعضهم لبعض :

تعلمون — والله — ماقومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم.

ما حجر نطيف به : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ؟

ياقوم : التمسوا لأنفسكم ديناً فانكم — والله — ما أنتم على شيء .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية : دين إبراهيم .[1]

فكانت انطلاقة من عقلاء ذوى وزن اجتماعى وفكر فى أمة العرب تفرقوا باحثين عن الحق فى الدين ، وقد تركوا فى أزقة الجاهلية غوغاء البشر ليرجعوا إليهم بالحنيفية السمحاء .

١ — ورقة بن نوفل

فأما ورقة فقد تعلم النصرانية ، وقرأ الانجيل يقول فيه صاحب الأغانى :

« هو أحد من اعتزل عبادة الأصنام فى الجاهلية ، وطلب الدين وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان »[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ت ، شلبى . السقا . الابيارى .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ١١٩ .

وعاد الرجل ينتظر دين الحق وهو موحد يدعو إلى التوحيد ومن شعره فى السيرة لابن كثير .

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدوا إلهـا غير خالقكم ... فان دعوكم قولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحانا نعوذ به ... وقبل قد سبح الجودى والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لا ينبغى أن يناوىء ملكه أحد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشتـه ... يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ دان الشعوب له ... والجن والإنس تجرى بينها البرد (١)

ولقد استبطأ بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها وأرضاها قد أخبرته بالحديث الذى قصه غلامها ميسرة عليها إثر إيابه من قافلة التجارة التى وكل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبلها . فقال فى ذلك شعرا منه :

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى ياخديجا
ببطن المكتين على رجائى (٢) ... حديثك أن أرى منه خروجا

(١) صرح البغدادى فى الخزانة ج ٢ ص ٢٩ أن هذا الشعر لورقة بن نوفل كما نسبه اليه كذلك السهيلى والحافظ الكلاعى فى سيرته راجع نصوص الشعر فى السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) قال السهيلى : ثنى مكة وهى واحدة لأن لها بطاحا وظواهر ، ولعل الأمر فى نظرى بعيد عن اللغة ، وأنه مرتبط بانتظار ورقة بين مكة الجاهلية ومكة الإسلام .

بمـــا خبرتنـــا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا[1]
بأن محمدا سيسود فينـــــا ... ويخصم[2] من يكون له حجيجا
ويظهر فى البلاد ضياء نـــور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا[3]
فياليتى إذا ماكان ذاكـــم ... شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجا فى الذى كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجاً
أرجى بالذى كرهوا جميعـــا ... إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا أو ابق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجاً
وإن أهلك فكل فتى سيـــلقى ... من الأقدار متلفة حروجا[4]

منزلته :

قال فيه صاحب الروض الأنف :

هو أحد من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) يعوج : يقف ، يتأخر .   (٢) يخصم : يغلب ، الحجيج : المناظر :

(٣) الفلوج : الظهور والغلبة على المخاصم .

(٤) راجع ابن هشام ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

« رأيته فى المنام ، وعليه ثياب بيض ولو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض » (١) .

وفى الأغانى :

قال الزبير : حدثنى عمى قال : حدثنا الضحاك بن عثمان بن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن هشام بن عروة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأخى ورقة بن نوفل ، أو لابن أخيه :

«شعرت أنى قد رأيت لورقة جنة أو جنتين شك هشام» .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم — عن سب ورقة (٢) .

يقول فيه صاحب التفكير الفلسفى فى الإسلام :

ولم يكن أمر معرفته وعمله مجهولا بين قومه ولذلك انطلقت خديجة بنت خويلد إليه بالنبى — صلى الله عليه وسلم —، لتستفسر عما عرض للرسول — صلى الله عليه وسلم — من أمر الوحى ، فأفادها وطمأنها وتمنى أن لو عاش حتى يرى الرسول قد أمر بنشر دعوته لينصره نصراً مؤزراً (٣) .

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٢٤ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٧ .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ١٢٢ السيرة لابن كثير ح ١ ص٣٩٨ .

(٣) التفكير الفاسفى فى الإسلام ص ٢٧ .

ولقد أسرع ورقة — فى تحديد دقيق — بإعلان الحقيقة :

« لئن كان مايقول حقاً ، إنه ليأتيه الناموس الأكبر :

ناموس عيسى بن مريم ، لا يجيزه أهل الكتاب إلا بثمن ، ولئن نطق وأنا حى لأباين فيه بلاء حسنا »(١) .

فكان ذلك إرهاصا أن سوف يقيض الله لهذه الدعوة من يعان دائما أنها حق من عند الله .

لقد كان ورقة بن نوفل — رحمه الله — نورا يسعى بين يدى دعوة الاسلام يبشر بها ويمهد الطريق إليها وإن له — إن شاء الله — جنة أو جنتين فى مقام كريم .

٢ — عبيد الله بن جحش

لقد أعطى ابن جحش على نفسه موثقاً ، وأقسم مع المقسمين أن قومه ليسوا على شىء من دين إبراهيم .

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٢٢ وفى هامشه أن كلمة (بثمن) محرفة فى جميع الأصول ، ولها أشكال متباينة لم يمكن التعرف عليها وفى شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ١ ص ٢٥٩ ط بولاق أنه ليأتيه ناموس عيسى الذى لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم . راجع السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٩٤ ، الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٨ . راجع نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٦٢ .

وتعاهدوا ليبحثون .

لقد أخذ على نفسه ميثاقاً مع زملائه ليكتم الأمر وليبحث عن الحنيفية.

ومقتضى هذا العهد أن يلتزم عبيد الله بن جحش بالتنفيذ ولا تتصور الذمة العربية أن رجلا شهما يجروُ على خلاف الوعد ، أو يتقاعس عن تنفيذ ماعاهد .

لقد انتشر أصحاب الرجل يبحثون وبقى ابن جحش على ماهو عليه لم تنهض عزيمته ، ولم تنشط همته ، لقد أطفأ فى مشاعره شعاع الإحساس الصادق بالدين الحنيف فاستنام للذة إبليسية . وهنأ بها .

يقول ابن هشام :

وأما عبيد الله بن جحش ، فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة ، فلما قدمها تنصر ، وفاق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً .[1]

لقد كانت همته من قبل قعيدة ، وكانت عزيمته عرجاء خائرة فلم يكلف نفسه عناء وقد أدرك مع رفاقه أنه مع قومه ليسوا على دين إبراهيم . وانتظر حتى جاءه الدين الحنيف فأسلم : ولو كان إسلامه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ .

مخالطاً شغاف قلبه وأصالة فكره لاستقر على الإيمان فكم تمنى أصدقاؤه لقاء مع نبيهم فى مثل يوم ابن جحش . لكن فطرته لم تكن سليمة . لقد أمرضها وسواس الشيطان فانتكس عبيد الله بن جحش عندما هاجر إلى الحبشة ورأى مالكا فيه رغد وهدوء واستقرار فتنصر ليريح باله من متاعب الجهاد فى سبيل الدين الحنيف .

أما زوجته أم حبيبة — وكان أبوها فى ذلك الحين واحداً من رءوس الكفر ، ووجيها من وجهاء مجابهة الدعوة فقد بقيت على الحجة البيضاء لم يؤثر فى فطرتها الكريمة فسوق زوجها وارتداده . رغم حاجتها فى غربتها البعيدة وخصومتها لقومها وأهلها — إلى بعلها الذى فارق دبار الأهل من أجل دينه . إلا أن مستوى الإيمان عندها كان أكبر من الآلام والآمال فرضيت بربها صاحبا فى السفر وخليفة لها فى الأهل والمال .

فإنها على كل حال فى كنف ربها .

وهو على أرفع حال فى ربقة شيطان مارد .

ولذلك كان تكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم لها إذ ألحقها ببيته الشريف تكريماً لها أو تعويضاً عما فاتها ، وتقديراً لمستوى صبرها ، ومرابطتها فى سبيل الله فقد عانت من موت زوجها عبيد الله بن جحش مرتين :

١ — مرة بالخروج من الإسلام إلى الكفر .

٢ ـــ وأخرى بهلاكه من الدنيا على ملة الشيطان .

لقد خط عبيد الله بن جحش بهذا السلوك طريق نوع من الباحثين الذين يستظلون بالنور ساعة ثم يحبون العمى على الهدى ويقيمون على ماهم عليه من الضلال وهم يحسبون أنهم على شيء ، ويدعون أنهم مثقفون ؟ .

٣ ـ عثمان بن الحويرث

عثمان بن الحويرث ألمعي ذكي شديد الملاحظة لم يستسلم لتردى صنم القوم مرات عديدة . كلما انقلب ردوه . فينقلب . بل نفر من عبوديته لصنم ولفت نظر أصحابه وقال :

إن هذا الأمر قد حدث فى الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شعراً منه :

أيا صنم العيد الذى صف حوله ... صناديد وفد من بعيد ومن قرب
تنكست مغلوبا فما ذاك قل لنـــا ... إذاك سيفه أم تنسكت للعتب
وإن كنت مغلوباً ونكست صاغرا ... فماأنت فى الأوثان بالسيد الرب (١)

وأمضى العهد مع ورقة ، وزيد ، وعبيد الله ، وخرج قاصداً البحث . عن طلبته ، فاستقر به المقام عند قيصر الروم فتنصر وحسنت علاقته بالملك وارتفعت منزلته هناك :

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣٥٦ .

يقول ابن هشام :

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده[1].

وأراد قيصر الروم أن ينشر سلطانه على مكة مستخدماً عثمان بن الحويرث فاحتال على ذلك بتنصيبه والياً من قبل الدولة الرومانية على أمورها باعتباره عربياً أصيلا .

ولكن أهل مكة رفضوا أن تلوث سيادتهم بامرة ملك أو ولاية حكم ليسوا هم أصحابه فرفضوا ولاية عثمان بن الحويرث وقالوا له : « ألا إن مكة لقاح لاتدين لملك » فلم يتم له مراده »[2] .

٤ — زيد بن عمر بن نفيل

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فقد جاب الجزيرة وأرض البلقاء واهتدى إلى الحنيفية بفطرته والتى الشهادة فى رحلته وهو يطالب مكة ليستضىء بنور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وصدق له النبى عليه أفضل الصلاة والسلام خاتمة كفاحه :

يأتى يوم القيامة أمة وحده [3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٣ راجع القصة فى كتاب : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال :

« يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم »[1] .

٥ ـ عمرو بن عبسة السلمى

ونود أن نختم هذا الفصل بقصة عمرو بن عبسة السلمى ، إنه باحث من طراز ممتاز ، سأل عن الدين الحنيف ، وانتظر مشرقه . واتخذ السبيل إليه ، واستقام على الفطرة حتى جاءه الحق المبين .

يقول صاحب السيرة الحلبية .

« من ذلك ماجاء عن عمرو بن عبسة السلمى رضى الله تعالى عنه ، قال : رغبت عن آلهة قومى فى الجاهلية ـ أى ترك عبادتها ـ قال :

فلقيت رجلا من أهل الكتاب : من أهل تيماء ـ أى قرية بين المدينة والشام ـ فقلت له : إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله ، فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار : فيعين ثلاثة لقدره ـ أى يستنجى بها ـ ويجعل أحسنها إلها يعبده . ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره . وإذا نزل منزلا سواه ، ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ الأحسن .

فرأيت إنه إله باطل : لاينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا ؟

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٤٦ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٦١ قال ابن كثير فى سند الحديث جيد حسن .

قال : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها فإذا رأيت ذلك فاتبعه فانه يأتى بأفضل الدين :

فلم يكن لى همة منذ قال ذلك إلا مكة :

آتى فأسأل : هل حدث حدث ؟

فيقال : لا ...

ثم قدمت مرة فسألت : فقيل لى : حدث رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها .

فشددت راحلتى ، ثم قدمت منزلى الذى كنت أنزله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخفياً . ووجدت قريش عليه أشداء . فتلطفت له حتى دخلت عليه فسألته :

أى شئ أنت ؟

قال : نبى ، قلت : من نباك ؟

قال : الله :

قلت : وبم أرسلك ؟

قال : بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبكسر الأوثان وصلة الرحم وأمان السبيل :

فقلت : نعم ما أرسلت به ، قد آمنت بك وصدقتك أتأمرنى أن أمكث معك ، أو أنصرف ؟

فقال : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به فلا تستطيع أن تمكث . كن فى أهلك ، فاذا سمعت بى قد خرجت مخرجا فاتبعنى . فكنت فى أهلى حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فسرت إليه ، فقدمت المدينة فقلت :

يانبى الله : أتعرفنى ؟

قال : نعم أنت السلمى الذى أتيتنى بمكة[1].

والنص واضح فى عدة نقاط :

١ — تفاهمه الأصنام كفكرة للألوهية .

٢ — حاجة الوجدان البشرى إلى الدين الحنيف .

٣ — سعى ثلة من أكرم الناس ، وأعقلهم للتعرف على منبع الحنيفية وزمنها ومكانها ونبيها .

٤ — ادخار النبى صلى الله عليه وسلم فى أهله ليكون عامل تهيئة للدعوة فى المستقبل .

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٧ فى رواية مسلم ج ١ ص ٥٦٩ وفى رواية السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٤٢ عمرو بن عبسة السلمى فهل ما جاء فى الحلبية (عنيسة) خطأ مطبعى ؟ أو هو رجل آخر مع ملاحظة اتحاد القصة . . . ؟ ولكن الشيخ دحلان فى سيرته على هامش الحلبية يذكر القصة وينسبها إلى عمرو بن عبسة السلمى على نحو ما جاء فى مسلم وفى سيرة ابن كثير . راجع ج ١ ص ١٠٩ . على هامش الحلبية . راجع مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١١١ .

٥ — ثقة النبى صلى الله عليه وسلم من نصر ربه له .

تلك جوانب من نموذج الباحثين عن العدل الدينى الذى أعنى به : البحث عن الدين الحنيف .

وأبرز مظاهر هذا النموذج أن البحث عن الدين الحنيف إذا اكتملت له المقومات النفسية السليمة ، واستخدمت العقلية الصحيحة الصالحة وتجنبت جاذبية المواريث الثقافية والتقاليد الاجتماعية التى كان عليها الآباء والأجداد ، كانت نتيجة البحث هى — الوصول إلى الغاية الصحيحة مع السلامة من الزيغ ، والأمان من الانحراف :

ومن أمثال المستعملين لهذا المنهاج :

زيد بن عمرو بن نفيل .

ورقة بن نوفل .

عمرو بن عبسة السلمى .

أما إذا خالط البحث مشاغل الحياة ومطالب الشهوة وأشيبت بتلوث التقاليد والعادات . فان الطريق يلتوى ، وتتلون النتائج بلون المزاج وتكون العاقبة هى الضياع والخسران .

ومن أمثال المستعملين لهذا المنهج .

عبيد الله بن جحش .

عثمان بن الحويرث .

أمية بن أبى الصلت .

وما أشبه الليلة بالبارحة . ويومنا بالغد . بل ، وياليت للزمان أن يدور .

ثالثا : نموذج الحكماء

كان ميدان التفكير فى الدين الحنيف أوسع من دائرة الحنفاء ، ومن دائرة الباحثين .

لقد كان هناك لون آخر من التفكير هو : لون الحكماء وهم كما يقول عنهم الشهرستانى :

« ومنهم — أى الفلاسفة — حكماء العرب وهم شرذمة قليلة ، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات[1] »

وحكماء العرب هم أصحاب الرأى والفكر الذين يرجع إليهم فى الملمات .

إنهم على أى حال أعظم الناس فى المجتمع العربى حظا فى التفكير والتصرف السديد واجتماع الناس حولهم :

---

(١) نقلا عن كتاب : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٨ . وعن كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٠٧ للامام الشيخ مصطفى عبد الرازق .

وهم كذلك أعظم الناس حظاً فى الذكاء واستعمال العقل بحرية متزنة وهم كذلك أكثر الناس دقة فى تصور الأمور والحكم عليها .

ومن هولاء :

* عامر بن الظرب .
* أكثم بن صيفى .
* عبد المطلب بن هاشم .

١ ـ عامر بن الظرب

حكيم عربى ارتفعت فطرته السليمة فوق جميع الجاذبيات الثقافية والاجتماعية فكان أكبر منها :

يقول الشهرستانى :

« ومنهم – يعنى من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وينتظرون النبوة ـ عامر بن الظرب العدوانى ، وكان من شعراء العرب وخطبائهم وله وصية طويلة يقول فيها :

انى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه .

ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً .

ولا جائياً إلا ذاهبا .

ولو كان يميت الناس الداء لاحياهم الدواء .

ويقول :

إنى أرى أموراً شتى ، وحتى .

قيل له : وما حتى ؟

قال : حتى يرجع الميت حيا ، ويعود لاشىء ، شيئاً ولذلك خلقت السموات والأرض[1] .

يقول الميدانى فى شأنه :

كان من حكماء العرب ، لا تعديل تعدل فهمه فهما ولا بحكمه حكما[2] .

لقد اجتمع لدى الرجل سداد الرأى فى العقيدة ، ورفعة السلوك وكرم الأخلاق كأنما يتجهز لاستقبال النور الأسمى .

٢ ـ أكثم بن صيفى بن رباح

من الحكماء السابقين بالحكمة والمنفردين بالتدليل على الوحدانية والاستدلال بالأثر على المؤثر .

ومن كلامه :

كلا ، بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى وإليه المآب غدا .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٥١ .

(٢) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٣١٧ ، ٣١٨ التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٩.

يقول الآلوسى :

إنه لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم ابنه (حبيشاً) فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم ، وقال :

يابنى تميم ، لا تحضرونى سفيها ، فإنه من يسمع يخل[1]. إن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ، ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم .

إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره . وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران وقد حلف — عرف — ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ماينهى عنه إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمر أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه .

---

(١) من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه بمعنى أن هناك صنفا من الناس إذا سمع شيئا ربما ظن صحته دون فحص ، راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٠٩ ، التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٠ راجع مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٢١٧ .

وقد كان أسقف نجران تحدث بصفته، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمداً . فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخرا ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .

إن الذى يدعوا إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا .

أطيعونى واتبعوا أمرى ، أسأل لكم أشياء لاتنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً فإنى أرى أمراً لايجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز .

إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ، وهذا أمر له مابعده ومن سبق إليه غمر المعالى، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز فقال مالك بن نويرة [1] :

قد خرف شيخكم :

---

(١) إذا تتبعنا تاريخ مالك بن نويرة وجدنا حالته فى مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية تنبئ عن مستقبله فى اتباعه للإسلام ، فقد عهد اليه النبى صلى الله عليه وسلم برئاسة أحد بطون تميم . فلما توفى النبى عليه الصلاة والسلام عادت إلى مالك نفسه القلقة فمنع الزكاة وصالح سجاح بنت الحارث التى ادعت النبوة . فلما سار إليه خالد بن الوليد فى حروب الردة فرق جموع شعبه حتى لا يتمكن منهم الجيش الإسلامى ولكن الله مكن خالداً منه وقتله . وأنعم بما فعله خالد رضى الله عنه راجع ص ١٧٧ ج ١ محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية .

فقال أكثم :

ويل للشجى من الخلى ، ولهفى على أمر لم أشهده ، ولم يسبقنى [1] .

فى النص :

عرض لمبادى الدعوة : كتابه يأمر فيه بالمعروف .

واعتراف أهل الفضل بأنه حق : وقد حلف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه .

وتحديد موقفهم منه : أنه أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته : أنتم .

والاستدلال على ذلك بالتمهيد الذى نشره أسقف نجران ، وسفيان بن مجاشع :

وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته .

ثم نصيحته لقومه والتنبؤ بحالتهم فى هذا الدين : كونوا فى أمره أولا — ائتوا طائعين . . . الخ .

---

(١) راجع بلوغ الأرب ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، والتفكير الفلسفى فى الإسلام ٣٠ ، ٣١ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٢١٥ وما بعدها من مراجع هذا البحث تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٠٧ وما بعدها .

ثم استرسال فى شرح الموقف من الوجهة العقلية والسياسية لهم :
لقد كان النص إرهاصا لعديد من المعانى والأحداث . وهو فى نفس الوقت عامل تهيئة وإعداد لمستقبل تميم وحلفاؤها دعوة الإسلام عن وعى وبصيرة .

٣ ـ عبد المطلب بن هاشم

هـــو : شيبة الحمد ، فقد كثر حمد الناس له .

وهـــو : الفياض ، فقد كان جوادا سجسجا .

وسموه : مطعم طير السماء ، فقد جعل من موائده نصيباً للطير والوحش (١). حرم الخمر على نفسه ، وحث على مكارم الأخلاق ، ودعا إلى الفضيلة (٢) .

يقول المسعودى :

وكان عبد المطلب يوصى ولده بصلة الأرحام ، وإطعام الطعام ، ويرغبهم فعل من يراعى فى العقبة معادا ، وبعثا ونشورا .

ويقول :

فمن كان مقراً بالتوحيد مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد : عبد المطلب ابن هاشم ابن عبد مناف ، ويقول :

---

(١) بلوغ الآرب ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ص ١١٠ . راجع التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣١ .

فيرد عبد المطلب — فى ثقة وطمأنينة — محدداً أطراف النزاع :

إنى رب الإبل .

وإن للبيت رباً سيمنعه[١] .

ولكن أبرهة وكل أبرهة مثله — يستمر سادرا فى غبائه ملازماً عنجهيته فيقول : ما كان ليمنع منى[٢] .

إنها مقالة من رأى أنه استغنى ، وإنها لاستدراجة إلهية فاذا أخذه فلن يفلته ، (وإن أخذ ربك لشديد) ويستمر عبد المطلب فى هدوئه وطمأنينته وثقته بربه فيرد فى حكمة عالية :

انت وذاك ..

كلمتان فى مقابل ست جميعها جهالة وإلحاد منتهى الاستخفاف بالأشرم :

أنت وذاك ومنتهى الثقة واليقين من عبد المطلب ، وهو موقف دائم بين منطقين :

منطق الجاهلية الأحمق المستبد .

ومنطق الحكمة الواثق المطمئن .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٠ ، سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) أخبار مكة للازرقى ج ١ ص ١٤٥ .

وفى النهاية يمضى عبد المطلب إلى الكعبة مستجيراً بربه :

لا هم إن العبـــد يمنـــــــع رحاله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهـــــم ومحالهـــم عدوا محالك
إن كنت تاركهـــم وقبلتنا فأمـــــر ما بدا لك[1]

ويستمر الأشرم سادرا فى غيه ، وتبتدئ المعركة ، وتأتى الطير الأبابيل ويبوء أبرهة بعارها وإثمها إلى يوم القيامة .

لقد كان الذى قال : ما كان ليمنع منى ، يجرى كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ ولفح الهجير ، وقد ضل الطريق حتى احتاج إلى حاد فساوم نفيل بن حبيب ليدله على طريق الفرار .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥١ .

وفى الطبرى :

يارب لا ارجـــو لهم سواكـــا يارب فامنع منهـــم حمـــاك
إن عدو البيت من عاداك امنعهم أن يخربوا قـــراك

ثم قـــال أيضـــا :

لاهم إن العبـــد يمـــــــــنع رحله فامنع حـــلالك
لا يغـــلبن صليبهـــم ومحالهـــم عـــدوا محالـــك
فلـــئن فعلـــت فربمـــا أولى فأمـــر ما بـــدا لك
ولـــئن فعلـــت فإنـــه أمـــر تـــم بـــه فـــعالك
جروا جمـــوع بـــلادهـــم والفيـــل كى يسبوا عيـــالك
عمدوا حمـــاك بكيـــدهـــم جهـــلا وما رقبـــوا جلالك

والنص مروى بعدة روايات يمكن التعرف عليه فى : دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٤٤ .

وفى كتاب : الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٢ .

احتاج القائد العظيم الذى درس طريق القوافل الحربية من اليمن إلى مكة . احتاج إلى من يدله ويجيبه نفيل بن حبيب :

اين المفر والإله الطــــالب والأشرم المغلوب ليس الغالب[1]

ثم يسجل هذه النكسة الأشرمية فيقول :

حمدت الله إذا أبصرت طيرا وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن على للحبشان دينا[2] .

وسلمت مكة وانتصر عبد المطلب فصارت سنة .

(وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) .

(١ – ٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٣ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٦ سيرة ابن كثير ج ١ ص ٣٦ ، اخبار مكة للازرقى ج ١ ص ١٤٧ .
راجع عرض القصة فى شرح المواهب ج ١ ص ٨٣ – ٨٩ .

رابعـا : نموذج الحمس

التحمس : هو : الشدة فى الدين :

والحمس : جمع أحمس : والأحمس : هو الشديد الصلب :

مأخوذ من الحماسة وهى الشدة :

وإنما سموا : حمساً لأنهم تشددوا فى دينهم على ما يزعمون[١] :

يقول صاحب السيرة الحلبية :

والحمس : بضم الحاء ، وإسكان الميم والسين ، وهم : قريش ، وما ولدت من غيرها ، فإنهم كانوا لا يزوجون بناتهم لأحد من أشراف العرب إلا على شرط أن يتحمس أولادهم ، فان قريشاً من بين قبائل العرب دانوا بالتحمس [٢] .

وفى شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .

الحمس : قريش ، وكنانة ، وخزاعة وبنوا ربيعة بن عامر :

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ تحقيق فضيلة الشيخ محمد محيى الدين (حاشيته عليها) . راجع أساس البلاغة للزمخشرى ص ١٤١ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٠ .

حمس ، وهم :

ربيعة ، وكلاب ، وعامر ، ولدتهم مجد بنت تميم بن غالب وكانوا حمساً[1] .

يقول العلامة أبو الطيب القاسى :

وإنما سمى الحمس بالكعبة لأنها حمساء ، حجرها أبيض يضرب إلى السواد[2] . فهى تسمية لها نصيب من المكان ، والسلوك : إنهم حمس لأنهم سكنوا البيت الحرام وهم حمس لأنهم تشددوا فى الدين .

والقضية التى لا تناقش مع الحمس : أنهم يزعمون أن تدينهم على ملة سيدنا إبراهيم . وأنهم من سلالته ، غير أنهم شعروا بعزة وأحسوا بأن لهم كرامة ، لأنهم مجاورو بيت الله الحرام ، ومن ولد إبراهيم عليه السلام إنهم المجاورون للكعبة أول بيت وضع للناس : البيت الذى رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ، باذن الله .

إنه فى الحقيقة وكما يعتقدون ، أكرم موضع على وجه الأرض إنه أعلى البيوت منزلة ، وأرفعها مكانة . ودونه جميع قصور الملوك والرؤساء .

---

(١) – (٢) شفاء الغرام ج ٢ ص ٤١ ، المحبر ص ١٧٨ .

إن جند الله ترعاه وتحرسه ، وبركة السماء تحيطه وتهبط عليه بالبركات واليمن والسلام والأمن وتملأ السكينة أرجاءه ، وتحفه عناية الرحمن بالجلال والوقار ؟

وهم : جوار هذا البيت ؟

وهم : من سلالة النبي الذى رفع قواعد هذا البيت ، إنهم أبناء إبراهيم خليل الرحمن ؟

فلم لا تكون لهم عزة فوق مستوى البشر ؟ تلك أحاسيسهم النفسية التى استتبعت نمطاً خاصاً متشدداً متحمساً فى التعبد .

إنها صورة الإخلاص الشديد ، وسيطرة العاطفة الجياشة على السلوك فاندفعوا إلى التشدد . اندفعوا إلى التحمس : فقالوا :

— نحن بنو إبراهيم ؟

— وأهل الحرم :

— وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها ؟

— فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا ؟

ثم قرروا :

— فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون من الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ؟

ـ واستتبع هذا القرار مجموعة مبادئ هى النظام السلوكى للحمس :

١ ـ فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج وأنها كذلك من دين إبراهيم عليه السلام .

٢ ـ ويرون أن لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها :

نحن الحمس ، والحمس أهل الحرم :

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم ، بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم .

٣ ـ ثم حرموا على الحمس أن يأتقطوا الأقط وأن يسلأوا السمن وهم حرم :

٤ ـ ولا يدخلون بيتاً من شعر :

٥ ـ ولا يستظلون ، إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرماً :

٦ ـ ولا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا ، أو عمارا :

٧ – ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة . .[١] .

والسهيلى يفسر هذه الظاهرة بالزهد والتنسك يقول :

وكانوا قد ذهبوا فى ذلك مذهب الزهد والتأله ، فكان نساؤهم لا ينسجن الشعر ولا الوبر وكانوا لا يسلأون السمن .

وأنهم كانوا يطوفون عراة ، إن لم يجدوا ثياب أحمس ، وكانوا يقصدون فى ذلك طرح الثياب التى اقترفوا فيها الذنوب عنهم[٢] .

لقد كانوا فى غمرة من تقديس البيت الحرام وجرثمومة أبناء إسماعيل على قدر ما للبيت وصاحبه من جلال وتقديس . ولذلك تراهم يرفعون على نمط الحياة العربية المنحرفة على نحو ما ذكره صاحب السيرة الحلبية :

ولذلك تركوا الغزو لما فى ذلك من استحلال الأموال والفروج ومالوا للتجارة ومن ثم يقال : قريش الحمس ، سموا بذلك لتشددهم فى دينهم[٣] .

---

(١) راجع بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٩١ ، السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢١٦ — ٢١٨ . تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) من مراجع هذا البحث ، الروض الأنف ، السيرة النبوية لابن كثير وابن هشام والتفكير الفلسفى فى الإسلام ، وشفاء الغرام باخبار البلد الحرام .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٠ .

لقد كان التحمس لونا من ألوان التعبد البعيد عن الوثنية القريب من الملة الحنيفية فكان جوا رائقاً من شبه الالحاد .

لقد كان التحمس موجة من التدين وهو محاولة عقل يعوزه الوحى فى الإجابة عن سؤال :

أين العدل الدينى ؟

أما الحنفاء فقد قالوها : إن لله دينا هو أفضل عما أنتم عليه .

والحكماء : ما فتئوا يعظون الناس .

والباحثون : كانوا أفانين شتى .

والحمس : اندفعوا بوجدان معتز بجوار البيت الحرام فأنشأوا لهم دينا ومذهبا خاصا .

وكل هذه الألوان والأنماط كانت عوامل بعث قلقل قيم الأصنام كآلهة .

وزلزل فى النفوس قدسية كانوا يحملونها لها وزحزح الفكر خطوة إلى يوم يطلع فيه الدين الصحيح ، ولقد ترقب العقلاء والمصنفون الذين هداهم الله ذلك اليوم .

وانتظرت البيئات الاجتماعية بهذه الإرهاصات فجر الحقيقة فقد أذن بالشروق .

خامسا : نموذج العدل الاجتماعى

حلف الفضول

كانت هذه الشكيمة واحدة من أخلاقيات المجتمع العربى قبل الرسالة وهى إحدى آثار التدين الذى انتشر فى حنفيته بين كبار المفكرين وذوى الرأى والمشورة .

وقضية العدل الاجتماعى تتبلور فى حلف الفضول وفيه يقول ابن هشام :

تداعت قبائل من قريش إلى حلف الفضول ، فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤى ، لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده : بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم ابن مرة . فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، على : ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها ، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف « حلف الفضول »[1] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٧ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ تحقيق الشيخ محيى الدين ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٨ — ٢٦٢ .

وفى مجال التطبيق لهذا الحديث والبواعث عليه يقول الأستاذ المرحوم محمد بك غنيم فى كتابه : خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام :

وتعاقدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه : شريفا ، أو ضعيفا ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ، — فدفعوها إليه ، وصاروا دائما يأخذون من الظالم للمظلوم حقه على وفق « حلف الفضول » الذى كان أشرف حلف فى الجاهلية[1] .

ويقول :

وهذا الحلف وأمثاله من العوائد العربية الشريفة يدل على ما كان لهم من الميل للحق والمروءة التامة والبعد عن خسائس الأمور ، واغتيال الحقوق كما تشهد بذلك أخبارهم ، وتنطق به أشعارهم[2] .

ومن تعليقات فضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على هذا الحلف قوله :

« هذا الحلف أشرف حلف فى العرب » [3] .

---

(١) خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ هامشه ، تحقيق فضيلة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

وأجمل ما قيل فيه من أعلام الفكر الإسلامى الحديث مقالة الدكتور عبد الحليم محمود :

هذه العاطفة الدينية تبعها كلام من لوازمها ، عمل أخلاقى كريم قد بلغ من السمو حدا لايكاد يحدث فى التاريخ إلا نادرا [1] .

لقد كان العدل الاجتماعى فى صورة حلف الفضول أثرا سلوكيا للعدل الدينى الذى اتخذ عديدا من الاتجاهات فى التحنث والبحث والتوحيد والتحمس .

ويصور قيمة هذا الحلف الجليل ما يرويه الكاتبون فى السيرة النبوية عن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحلف بعد النبوة :

يروى صاحب الروض الأنف عن ابن قتيبة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت [2] .

وفى كتاب الوفا بأحوال المصطفى ، والسيرة الحلبية ، والسيرة النبوية لابن هشام يروون :

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٤ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٩١ ، ٩٢ .

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت [١] ؛

وفى السيرة النبوية لابن كثير عن الزهرى عن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

شهدت مع عمومتى حلف المطيبين فما أحب أن أنكثه — أو كلمة نحوها — وان لى حمر النعم [٢] ؛

ويروى كذلك عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن ابن هريرة رضى الله تعالى عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وإنى كنت نقضته [٣] .

ويروى كذلك عن عبد الله ، عن محمد وعبد الرحمن بنى أبى بكر رضى الله تعالى عنهم جميعاً : قالا :

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٤٥ ، الروض الأنف ج ١ ص ٩٢ السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) ، (٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به فى الإسلام لأجبت .

تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وألا يعز ظالم مظلوماً [١] ؛

وكفى هذه الحلقية تكريماً وتعظيما أنها حظيت بثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى أبدا .

ولم يكن حلف الفضول الذى أقيم لنشر العدل ودرء الظلم ، وغوث الضعيف ، لم يكن جهد فرد حتى يستخف بفاعليته بل كان جهد قبائل تشكل فى عصرها استراتيجية لها وزنها وثقلها ويمكن أن يقال فى الوقت الحديث حسب النسب طبعاً إنها تمثل اتحادات الدول الحديثة فى إبرام المعاهدات الخاصة بالأمن والسلام ، والدفاع المشترك والتبادل الثقافى والاقتصادى بفارق واحد ، وهو فارق جوهرى .

« إن حلف الفضول كان لإقامة العدل دون عوض فهو غرم كله لا غنم فيه » .

أما المعاهدات فى العصر الحديث فإنها تقوم على أساس حجم تبادل المنافع بين الدول لا من أجل عدل فى ذاته ولا من أجل حق أو دفاع عن مظلوم .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٨ .

وفرق كبير بين فكرتين : إحداهما تقوم على الغرم دون الغنم وهدفها فقط استقرار الأمن وتحقيق العدل .

والثانية تقوم على الغنم قبل الغرم وقد يكون حظ العدل فيها ضعيفاً .

إن الفارق بين هاتين الفكرتين كالفارق بين الإيثار الرفيع عند الممتازين من صفوة المؤمنين .

وبين الأثرة المتطرفة عند الأوغاد من الانتهازيين الماديين ، وكفى بالعرب فيما قبل البعثة بذلك دليلا على أنهم كانوا أصلح الناس ليخرج فيهم النور الذى تحيا به الحياة [١] .

---

(١) لم نشأ أن نعرج فى الحديث على حلف الفضول على سببه وعلة تسميته لأمرين .

الأول — أن هذا البحث قد استوفى فى البحث الذى أعد للماجستير .

الثانى : أن هاتين النقطتين ليستا بذات صلة بفقه ايراد . حلف الفضول هنا كمركز لمستوى التدين وما استتبعه من آثار اجتماعية فى اقامة العدل والحق ، ويمكن العود إلى السيرة الحلبية ج ١ ص ١٢٦ ، ابن هشام ج ١ ص ١٤٥ . التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٤ .

راجع المحبر ص ١٦٧ .

سادسا : نموذج التقاليد والعادات

تمهيد :

من التقاليد الفريدة التى امتازت بها الأمة العربية إقامة أسواق للعلم والحكمة والقريض والقضاء .

يلقى فيها الحكماء نفائس حكمهم .

ويقضى فيها بالحق والعدل .

وتتبادل فيها الأسرى .

وترتجل فيها الأشعار .

وتبحث فيها المعلقات والحوليات .

ومن هذه الأسواق :

عكاظ [١] .

مجنة [٢] .

---

(١) قرية بالصحراء بين نخلة والطائف ، على ثلاث مراحل من مكة المكرمة وهى إلى الطائف أقرب ، وكان موعد هذا السوق أواخر شهر شوال حتى اليوم العشرين من ذى القعدة كل عام .

(٢) موضع قرب مكة المشرفة (ونطقها جائز بفتح الميم وبكسرها) وكان موعده العشر الأواخر من ذى القعدة بعد أن يفيض الناس من عكاظ .

ذو المجاز[1] :

وفيها كانت تدور أنماط من الانتاج العقلى وتقوم عادات وتقاليد تهدف إلى :

إقامة العدل .

وتصفية النفس .

وبعث النجدة والشهامة والكرم والعفاف .

وتركيز أسس الايمان بالحنيفية السمحاء .

وينقل المسعودى فى مروج الذهب خطبة قس بن ساعدة الايادى وهى مشهورة فى اتجاهاتها الحنيفية ، ودعوته فيها إلى توحيد الله عز وجل[2] .

---

(١) موضع خلف عرفات على بعد فرسخين ، ويقول الجوهرى ، إنه موضع بمنى وكان موعدا من يوم التروية إلى نهاية موسم الحج .

وفى السوقين الأخيرين كانت العرب تتم مافاتها فى سوق عكاظ ، والحديث عن هذه الأسواق مطول فى كتاب : أخبار مكة المشرفة للازرقى ج ١ ص ١٨٨ طبع ببيروت وكتاب ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ طبعة قديمة وكتاب خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام ص ١٤٩ ، راجع المحبر ص ٢٦٣ — ٢٦٨ .

(٢) راجع خطبة قس بن ساعدة فى مروج الذهب ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ تحقيق الشيخ محيى الدين .

وينقل صاحب جواهر الادب باقات من قريض شعراء العصر الجاهلى ، وفى قريضهم من المبادئ مايصور الخلقية العربية والسلوكية الاجتماعية تصويرا مضيئا واعيا .

* يقول زهير بن ابى سلمى فى تصفية النفس والخوف من الله :

فلاتكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أويعجل فينتقم (١)

* ويقول عنترة بن شداد فى الخلق العفيف :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مثـــــواها

* وفى الشهامة والعفة يقول :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى
أغشى الوغى وأعف عنــد المغنم

* ويقول طرفة العبد فى الزهد وتزكية النفس :

أرى الموت يعتام الكريم ويصطفى
عقيــلة مال الفاحش المتشـــدد

---

(١) المعلقات العشر ص ٩١ وكتاب جواهر الأدب ج ٢ ص ٤٩ .

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما اخطأ الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد

متى مايشاء يوما يقود لحتفه
ومن يك في حبل المنية ينفد[1]

* وحول هذا المعنى يقول السموءل بن عادياء :

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل[2]

* ويقول لبيد بن ربيعة في اليوم الآخر :

أرى الناس مايدرون قدر أمرهم
بلى كل ذي لب إلى الله واصل

ألا كل شيء ماخلا الله باطل
وكل نعيم لامحالة زائل

---

(١) المعلقات العشر للامام الشنقيطي ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) جواهر الأدب ج ٢ ص ٢٥٩ .

وكل امرئ يوما سيعلم غيبه
إذا كشفت عند الاله الحصائل

* ويقول امية ابن أبي الصلت :

اله العالمين وكل أرض — ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا — بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور — من الشمس المضيئة والهلال
وشق الارض فانبجست عيونا — وأنهارا من العذب الزلال
وبارك فى نواحيها وزكى — بها ماكان من حرث ومال
فكل معمر لابد يوما — وذى دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبلى — سوى الباقى المقدس ذى الجلال
وسيق المجرمون وهم عراة — إلى ذات المقامع والنكال
فلبسوا بميتين فيستريحوا — وكلهم بحر النار صال
وحل المتقون بدار صدق — وعيش ناعم تحت الظلال[1]

هذا هو الجو الفكرى يعطى صورة حية عن كمال الحرية التى تمتع بها المجتمع العربى فيما قبل الرسالة :

والحرية الفكرية تصور بدقة أنماط الخلقية السلوكية فان الأدب : شعرا ونثرا قالب القيم الأخلاقية لأى مجتمع لأنه تعبير انفعالى عن الوجدان الذى يشكل السلوك الاجتماعى فى دوافعه ورغباته وأمزجته .

(١) راجع جواهر الأدب ج ٢ ص ٢٥٣ .

المستوى الأخلاقى :

وعلى هذا يمكن ادراك أبعاد الحديث النبوى الشريف :

بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

إن مكارم الاخلاق هى وظيفة الرسالة الخاتمة ، إن الاخلاق فى الأمة العربية وفى العالم كله تتم مكارمها بالرسالة الخاتمة .

ومعنى هذا : أن الاخلاق التى يدعو اليها الاسلام والتى سيتممها البعث المحمدى الكريم لها أصول ، وهذه الاصول فى الامة العربية كانت أكثر عددا ، وأكثر اصالة ، وارفع طهرا ، وأنقى شرفا من غيرها : فقد كان لهم من الاخلاق والسنن وطهارة العرض ماجاء به القرآن الكريم تشريعا وقانونا .

يقول الشهرستانى : جزاه الله خيرا ، وقد وضع فى كتابه عنوانا :

« سننهم التى وافقهم القرآن عليها وبعض عاداتهم » .

« كان العرب فى جاهليتها تحرم اشياء نزل القرآن بتحريمها ، كانوا لاينكحون الامهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ولا العمات ، ...الخ النص[1] .

لقد كان جوا كريما عاديا :

لم يكن مجتمعا كامل السمو الخلقى .

---

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٣ راجع المحبر ص ٣٢٥ .

ولم يكن مجتمعا كامل الانحراف الخلقى .

وانما كان مجتمعا ذا أخلاق فاضلة :

نعم، ليس قمة ولا ممتازا ولكنه كان مجتمعا فاضلا .

ليس فيه من بنى بابنته :

وليس فيه من بنى بأخته :

وليس فيه من دفعت عرضها رشوة[1] :

إنه فى أدنى التصورات كان مجتمعا يؤمن بالشرف بينما كان غيره لايأبه بالشرف :

ولقد ظلم الحقيقة جانب من الكتاب الذين جعلوا من المجتمع العربى فسادا يتعلل به لضرورة البعث المحمدى ولو أن هذا الجانب كان من غير علمائنا الأجلاء لهان الأمر ولكن فضيلة الأستاذ عبدالفتاح شحاتة يذهب فى كتابه :

« تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم » إلى غير الصواب فى قضية الأخلاق فى عصر الجاهلية فيقول :

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٩٣ ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للأستاذ على عبد الحليم ص ٦٠ .

فاذا ما رددنا البصر إلى العرب وجدناهم قبائل متخالفة فى النزعات خاضعة للشهوات فخر القبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، وقد بلغوا من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها .

وبلغوا من سفههم أن قتلوا بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو فرارا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم تعد معه للعفاف قيمة [1] .

ثم يستنتج فضيلته من ذلك : أن حالة العرب كانت تبعث الأسى والحزن فى النفس ، وعلى حد تعبيره « جو خانق وبيئة مضطربة ، فاسدة [2] » .

هذا التصوير ليس على إطلاقه صحيحا . وليس مع ما قدمته فى صدر هذا البحث دقيقا ولأضع أمام النص السالف نصا لمؤرخ موقر ذى وزن مقدر فى التاريخ للأمم الإسلامية الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن ، إذ يقول :

---

(١) ، (٢) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢٤ لقد تأثر بمثل هذا الرأى الدكتور هيكل فى كتابه : تاريخ الأمة الإسلامية ص ٦٥ وكنا نود بما له من منزلة خاصة فى العمل الإسلامى أن يزن المسألة بروح أدق انصافا . راجع الكتاب — السالف ص ٥٠٨ سنة ١٩٦٥ م . (باللغة الملاوية) .

« وكان للعرب نظام ثابت فى الزواج ، فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى أمر زواجهن » .

وينبغى ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هذه الطريقة ، وهذا الأمر لم يكن يستحسنه جمهور العرب مع ما عرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة على الشرف حتى كان من النادر أن يرى الإنسان بنتا بالغة قد أدركت سن الزواج ، أو أرملة صغيرة فى السن لم تتزوج إذ كان من الضرورى أن يكون للأسرة أطفال عديدون ، كى تكون غنية بأفرادها قوية محترمة .

وكانوا يطلقون ، والطلاق بيد الرجل ، إلا أنه كان هناك نساء يشترطن أن تكون الفرقة بأيديهن .

ومن عاداتهن المستقبحة وأد البنات مخافة المذلة ، أو العار ، على أن هذا الأمر لم يكن شائعا عند العرب ، بل كان فى بعض الطبقات المنحطة منهم خشية الفقر ، وعلى الأخص فى : بنى أسد وتميم[1] .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى — الدكتور حسن إبراهيم حسن ج ١/ ص ٦٤ ، ٦٥ .

ولفضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة نص شبيه بنص الدكتور حسن إبراهيم فلأضعه هو الآخر أمام النص الأول :

« والمتتبع لأخبارهم وأشعارهم يحس بهذا الاحترام الذى للمرأة الحضرية أو الارستقراطية وأنها لم تكن من سقط المتاع ، بل كانت تحظى بقسط غير قليل من الحرية .

وإن علاقة الرجل بها كانت علاقة معاونة فى حمل أعباء الحياة .

ولقد بلغ من احترام العربى لامرأته أن كان يسالم أحيانا من سالمت ويحارب من حاربت [1] .

ويقول أيضا :

كان العربى إذا أراد أن يتمدح بما له من المقام المحمود فى نظر العرب من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب فى الغالب إلا المرأة :
يقول حاتم الطائى :

أيا ابنـة عبد الله وابنـة مالـك
ويا ابنة ذى البردين والفرس الورد
إذا ماصنعت الـزاد فالتمسى لـه
أكيـلا فانى لست آكله وحـدى

---

(١) تاريخ العرب و عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٥٢ .

* ويقول عنترة :

هلا سألت الخيل يا ابنة مـــالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
ينبيك من حضر الوقيعة اننـــى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

فيتناقض الشيخ مع نفسه فى التصوير الذى حمله نصه الأول ، ويتفق مع النص الذى نقلته عن الدكتور حسن إبراهيم .

ولكن الشيخ عافاه الله يعود مرة أخرى بعد نصه الثانى فيقول :

هذه مثل تعطيك صورة لما كانت عليه المرأة فى جاهليتها ، وتكفى دلالة على امتهانها ، وأن مكانتها كانت أدنى إلى مكانة الرقيق[١] .

ويرد عليه الدكتور حسن إبراهيم إذ يصور وضع المرأة الاجتماعى بغير هذه الصورة فيقول :

ومن يتبع أشعار العرب فى الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع فى ذلك العصر بقسط وافر من الحرية ، فكانت تستشار فى مهام الأمور ، بل تشارك الرجل فى كثير من أعماله وكانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا ، يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه واعطاؤهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب إذ بدأوا قصائدهم التى يفخرون فيها

---

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٥٢ .

بمحامد قومهم وعظم فعالهم ، ناهيك بما كان للمرأة العربية من الأثر الصالح فى الاسلام[١] .

ونعود إلى فضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة فنجده معنا فى الرأى إذ يقول :

« وكان كثير من عقلاء العرب لايرتضى هذا الفعل ، وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من أهلها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل[٢]. وبصفة عامة فان فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك يرد على التهمة التى يلصقها بعض الكاتبين بالأمة العربية فيما قبل البعثة فيقول :

« يظلم العربى من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فانا إذا كنا نستقى تلك المعاملات من شعرهم الذى هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك » .

وينقل — رحمه الله تعالى — أشعارهم ثم يقول :

وبالجملة فان المتتبع لأشعار العرب لا يشم منها رائحة الصغار ، والإهانة للمرأة ، ويفخرون بنسبهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم ، وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت ، وإذا شاءت جمعت[٣] .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٦٤ .

(٢) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٧ — ٢١ .

وإذن :

فلم تكن الجوانب السلبية فى الخلقية العربية إلا ظاهرة انحراف فى السلوك وليس ذلك الانحراف عن السلوك الأخلاقى للأمة العربية .

وأى مجتمع يمكن أن يخلو من انحراف فى السلوك ؟

إن كل مجتمع بشرى لايمكن أن يخلو من الانحرافات ولهذا يوجد المصلحون الاجتماعيون . ولقد حفل المجتمع العربى القديم بمثل هذا المستوى من العمــل الاجتماعى كما جاء فى كتاب فضيــلة الشيخ عبد الفتاح شحاتة[1] .

وإذن فظاهرة الانحراف لاينبغى أن تؤخذ كمقياس مادامت هناك مقاييس أخرى وفى مقدمة هذه المقاييس الشعر العربى : المرآة المصقولة التى تكشف عن خبايا أسس الأخلاق فى المجتمع ثم وجود وجهاء الإصلاح مثل زيد بن عمرو بن نفيل وعبد المطلب بن هاشم . فلقد كان عبد المطلب حكيما مشرعا فحرم قتل الموءودة ، ومنع نكاح المحارم[2] وكان هناك أشراف تميم الذين كرهوا وأد البنات[3] .

---

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) راجع مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٩ — الشهرستانى ج ٢ ص ٢٤٨ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠ الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق .

(٣) تاريخ الأمم الإسلامية محمد الخضرى بك ج ١ ص ٢١ .

على أن وأد البنات لم يكن خلقا فطريا ولا مكتسبا ، بل كان صورة من صور الإكراه نتيجة ظرف طارئ ربما طال عمره فصار عند قبائله عادة أو تقليد . وحول هذا التفسير يقول فضيلة الشيخ عبد الفتاح شحاته :

إن القوم منعوا الأتاوة التى كانوا يدفعونها للنعمان بن المنذر ملك الحيرة فسلط عليهم أخاه « الريان » مع كتيبة من الجيش فسبى النساء واستاق الأنعام .

ثم يقول :

وهذا المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب[1] .

وإذن فليس الجو العربى باعثاً على التأفف وليس جوا خانقا ولا مضطربا لما قال فضيلته .

وإن الظواهر الطارئة على مجتمع له نسب نبوى وفكر قيادى ، وحرية مصونة ، — لاينبغى أن تؤخذ على انها نمط من أنماط السلوك أو انها مقياس لأخلاقه .

وإن افتتاح المعلقات — وهى مقدسات الشعر العربى وقمة الفن التعبيرى — بذلك الهتاف العطوف بالمرأة ، ليعطى الباحثين فى الدراسات

(١) تاريخ العرب وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ .

الاجتماعية والتاريخية للبيئة العربية فيما قبل الرسالة معنى شريفاً فى تصور وتصوير الخلقية العربية الفاضلة كبيئة استقبال لأشرف رسالة تختتم بها النبوات جميعاً .

* إن هتاف امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

* وهتاف طرفة :

لخولة اطلال ببرقة تشهد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

* وهتاف زهير :

أم من أم أوفى دمنة لم تكلم[1] بحومانة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وشم فى نواشر معصم

* وهتاف عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

إن هذه الهتافات فى المعلقات لقرائن تدل على المعنى الشريف الذى ينبغى أن يصل إليه الباحثون فى دراساتهم لأخلاق الأمة العربية قبل الرسالة .

---

(١) قال الخطيب :
حومانة الدراج فالمتثلم ... موضعان بالعالية ، المعلقات العشر للشنقيطى .

إن الشعر كالمرآة فى الافصاح عن مستوى الملكات والنفوس وخبايا الصدور وقد كانت المرأة العربية فى القرون الوسطى فى باقات الشعر العربى هى وحدها العبير الزكى الذى يملأ الوجود الإنسانى للمرأة رفعة فى المستوى ، وإنسانية فى السلوك،أهّلتها ذلك لأن تكون نصف مجتمع سوف يتحمل أقدس الرسالات وأتمها باذن الله .

القاعدة والتطبيق :

« يعقد العلامة ابن خلدون فصولا عن : البدو والحضر فى كتابه المشهور « مقدمة ابن خلدون » والتى حققها أخيراً وعلق عليها الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، ومن أشهر ماكتبه فى هذا الموضوع فصلان :

الأول : « فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر » يقول فيه :

« وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول مايرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، قال صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه) ».

ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير إذا سبقت نفسه إلى عوائد الخير وحصلت له ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه .

وكذلك صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضا عوائده ، وأهل الحضر لكثرة مايعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف ، والاقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم ، وبين كبرائهم وأهل محارمهم لايصدهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء فى التظاهر بالفواحش قولا وعملا .

وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه فى المقدار الضرورى لا فى الترف ولا فى الشىء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها .

فعوائدهم فى معاملاتهم على نسبتها ، وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير فهم أقرب إلى الفطرة الأولى ، وأبعد عما ينطبع فى النفس من سوء[1] .

والقاعدة التى نستخلصها من هذا النص :

أن أهل البدو أقرب إلى الفطرة بكل معانى الخير والشرف والشهامة والنبل والنجدة والاباء ، والعفاف والوفاء ، والمعروف والاحسان ؛ وكانت تلك القاعدة آصل فى أمة العرب من سواها . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٤ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى .

الثانى : فصل فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر يقول فيه :

والسبب فى ذلك أن أهل الحضر ألقوا بجنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة على أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم ، والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التى تحوطهم ، والحرز الذى يحول دونهم فلا تهيجهم هيعة[1] ، ولا ينفر لهم صيد ، فهم غارون[2] آمنون .

وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم — ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب فى الطريق ، يتجافون عن الهجوع الا غراراً : فى المجالس ، وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون[3] للنبات والهيعات ويتفردون فى القفر والبيداء مدلين

(١) الهيعة : الصوت المفزع وفى الحديث : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها » . من حديث رواه مسلم .

(٢) جمع غار بتشديد الراء .

(٣) يتسمعون للصوت الخفى .

ببأسهم ، قد صار البأس لهم خلقاً ، والشجاعة سجية يرجعون إليها حين دعاهم داع أو استنفرهم صارخ :

وأهل الحضر مهما خالطوهم فى البداية أو صاحبوهم فى السفر عيال عليهم لا يملكون معهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان[1] :

والقاعدة التى نستخلصها من هذا النص :

أن أهل البدو صرحاء أقوياء شجاعتهم سجية والترصد للأحداث طبع ومجابهة المخاطر أمر لا يخيف وأنهم يسالمون ولا يعتدون :

وكانت تلك القاعدة أصل فى أمة العرب دون سواهم فقد عاشوا فى ديارهم آمنين والفرس والرومان بينهم تدور رحى الحرب ويتداينون النصر والهزيمة ، دون هدف فيه خير للناس .

ومن الفصلين السابقين ترتسم جوانب الحياة العربية قبل البعثة فيما يتعلق بالأخلاق الاجتماعية من ناحية أصالتها فطرياً ، ويثبت أنهم وحدهم أصل البشر فى تلك الحقبة السابقة على الرسالة قد اكتملت لديهم قواعد الأخلاق حسبما تقرر دراسات علم الاجتماع : ويبقى ذلك لهم حظاً يتيما :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

ويمضى معنا فضيلة الشيخ محمد محمد مصطفى النجار مقررا الجانب التطبيقى لهذه القواعد معللا لها فيقول :

أما الشجاعة فكان يدفعه إليها انفراد فى البادية بعيداً عن المجتمع .

وأما الكرم فكان يدفع البدوى إليه عيشه فى الصحراء وتنقلاته فيها وتعرضه للنزول على القبيلة أثناء رحلاته[١] :

ثم يقول :

ويمكن تلخيص أخلاق البدو فى :

الشجاعة ، والكرم ، والاعتماد على النفس ،والذكاء ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والحمية ، والشجاعة .

وأخيراً يحيا البدو فى حرية مطلقة ولا يطيقون سلطاناً يقيدهم بنظام إلا ما كان من أنفسهم فهم يخضعون لرئيس قبيلتهم ويأبون الخضوع لأى أجنبى[٢] .

وأرفع عبارة تصور جو الانطلاق للحرية فى مكة مقالة أهاها لعثمان بن الحويرث .

« إن مكة حى لقاح لا تدين للملك »[٣] .

(١ ، ٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) الروض الأنف ج ١ ص ١٤٦ .

يقول المسعودى :

و كان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية بمكة ؛

ثم يشرح ذلك على هامش المروج فيقول :

الرفادة : شيء كانت تترافده قريش فى الجاهلية تخرج فيما بينها مالا تشترى به للحجاج طعاماً وزبيباً[١] ؛

وأما الفراسة فهى استدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وما يكون له فى المستقبل[٢] ؛

أما القيافة : فهى الاستدلال بأثر الماشى عليه .

ونوع آخر منها : وهو الاستدلال بأجزاء الجسم على صحة النسب أو على بطلانه ، ؛

وأما الريافة فهى : معرفة استنباط الماء من الأرض بشم التراب أو برائحة النبات .

فى هذا الجو :

جو الفطرة والصراحة والشهامة .

جو النجدة والمروءة .

جو الكرم والذكاء .

(١ ، ٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ .

كان المجتمع العربى يعيش فترة التأهب ليوم عظيم ؛ وحول هذه المنزلة :

يقول ابن الفقيه : إن أهل مكة لم يؤدوا فى الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة[١] .

ويقول الطبرى : وكانت مكة فى الجاهلية لا ظلم ولا بغى فيها ولا يستحل حرمتها ملك إلا هلك مكانه ، فكانت تسمى الناسة ، وتسمى بكة تبكأ عناق البغايا[٢] .

فى هذا الجو اللقاح جو مكة أنقى الأجواء فى حياة الجاهلية كان المجتمع العربى بأقطاره كلها يحيا وحده صالحا لاستقبال الرسالة العظمى التى ستنقل الناس من عبادة البشر إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

وكان سحر هذا الفجر الصادق تتلألأ فيه إرهاصات النبوة التى التى سيتمم الله بها مكارم الأخلاق .

---

(١) عن كتاب : دراسات فى العصر الجاهلى ص ٩٥ راجع كتاب البلدان لابن الفقيه ص ١٨ أوربا .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٨٤ .

يقول الأستاذ الندوى :

وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته[١] :

لقد كان سحر هذا الفجر الصادق تتلألأ فيه ارهاصات النبوة التى سيتمم الله بها مكارم الأخلاق :

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٨٢ ط الخامسة .

الفصل الثاني

اعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة

١ ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته

روى الإمام الورع المحتسب الجليل أحمد بن حنبل ، والبزار ، والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية السلمي — رضى الله عنهم جميعا — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك :

أنا دعوة أبي إبراهيم .

وبشارة عيسى .

ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين ، وأن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام[1] .

---

(١) راجع ص ٣٦٠ ج ٤ تفسير ابن كثير ، الطبرى ج ١ ص ٥٥٦ راجع الفتح الكبير ج ١ ص ٤٥٥ شرح المواهب ج ١ ص ٣١ .

إن الحديث عن إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحثاً ولا دراسة عن سؤال كيف أعد عليه الصلاة والسلام لأن يكون نبيا ، وليس تنقيباً عن الأسباب التى جعلته نبياً .

فإن الجرى وراء ذلك النمط من الدراسة عبث وعجز وضلال .

إنما الحديث عن إعداد الرسول صلى الله عليه وسلم معناه الاتجاه إلى الخصائص الربانية التى اختص الله بها حبيبه وصفيه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا .

ذلك لأن النبوة اصطفاء (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) ٧٥ سورة الحج .

يقول العلامة أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى :

« يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره ، ومن الناس لإبلاغ رسالته »[١] .

ولقد كانت إرادة الله تعالى وهو يختار ما يشاء قد حددت اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم رسولا خاتماً : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٣ ص ٢٣٥ .

ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ) .[١] آل عمران الآية ٨١ .

قال على بن أبى طالب وابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه .

ويؤيد هذا التفسير قول النبى صلى الله عليه وسلم :

(وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى) :

وفى تفسير القرآن العظيم : وفى بعض الأحاديث :

(لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى)[٢] .

وذلك هو فى نظرى جزء من معنى قوله عليه الصلاة والسلام :

(إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته) .

---

(١) راجع الشفاء ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ راجع هذا فى نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض لمولانا أحمد شهاب الدين الخفاجى المصرى وعلى هامشه راجع شرح الشفاء لعلى القارى ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ج ١ ط الأزهرية ١٣٢٥ هـ أولى راجع شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٥ ص ٢٤٣ راجع القرطبى ، ط الشعب .

ولهذا الميثاق كانت دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

(رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) . ١٢٩ — البقرة .

فقد جعل ابن كثير نص الحديث المذكور شرحاً لهذه الآية ، قال :

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعين محمد صلوات الله و سلامه عليه رسولا فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن كما قال الإمام أحمد : أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبدالأعلى بن هلال السلمى عن العرباض ابن سارية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك .

دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين [1] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ١٨٤ راجع الحلبية ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

وأما فيما يتعلق ببشارة سيدنا عيسى عليه السلام ، فني القرآن الكريم :

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ) ٦ ــ الصف .

ثم ساق ابن كثير مجموعة من الأحاديث تدور حول الذى نقلناه عنه آنفا[١] .

وأما رؤيا أم النبي صلى الله عليه وسلم فقد روى البيهقى فى دلائل النبوة :

« وكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع على الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد » .

وقال : فإن آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا وقع فسميه محمدا فإن اسمه فى التوراة والإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض[٢] .

---

(١) راجع تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ – راجع حول هذه المادة شرح نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ص ٢٥٠ ج ٢٥١ ج ٢
راجع كذلك ص ٢١٧ ج ٢ شرح على القارى .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

ويروى كذلك . : ليلة ولدته قالت : فما شيء أنظر إليه فى البيت إلا نور وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول ليقعن على[١] .

يقول ابن الجوزى فى كتابه الوفا بأحوال المصطفى ، قالت آمنة : لقد رأيت ليلة وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم نورا أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها :

وقالت آمنة أيضاً لما ضربها المخاض قالت : فجعلت أنظر إلى النجوم تدلى حتى قلت ليقعن على . فلما وضعته خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا ترى إلا نوراً[٢] :

وبعد :

فإن : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَل رِسَالَتَهُ)[٣] .

عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : فداك أبى وأمى ، أين كنت وآدم فى الجنة ؟

قال فتبسم : حتى بدت نواجذه ، ثم قال :

كنت فى صلبه ، وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح ، وقذف بى فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى على سفاح قط ، لم يزل الله

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٤ .

(٣) من الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام .

ينتقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما ، وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقى ، وبالإسلام عهدى ، ونشر فى التوراة والانجيل ذكرى ، وبين كل نبى صفتى ، تشرق الأرض بنورى والغمام بوجهى ، وعلمنى كتابه وزادنى شرفا فى أسمائه ، وشق لى اسما من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد وأحمد ، ووعدنى أن يحبونى بالحوض والكوثر ، وأن يجعلنى أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجنى من خير قرن لأمتى وهم الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(١) .

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير بيئة ومن خير قرن ، يقول عليه الصلاة والسلام :

بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا قرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه .

وفى صحيح مسلم : أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩١ — الشفاء ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٤ ومسلم بباب — فضائل النبى — راجع شرح على القارى على الشفاء ص ٤٣١ ج ١ ط أولى ١٣٢٥ ﻫ المطبعة الأزهرية وكذلك ص ٤٣٣ راجع ج ٢ ص ٢٠١ على القارى الجامع الصغير ج ١ ص ٦٧ .

وفى البخارى : بعثت من خير قرون آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه[١] .

ويروى الحاكم والبيهقى من حديث موسى بن عبيدة . . . عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جبريل : قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد أفضل من محمد .

وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم . . . [٢] .

أخرجه البيهقى والطبرانى .

وفى الصحيحين : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر .

ذلك اختصاص الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك إعداده هو جل شأنه له ليكون عليه الصلاة والسلام للعالمين رسولا .

---

(١) البخارى ج ٤ ص ١٨٦ فى باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم شرح فتح البارى .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٤ اراجع الخصائص الكبرى ج ١ ص ٩٦ .

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً). ٣٦ — الأحزاب .

ولقد شاء الله تعالى أن يملأ الجو الإنسانى بأنباء هذا الرسول الكريم ليهيء المجتمع الإنسانى لاستقبال دعوته حتى لا تكون فجأة ويكون للدين الحنيف إرهاصات تمهد له ، وتهيء النفوس لاستقباله : وكان أمر الله مفعولا .

وفى الطبرانى ، عن ابن عمر :

أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل اختار خلقه ، فاختار منهم بنى آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشاً ثم اختار بنى هاشم فاختارنى ، فلم أزل خيارا من خيار [1] :

وكفى بالله حسيباً .

٢ — ومبشرا

لم يكن المجتمع العربى غافلا عن مستقبل يوم يشرق فيه فجر صادق ، فلقد كان الحنفاء نجوماً تتلألأ فى سماء الفكر العربى وكانت عكاظ ومجنة وذو المجاز مصابيح ليل تنير الطريق ؟

---

(١) راجع شرح الشفاء لعلى القارى ج ١ ص ٤٣٤ .

وكانت رحلات الباحثين عن الحنيفية أعلامها على الطريق السواء .

ومع هذا فإن الله جل شأنه قد هيأ بمبشرات عديدة فرصا توعى المجتمع بحقيقة يوم النبوة الأخيرة .

فكانت هناك إرهاصات بدلائل النبوة بدت في جميع مستويات الأمة وعلى مراحل من الزمن حتى إشراقة الفجر الصادق .

وقد شاء الله أن تشمل هذه المراحل : ما قبل البدء ، وفي أثناء الحمل وعند الرضاع ، وفي فترة الصبا ، وعند الشباب وقد آذن الوحي بالنزول .

ثم استتبعت هذه التوعية في المستقبل بعد البعث المحمدي آثارها فكانت سبباً لجانب من الذين استيقظوا بها فدخلوا في دين الله آن الشروق :

ولنعرض نماذج لهذه المراحل فقد يطول بنا الحديث لو اتبعنا منهاج الاسترسال في عرضها :

١ ـ قبل البدء

كانت أم قتال : رقية[1] بنت نوفل تسمع من أخيها ، العلامة ورقة بن نوفل : أن في الإنجيل والتوراة علامات النبي الخاتم وكان

(١) يرجح ابن سعد أن التي عرضت نفسها على عبد الله هي : قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل ، وإليه نميل لوجود علاقة بين عرضها وأسبابه الثقافية التي قد =

ورقة يحتل منزلة عليا ، وشهرة فى الحياة الفكرية والدينية عند العرب ، وكانت أخته أم قتال أكثر الناس سماعاً منه وكان اتصالها به ميسراً والثقة فيه كبيرة .

وبفراستها العربية شاهدت فى جبين عبد الله بن عبد المطلب أنوار النبوة فتمنت للحظتها أن تكون هى أم ذلك النبى المترقب .

فاندفعت — وهى منفعلة بلهب أمنيتها — ودون تحفظ ولا اختيار للألفاظ قالت له :

لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن .

فقال لها :

أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه [1] .

= سمعتها من أخيها ، راجع ج ١ ص ٩٥ الطبقات ، راجع تاريخ الطبرانى ج ٢ ص ٢٤٣ راجع الحلبية ج ١ ص ٤٦ المواهب ج ١ ص ١٠١ .

(١) راجع عبارة ابن هشام ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ورواية أبى نعيم : أنها امرأة مشهودة تسمى : فاطمة بنت مرة الخثعمية ج ١ ص ٣٩ ولعل القصة ذات تكرار لتعدد وقائعها ففى رواية أبى نعيم قال : كان عبد الله بن عبد المطلب احسن رجل رئى قط ، خرج يوما على نساء قريش مجتمعات ، فقالت امرأة منهن : أيكن يتزوج بهذا الفتى فتصيب النور الذى بين عينيه ، فانى أرى بين عينيه نورا « دلائل النبوة » ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .

ويمضى أبو النبى عبد الله بن عبد المطلب بالنور الذى يحمله إلى منزل وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بنى زهرة : شرفا ونسباً ، فيتزوج من آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً وأكرم امرأة فى حى العرب من جميع نواحى التفضيل والطهر والنقاء كمالا ، ورفعة وسموا . .

ثم يخرج من عندها ويلتقى مرة أخرى بأم قتال فلا تعرض نفسها عليه كما فعلت فى المرة الأولى فيسألها :

مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضتيه بالأمس ؟

فتجيبه :

لقد فارقك النور الذى كان معك بالأمس فليس لى بك اليوم حاجة .

ويروى صاحب الحلبية : أن سبب تزويج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بالذات ، أن عبد المطلب كان يأتى اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم ، فنزل مرة عنده ، فاذا عنده رجل ممن قرأ الكتاب ، فقال له : ائذن لى أن أفتش منخرك ؟

فقال : دونك فانظر .

فقال : أرى نبوة ، وملكاً ، وأراهما فى المنافين :

عبد مناف بن قصى ، وعبد مناف بن زهرة .

فلما انصرف عبد المطلب ، انطلق بابنه عبد الله فتزوج عبد المطلب : هالة بنت وهب فولدت حمزة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ؟

لقد صدق عبد المطلب هذا التنبؤ ، واتخذ لذلك طريقاً عملياً واحتاط وحرص ، عسى أن تتحقق النبوءة . أو تكون ملكاً . فجمع نسبا له ولولده من بنى عبدى المناف (المنافين) ليكون من أحدهما المجد المنتظر ؟

٢ ـ مع البدء

يروى ابن الجوزى ، وابن كثير :

لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول :

ما شعرت أنى حملت به ، ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء ، إلا أننى أنكرت رفع حيضتى فأتانى آت ، وأنا بين النائم واليقظان ، فقال :

هل شعرت أنك حملت ؟

فكأنى أقول : ما أدرى ؟

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٤٤ .

فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وتقول :

ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال :

قولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد .

قالت : كيف أقول ذلك ؟

فذكرت ذلك للنساء فقلن تعلقى حديداً فى عضديك وفى عنقك قالت :

ففعلت ، فلم يكن يترك على إلا أياما فأجده قد قطع ، فكنت لا أتعلقه ، ولقد قالت آمنة : لقد علقت به فما وجدت مشقة حتى وضعته وأمرت أن أسميه أحمد [1] .

٣ ـ عند الوضع

يروى ابن الجوزى :

قالت آمنة : لقد رأيت ليلة وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم نورا أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها[2] .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٠٧ .

راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، راجع الحلبية ج ١ ص ٥٤ — ٥٨ المواهب ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٤

وفى أعلام النبوة للماوردى :

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حضر مجلس قريش فقال : يا معشر قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

فقال القوم : ما نعلم ؟

قال : الله أكبر ، أما إذا أخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد فى هذه الليلة نبى بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف وثن ، فتصارع القوم عن مجلسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله ، فقالوا : ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه : محمدا ، فانطلق القوم إلى اليهودى فأخبروه ، فقال : اذهبوا بى حتى أنظر إليه .

فأدخلوه عند آمنة وقالوا اخرجى إلينا ابنك ؟ فأخرجته ، وكشفوا عن ظهره ، فرأى اليهودى تلك الشامة فوقع مغشياً عليه .

فلما أفاق ، قالوا له : مالك ؟

قال : ذهبت — والله — النبوة من بنى إسرائيل يا معشر قريش والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب [١] .

وصدق الله العلى العظيم]:(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) . (٢) آية رقم ١٤٦ من سورة البقرة .

٤ — مع الطفولة

يروى ابن هشام :

أن نفرا من النصارى رأوه — يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم — معها — يعنى حليمة — حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه . وقلبوه . ثم قالوا لها :

لنأخذ هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فان هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرفه [٣] .

---

(١) اعلام النبوة للماوردى ص ١٠٤ ، ١٠٥ راجع الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٩٥ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٨٩ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢١٢ على القارى ج ٣ ص ٢٦٣ الحلبية ج ١ ص ٨٢ المواهب ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) راجع حول هذه المعانى نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٣) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ تحقيق شلبى ، السقا . السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٣٢ الحلبية ج ١ ص ١١٤ .

ويروى ابن هشام :

أن رجلا من لهب كان عائفاً ، إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم ، قال :

فأتى به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شئ ، فلما فرغ قال :

على به ؟.

فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه فجعل يقول :

ويلكم . . . ردوا على الغلام الذى رأيت آنفاً ، فوالله ليكونن له شأن[1] .

وفى الرحلة الأولى إلى الشام مع أبى طالب يشاهد بحيرا الراهب النصرانى من الدلائل ما يساوى الذى عنده من العلم فصنع طعاماً ثم

= وإذا استندنا إلى رواية ابن هشام التى يذكر فيها أن هؤلاء النصارى من الحبشة : ادركنا فى مستقبل الدعوة لماذا كان التوجه فى الهجرة الأولى إلى هناك . ولعل الاستفهام الذى حاول أن يجيب عليه الدكتور هيكل ليس بذى معنى إذا كان القوم على استعداد لاستقبال النبى صلى الله عليه وسلم منذ طفولته . راجع حياة محمد ص ١٥٤ فاذا اضيف إلى هذا أن النجاشى أرسل وفد من علماء المسيحية ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرونه ففاضت اعينهم دمعا مما عرفوا من الحق ونزلت فيهم آيات فى سورة المائدة كان سؤال الدكتور فى غير محله راجع ابن كثير ج ٢ ص ٨٥ .

(١) المرجع السالف

دعى القافلة . ولبوا ، وقد تخلف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يوم ذاك غلاما حدثاً فتفحص بحيرا العلامة التى شاهدها من قبل فوجدها هناك بعيداً ما زالت عنده ، فسألهم : هل تخلف منكم أحد ؟

قالوا : غلام .

فقال لهم : ادعوه فليحضر هذا الطعام ، فلما حضر جعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء فى جسده الشريف .

ثم دار بينهما حديث . فكان كلما أخبره النبى — صلى الله عليه وسلم — خبرا وافق بحيرا ، ثم نظر إلى ظهره الشريف فرأى خاتم النبوة بين كتفيه الشريفين على موضعه من الصفة التى علمها فى الأنجيل ،

فسأل عمه : ما هذا الغلام ؟

قال : هو ابنى .

قال بحيرا : ما ينبغى أن يكون لهذا الغلام والد حى ؟

قال : فانه ابن أخى .

قال بحيرا : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى فيه .

قال بحيرا : صدقت .

فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوه ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم[١] .

مع الدكتور هيكل

في سطور موجزة جدا تحدث الدكتور هيكل عن هذا اللقاء[٢] ، ولكنه في التعليق على الحادث استفاض حتى خرج عن مستوى الأسلوب الذي يصور الفكرة الإسلامية لقد قال :

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء ، وتعلقتا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ووادي القرى ، وديار ثمود ، وتسمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضي نبئها .

وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام عند الحدائق الغناء اليانعة التي أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها ، والتي تبدت له جنات إلى جانب جدب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة .

وفي الشام كذلك عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم وسمع عن كتبهم وعن مناوءة الفرس من عباد النار لهم وانتظارهم الوقيعة بهم[٣] .

---

(١) المرجع السالف ، الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٧ .

(٢ ، ٣) حياة محمد ص ١١٤ ، ١١٥ .

هذا الأسلوب رغم أنه لم يصف الحقيقة فإنه مقدمات أدلة للمستشرقين.

ولقد نسى الباشا أن العادة العربية لم تكن تسمح بلقاء الاطفال مع الرجال فى أحاديث وجلسات كما هو واضح من ترك (محمد) عند الرحال وقت أن لبى القوم دعوة بحيرا .

وأن لقاءه مع بحيرا كان لرغبة فى نفس بحيرا لما عنده من العلم .

وأن المعارف لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لدنية ، (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) ؟ فليس له مرب غير الله ، وفى الحديث : أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

ولهذا . فإننى أنكر عليه استخدام مثل هذا الأسلوب فى عرض الفكرة الإسلامية ، لأنه فى أدنى فحص له يؤدى إلى أن الدكتور هيكل يريد أن يقول :

إن أخبار عاد وثمود ، وغلبة الروم للفرس . . . الخ .

دراسات تعلمها محمد من رحلاته . فما أشبه هذا بدعوى المستشرقين حديثا والمشككين فى القرآن قديما : إن محمدا صنع القرآن من عند نفسه .

نعم ، قد لا يكون الدكتور هيكل يقصد هذا المعنى الافتراضى . لكن أسلوبه يمكن أن يؤدى إلى هذا . وتلك خطورته فى مجال عرض مبدأ من مبادئ الفكرة الإسلامية .

وقصة بحيرا هذه مشهورة فى كتب العلماء الكبار وقد أوردها المشتغلون بدلائل النبوة فجزاهم الله خيرا[1] :

٥ ــ مع الشباب

ومرة أخرى يسافر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تجارة إلى الشام ، إنها تجارة خديجة بنت خويلد :

كان فى المرة الأولى فى كنف عمه أبى طالب وهو غلام صغير ، أما هو هذه المرة فشاب ، إنه وكيل متصرف له إرادة ورأى وكان موثوقا فيه على مستوى المجتمع كله :

ويمر فى رحلته الميمونة المباركة براهب فى صومعته ، إنه على ما قاله المشتغلون بمثل هذه التحقيقات يسمى نسطورا[2] رأى هذا الراهب من مبشرات النبوة وعلاماتها ودلائلها وارهاصاتها بمثل ما رأى بحيرا ، وكما عرفا من الإنجيل الذى قرآه :

وحول هذه الحادثة يقول ابن هشام :

---

(١) راجع الروض الأنف ج ١ ص ١١٩ دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٥٣ ، الوفابأحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٤ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٤٤ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٠٨ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٤٤ السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٨ .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة قريبا من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له :

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم .

قال له الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى[١] ، كان الراهب فى صومعته يعلم أن زمن النبوة الخاتمة قد حان . وكان يعلم أن من علامات النبوة فى الساعة التى راقب فيها الطريق ، أن النبى المنتظر يستظل تحت الشجرة المجاورة لمنطقته التى يعيش فيها فانتظر .. حتى يشاهد الحوادث على نهج ما علم وصدق الله ماعرف من الحق .

* ويروى أبو نعيم فى دلائله :

حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى فباع سلعته التى خرج بها واشترى فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة فقال له الرجل : احلف باللات والعزى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ماحلفت بها قط .. وانى لأمر بهما فأعرض عنهما .

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٥٤ ، والسيرة النبوية لابن هشام تحقيق شلبى والسقا ج ١ ص ١٨٨ والشيخ محمد محيى الدين ص ٢٠٣ السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٤٣ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٣٧ .

فقال الرجل : القول قولك :

ثم قال لميسرة : — وخلابه — ياميسرة هذا نبي والذى نفسى بيده إنه لهو هو ، وبجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم[١] .

لقد كانت بشائر تترى ، وعلامات تتعاضد لتوجه فكر الناس إلى حدث خالد فيه سعة الحياة ورضوان من الله أكبر .

ولقد شهد بذلك ورقة بن نوفل عندما عرضت عليه السيدة خديجة رضى الله عنها ماذكره إليها ميسرة من قول الراهب (نسطورا) ومما شاهده فقال لها :

لئن كان حقا ياخديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر ، هذا زمانه[٢] .

٦ — قبيل الشروق

يروى ابن الجوزى :

قال طلحة بن عبيد الله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعة يقول :

سلوا أهل الموسم : هل فيكم أحد من أهل الحرم ؟

---

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٥٤ الوفا ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٩١ ويمكن ربط هذا بعرضها أن تتزوج من رسول الله صلى عليه وسلم بالإضافة إلى ما رواه الماوردى فى أعلام النبوة من معرفتها عن نبى منتظر ص ١٠٥ .

قال طلحة : فقلت : نعم ، أنا :

قال لى : ظهر بمكة بعد أحمد ؟

قلت : من أحمد ؟

قال : ابن عبد المطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة ، وحرة وسباخ .

قال طلحة : فوقع فى قلبى ما قال الراهب ، فخرجت حتى قدمت مكة :

فقلت : هل كان من حديث ؟

قالوا : نعم محمد بن عبد الله الأمين تنبأ :

وتابعه ابن أبى قحافة . فخرجت حتى أتيت أبا بكر ، فأخبرته ، وقلت له : بعث هذا الرجل ؟

قال نعم ، انطلق فتابعه ، فإنه يدعو إلى الحق . وذهب أبوبكر .

قال طلحة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبر الراهب وما قال لى[1] :

وشواهد هذه الإرهاصات كثيرة ، ونماذجها تذخر بها الكتب ، وإن أعظم مايصدقها علميا أنها شملت الحجر ففى صحيح مسلم :

---

(١) الحلبية ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن[1] .

تعليق :

لقد كانت هذه الدلائل والبشارات تفيض بها الأخبار على جميع المستويات من علماء أهل الكتاب ، والكهان ، والعظماء ، وعامة الناس .

ومن أمثلة ذلك :

أولا : مارواه أهل الكتاب من اليهود :

يروى محمد بن مسلمة قال :

لم يكن فى بنى عبد الأشهل إلا يهودى واحد يقال له . يوشع ، فسمعته يقول وأنا غلام — قد أظلكم خروج نبى يبعث من نحو هذا البيت ثم أشار بيده إلى بيت الله تعالى فمن أدركه فليصدقه .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمنا وهو بين أظهرنا ولم يسلم حسدا وبغيا[2] .

---

(١) مسلم ج ٤ ص ١٧٨٢ تخريج المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى .

(٢) الوفا ج ١ ص ٤٣

وفى دلائل النبوة لأبى نعيم :

كانت يهود بنى قريظة يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ويعلمون الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلى المدينة ، فلما ظهر حسدوا ، وبغوا ، وأنكروا[1] .

ثانياً : ماروا ه أهل الكتاب من النصارى :

يقول الماوردى :

إن جماعة من النصارى قدموا من الشام تجارا إلى مكة ، فنزلوا بين الصفا والمروة فرأوه وهو ابن سبع سنين — فعرفه بعضهم بصفته فى كتبهم وسمته بفراستهم فقال له : من أنت ، وابن من أنت ؟

فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

فقال له : من رب هذه . واشار إلى الجبال ؟

فقال : الله ربها لا شريك له .

فقال له : من رب هذه . . وأشار إلى السماء ؟

فقال : الله ربها لاشريك له .

فقال له النصرانى : فهل له رب غيره ؟

---

(١) دلائل النبوة ج ١ ص ١٨ من هذه الأخبار ما رواه الجوزى فى الوفا ج ١ ص ٤٣ — ٥١

فقال : لاتشككنى فى الله ، ما له شريك ولا ضد .

فقام بالتوحيد فى صغره ، وفصح النصرانى بخبره ، وأنذر بنبوته[(١)] .

ثالثا : ما رواه الكهان

يقول صاحب السيرة الحلبية :

« ومنها أيضاً خبر عمرو بن معد يكرب رضى الله تعالى عنه قال :

والله لقد علمت أن محمدا رسول الله قبل أن يبعث .

فقيل : وكيف ذاك ؟

قال : فزعنا إلى كاهن لنا فى أمر نزل بنا ، فقال الكاهن :

أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والريح ذات العجاج ، إن هذا إلا أ ج [(٢)] ، واقاح ذى نتاج .

قالوا : وما نتاجه ؟ ، قال : نتاجه ظهور نبى صادق بكتاب ناطق وحسام فالق .

---

(١) أعلام النبوة ص ١٠٥ من هذه الأخبار ما رواه ابن الجوزى فى الوفا ج ١ ص ٥٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٩ ت محيي الدين من مراجع هذا البحث فصل من دلائل نبوته شرح على القارى ص ٢٥٦ .

(٢) آ ج : ملتهب .

قالوا : وأين يظهر ، وإلى ماذا يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، ويعطل القداح ، وينهى عن الراح والسفاح وعن كل أمر قباح :

قالوا : من هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم حافر زمزم ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد [١] .

رابعا : على لسان الملوك والعظماء

وفى تاريخ الطبرى : قال :

بعث الله إلى كسرى ملكا وهو فى بيت إيوانه الذى لايدخل عليه فيه ، فلم يرعه إلا به قائما على رأسه فى يده عصا بالهاجرة فى ساعته التى كان يقيل فيها .

فقال ياكسرى أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟

فقال بهل ، بهل . فانصرف عنه ، ثم دعا أحراسه وحجابه فتغيظ عليهم وقال :

من أدخل هذا الرجل على ؟

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

فقالوا : مادخل عليك أحد ، ولا رأيناه .

حتى إذا كان العام القابل أتاه فى الساعة التى أتاه فيها فقال له كما قال له ، ثم قال له : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟

فقال ، بهل ، بهل ، بهل ثلاثا فخرج عنه ، فدعا كسرى حجابه وحراسه وبوابيه فتغيظ عليهم وقال لهم كما قال أول مرة ، فقالوا : ما رأينا أحدا دخل عليك .

حتى إذا كان فى العام الثالث أتاه فى الساعة التى جاءه فيها ، فقال له كما قال : أتسلم أو أكسر هذه العصا ؟ فقال ، بهل ، بهل .

قال : فكسر العصا ، ثم خرج فلم يكن إلا تهور ملكه وانبعاث ابنه والفرس حتى قتلوه[1] .

ويروى كذلك :

أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يارسول الله ماحجة الله على كسرى فيك ؟

قال : بعث إليه ملك فأخرج يده من سور جدران بيته الذى هو فيه يتلألأ نورا فلما رآها فزع ، فقال لم ترع يا كسرى ؟ إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فاتبعه تسلم دنياك وآخرتك قال ؟ سأنظر[2] .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩١ راجع الوفا ج ١ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٠ ، ١٩١ وفى تذكرة الحوادث نجد أن كسرى =

وفى البخارى حديث طويل دار بين هرقل وأبى سفيان ، فيه :

« وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل اسقف على نصارى الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح خبيث النفس ، فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك ؟

قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم : أن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من الأمة ؟

قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل ، قال : اذهبوا ، فانظروا أمختتن هو ، أم لا ؟ .

فنظروا إليه فحدثوه : أنه مختتن ، وسأله عن العرب .

فقال : هم يختتنون .

فقال هرقل : هذا ملك هذه الامة قد ظهر .

= هذا مزق الكتاب الذى بعثه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سفيره عبد الله بن حذافة السهمى فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم : مزق الله ملكه كل ممزق ص ٢٠٠ نور اليقين .

ثم كتب إلى صاحبه فى رومية — وكان نظيره فى العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق على رأى هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكره له بحمص ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا الرجل ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم أيس من الإيمان وقال ، ردوهم علىّ وقال ، إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ، ورضوا عليه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1] لقد حاصوا حيصة حمرة الوحش لماهم عليه من التقاليد والعادات والتعصب والركود على ماورثوه من الآباء والأجداد .

خامسا : على لسان العامة من الناس

كانت البشارات والإرهاصات قد عمت أرجاء الجزيرة العربية يسمعونها فى الأسواق ، وفى صوامع الرهبان ، ومن الكهان : فتمنى ثلة من الناس أن تكون النبوة فى أولادهم فسموا أبناءهم باسم محمد :

---

(١) البخارى كتاب الإيمان باب بدء الوحى .

يقول ابن الجوزى :

عن خليفة بن عبدة المنقرى قال :

سألت محمد بن عدى ، كيف سماك أبوك محمدا ؟

قال : أما أنى سألت أبى عما سألتنى عنه فقال : خرجت رابع أربعة من بنى تميم ، أنا أحدهم ، وسفيان بن مجاشع ويزيد بن عمر بن ربيعة ، وأسامة بن ماللك بن جندب ، نريد ابن جفنة الغسانى .

فلما قدمنا الشام نزلنا على غدير فيه شجيرات ، وقربه دير وفيه ديرانى ، فأشرف علينا وقال : إن هذه اللغة ماهى لأهل هذا البلد ؟ .

قلنا : نعم ، نحن قوم من مضر .

قال : من أى المضريين ؟

قلنا : من خندف .

قال : أما أنه سيبعث فيكم وشيكا نبى فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين واسمه محمد ، فلما انصرفنا من عند ابن جفنة وصرنا إلى أهلنا ، ولد الكل رجل منا غلام فسماه محمدا[1] .

---

(١) الوفا ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧ ، راجع لسان العرب ج ٤ ص ١٣٥ المحبر ص ١٣٠ — فتح البارى ج ٤ ص ٤٣٤ راجع الحلبية ج ١ ص ٩٥ — ٩٨

قال ابن كثير فى السيرة ، ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدا فى أمره حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم ينازع فيهما[1] .

هكذا هيأ الله المجتمع البشرى فيما قبل الرسالة ببشارات توعية أن حالته التى — يعيش عليها — حتى ولو كانت فاضلة — سوف يأتيها نبى خاتم :

ينقل أخلاقها الفاضلة من دائرة المحامد إلى دائرة العبادة :
وينقل شذوذها الأخلاقى إلى دائرة التأثم والتوبة فإن التعبد لا يرتبط بالسلوك الأمثل على منهاج علم الأخلاق ، فوظيفة الإنسان فى هذا الوجود محددة :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوةِ الْمتينُ) ٥٦ ــ ٥٨ الذاريات .

وقد ربط الله ثوابه وعقابه باتباع رسله :

(وما كُنَّا مُعذِّبينَ حتىَّ نَبْعَثَ رَسُولاً) ١٥ ــ الإسراء .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ١٩٧ الحلبية ج ١ ص ٩٧

ولقد كان من رحمة الله أن وعى الناس بإرسال النبى عليه الصلاة والسلام حتى لاتكون حيرة إذا ما فاجأهم وليدركوا أن طاعة الله ليست فى رفيع الأخلاق ، وإنما هى فى استسلام الوجه لجلاله والإنسان محسن :

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) ٢٢ ـ لقمان .

ومن رحمة الله كذلك أن بعث لهم رسولا من أنفسهم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم[1] .

٣ ـ فانك بأعيننا

تمهيد :

(اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) ذلك حق الله المطلق فى اصطفاء رسله وأنبيائه ، وربك يخلق مايشاء ويختار ، وليس من حق إنسان مهما كانت عبقريته ومنزلته وجاهه أن يقترح علة لهذا الاختيار بله أن يسأل عن علاته وبواعثه .

---

(١) راجع حول هذا الموضوع :

الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٥٠ — ١٦٩ ط بيروت ١٩٦٠ م .

ذلك أن السياج الذى يمنع العقلية المتدينة هو :

١ ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته .

٢ ـ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب :

٣ ـ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .

فإن أفعال الله هى أفعال الألوهية صاحبة الجلال والسلطان والتدبير والتصريف وما للناس تجاه هذا التدبير الإلهى إلا القبول والرضا والاستمساك بالذى أوحى إليهم وإنه لمن الدخل فى العقيدة أن يطرق المسلم أبواب بحث فى موضوع هو أحق حقائقه تدبير إلهى خاص بجلاله العظيم الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم .

وأفعال الله جل ثناؤه ومنها اصطفاء الأنبياء والرسل وتفضيل البيت الحرام على غيره . . . الخ وتفضيل ليلة القدر وشهر رمضان وأشهر الحج ورجب على غيرها . . . لمن أوليات تلك الأمور الداخلة فى حيز السلطان الإلهى الذى يعرضه القرآن الكريم لنا فى قوله تعالى :

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ ـ الأنبياء .

وإنى لأستغفر الله العظيم من ذنب مثل هذا . . فلست أقصد من هذه الدراسة فحص عوامل اختيار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

للنبوة . فذلك ضعف فى ثقة العالم المسلم بحدود تفكيره ، وانى والحمد لله انى غنى عن هذا فقد رضيت واطمأن قلبى بالله تعالى ربا وبالقرآن دستورا ، وبالاسلام دينا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا :

غير أن مهمتى هنا هى كشف الدلائل السوية فى جانب حياة الرسول العظيم قبل بعثته :

تلك الدلائل التى تشرف التاريخ بها فأثبت أن شخصية صاحب الدعو عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام — شخصية فريدة سوية تسمو بأقطارها جميعا على كل أوصاف الشرف التى تتحلى بها أكبر الشخصيات الانسانية لقبا مثل :

قائد زعيم بطل عبقرى : : : الخ :

فتلك صفات محدودة ، وهى حدود مكررة : : : فكم شهد التاريخ أبطالا ؟ وحفظ الأدب والفلسفة عباقرة ؟ ورأس الدول قواد وزعماء : : : الخ :

ولكنهم جميعا كانوا دونا فى الخلق ، ودونا فى الذكاء ، ودونا فى الكمال :

لقد كانوا دونا فى كل شئ بالنسبة لصفة الانبياء بله صفات سيدنا محمد بن عبد الله سيد ولد آدم ولا فخر .

لقد كان عليه السلام شخصية يتيمة به لم تسبق في التاريخ أبدا ، وان تلحق بند لها في المستقبل بتاتا ، إنها شخصية خاصة به لن تكرر أبدا :

وما تكررت من قبل أبدا :

وان تتكرر فيما بعد أبدا :

فقد هيأه الله جل شأنه وتعالى كبرياؤه لحمل الرسالة العظمى : الاسلام الحنيف الذى ارتضاه ، وجبل النفوس على الالتئام بمبادئه ، وهيأ ظروف الحياة لتظهر فضله ، وربط حظ الانسانية به فى شطرى الحياة : الدنيا والآخرة : وجعل من رحمته وفضله على ذلك دلائل تشرفت هى بالانتساب إلى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام :

فكان وحده — صلى الله عليه وسلم — البشر السوى الذى اكتملت فيه البشرية السوية فلم :

* يتأثر وجوده — حتى وهو طفل بالسلوك العادى القابل للخطأ والتصحيح فلقد كان يتجنب الاطفال وهم يلعبون ، يقول فى السيرة الحلبية :

« كان يخرج إلى الصبيان وهم يلعبون فيتجنبهم »[1] .

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٢٧ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ١١١ .

* ولم يكن اليتم له مضياعا كما هو العادة العادية فى أغلب ظروف اليتامى ، فلقد وجده ربه يتيما فآواه :

* ولم يكن الفقر له مذلة كما هو الشأن فى العلاقات البشرية فى أى مجتمع . فقد وجده ربه عائلا فأغناه .

* ولم ينفصل عن المجتمع فى وجوده كله ، ولم يندمج فيه كلية فقد وجده ربه هكذا فهداه .

لم يشارك المجتمع فى انحرافاته ، ولم يتأثر به فى عاداته ثم كان هو الأمين الذى تحفظ عنده الأمانات والودائع ، وكان هو الحكم فى مدلهمات الأمور وأعقد المشاكل . انه كما هيأه الله جل شأنه :

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [1]) .

لقد كان سويا ولم يكن عاديا .

وكان سويا ولم يكن شاذا .

فالشخصية العادية ومنها الشاذة هى التى :

تتأثر فى وجودها ونموها . : فيكون لها فى الطفولة سلوك ، وفى مستقبل العمر سلوك آخر :

---

(١) آيات ١ — ٤ من سورة الشرح راجع تفسيرها فى روح المعانى ج ٣٠ ص ١٦٧ .

ويكون لها اليتم — غالبا — مضياعا :

ويكون لها الفقر — عادة — مذلة يدفع إلى الانحراف .

إن الشخصية العادية التى تتأثر بفقه الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حسب اللون الذى يعيشه المجتمع وتلك الشخصية هى التى تقبل قسمة علم النفس إلى :

شخصية عظيمة أو حقيرة

شخصية محترمة أو مهانة :

شخصية طبيعية أو شاذة .

شخصية ناجحة أو فاشلة .

شخصية ذكية أو غبية .

شخصية اجتماعية أو انطوائية .

شخصية كبيرة أو صغيرة . . . الخ .

إن الشخصية العادية كالماء .

انها تتلون بلون الثقافة البيئية ، وتنفعل فى وجودها بالجو الذى يحيط بها .

أما البشرية السوية فإنها بشرية الأنبياء المصطفين وهى أرفع وأسمى من كل نماذج المصلحين التاريخيين لأنها مهيأة بقدرة الله الأجل لاصلاح الوجود البشرى بوحى الله :

إن البشرية السوية تحس بآلام الناس لتشرع لهم مايزيل الآلام دون أن تنفعل بها فتحمل آثارا ربما تكون غير حميدة العواقب . فيتأثر بها الاصلاح :

ولقد طال أذى المشركين فى مكة للنبى صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين من الأولين السابقين . وجاء جبريل باستعداداته اللا محدودة يطبق عليهم الأخشبين ، ولكن السوية فى بشرية النبى العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام تجيب :

(اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون) .

ليس هناك أثر نفسى لتعذيب ثلاثة عشر عاما . ولا ماجد بعدها من حروب شنوها بأنفسهم ، وأوقدوا لها الحمية ، ليحطموا دين الله ودولته . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

لم يكن عليه الصلاة والسلام بشرا عاديا فينتقم بل كان رحمة سويا وكان — رسولا نبيا ، أدبه ربه فأحسن تأديبه [1] .

---

(١) الحديث : ادبنى ربى فأحسن تأديبى اخرجه ابن السمعانى فى أدب الاملا عن ابن مسعود راجع الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٢ .

وتلك وجهتى التى أيممها ببركة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تتشرف فتصادف فتوحا ربانيا فأقدم ضوءا بقدر ما أستطيع على جوانب تلك الحياة السوية التى هيأ الله بها حبيبه محمدا فرباه وآواه وأغناه وهداه وقال له :

فإنك بأعيننا .

وإنك لعلى خلق عظيم .

وسوف تشمل الدراسة هذه النقط :

١ — الرضاع .

٢ — شق الصدر .

٣ — اليتم والشخصية .

٤ — رعى الغنم والتدريب السياسى .

٥ — الوجدان الاجتماعى فى :

(أ) العمل والعمال .

(ب) الأسرة .

(ج) العدل الاجتماعى .

(د) الشذى العطر .

وبالله التوفيق ؟

أولا : الرضـــاع

فى الدراسات النفسية : أن الطفل فى مرحلة حياته الأولى يكون متمسكا بأمه أشد مايكون التمسك . وعلاقته بوالديه وأسرته تعتبر من أهم الحاجات الأساسية للطفل فانها تقوم بدور فعال رئيسى فى إشباع حاجته الوجدانية[١] .

فالتغذى بلبن الأم الحقيقية يسهم فى التطور العضوى البيولوجى للطفل ويؤثر فى سمات شخصيته واتجاهاته مستقبلا وحول هذا المعنى يقول الدكتور فؤاد البهى السيد :

إن الطفل فى باكورة حياته يشتق الأمن من والديه ، وأن حاجته إلى العطف تقرب من حاجته إلى الغذاء[٢] .

---

(١) راجع كتاب الخدمة الاجتماعية ص ١٨٨ دكتور محمد كامل البطريق .

(٢) علم النفس الاجتماعى ص ٢١٦ .

والأسرة حسب الدراسات النفسية تعتبر المصنع الذى يصقل الطفل، ويخرجه فى الاطار المرغوب فيه ، والطفل يتأثر طرداً وعكساً بظروف الأسرة ، إيجابا وسلبا ، تجاذباً وتنافراً ، تلاحماً وتفككاً[١] :

فإذا مارجعنا بهذه النظريات إلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الطفل نجد القضية على العكس ، لقد رضع بعد أمه من ثويبة ، وأم أيمن ، وخولة بنت المنذر[٢] .

إن البشر العادى المتأثر بمقومات الحياة يخضع فى حياته لمقاييس علم النفس .

أما البشرية السوية فانها على النقيض تماماً ، إنها ليست داخلة فى دائرة علم النفس لأنها أسمى فى وجودها من البشرية العادية التى هى محيط الدائرة لعلم النفس .

لقد كانت العادة العربية القديمة أن يبعث بالأطفال الرضع إلى آظار من البادية فان فى إرضاعهن لأطفال مكة عافية .

إن هواء البادية الرائق النقى الصافى يسرع فى نمو أطفال قريش ويكسبهم قوة :

---

(١) سيكولوجية الطفولة والمراهقة ص ١٧٥ دكتور مصطفى فهمى .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٨١ المعارف لابن قتيبة ص ٤٣ . . . الخ .

وإن تربيتهم الأولى بعيداً فى البادية يحسم عن الأجسام الرقيقة شر هواء مكة المحرق ، ويقيهم شرور مايحمله الوافدون إليها من أمراض وأدواء[1] .

إنها بيئة تغذى الطفل . بمشاعر الشجاعة والمروءة والثقة والكرم .

وتعلمه الحركة والصدق والنشاط . وتدربه على السعى واحترام الوجود الإنسانى[2] .

فكانوا يرسلون أولادهم إلى البادية لهذا .

وانتظرت السيدة آمنة بنت وهب مع المنتظرين مجئ المرضعات من بنى سعد . وحضرن ، وكن عزوفاً عن اليتامى ، إذ أنهن يبغين من وراء الإرضاع رزقاً . وأنهن لينتظرن أجراً .

وليس لليتامى — حسب العرف — عصب يمكن للمرضعات الاعتماد عليه فى تحقيق آمالهن ، فكانت الرغبة ، منهم فى الأيتام قليلة . فعزفن جميعاً عن إرضاع « محمد » — صلى الله عليه وسلم .

حتى إذا مااكتمل الكل واحدة منهن رضيع ، وهممن بالإياب : لم تكن حليمة قد صادفت لها حظاً ، ومن قبل كانت قد عزفت عن

(١) محمد فى طفولته وصباه ص ٥٠ الأستاذ محمد شوكت التونى .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٢ ، نور اليقين ص ٧ الخضرى بك ، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ١٩٨ دكتور محمد بن محمد أبو شهبة .

إرضاعه ، فلما وجدت نفسها — وهكذا جهزها الله تعالى — ستعود فارغة ، قالت لزوجها :

والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً .

والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه[1] ، وذهبت — وقد صب الله فى قلبها شوقاً وحنيناً للرضيع اليتيم ، يقول الأستاذ التونى :

وتملكها شعور قوى غريب فعادت تقول :

وإن بى لحنيناً إلى الطفل اليتيم ، لقد آذيتهم وكنت قاسية عليه وعليهم .

ونظر إليها الرجل الكريم بعين فاحصة واعية ثم قال : لاتنكرى على من أمرك شيئاً ياحليمة . فقد رأيتك تتقلبين طوال الليل لم يغمض لك جفن ، ولم ترقأ لك دمعة ، ولست أدرى من أمر سهرك شيئاً ولا أعرف لبكائك سبباً ، وأنت دائما الضاحكة الراضية القانعة .

فترد عليه :

والله إنى لا أدرى للأمرين من سبب ولكنى أحس حنيناً للوليد[2] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٣ ، الوفا ج ١ ص ١٠٨ ، السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٢٦ ، تاريخ الطبرى ج ١ ص ١٥٩ ، السيرة النبوية دكتور أبو شهبة ص ١١٩ — ٢٠٠ ، الخصائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق .　　محمد فى طفولته وصباه ص ٥٠ ، ٥١ .

وعادت تحمله حباً لها وهى حنان عليه ، وغادر ركب الآظار مكة فترى حليمة من بشائر النبوة ماتحكيه للتاريخ :

* فخرجت على أتان لى قمراء — بيضاء فيها كلدرة — معنا شارف لنا — ناقة — والله ماتبض بقطرة ، ومانتام ليلناأجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع مافى ثدى مايغنيه ، وما فى شارفنا مايغذيه .

فلما أخذته — رجعت به إلى رحلى فلما وضعته فى حجرى أقبل ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فاذا أنها لحافل فحلب منها ماشرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعاً فبتنا بخير ليلة .

قالت : يقول صاحبى — حين أصبحنا : تعلمى[1] والله ياحليمة لقد أخذت نسبة مباركة[2] .

---

(١) هكذا فى أصل السيرة لابن هشام قال محققوها : يريد اعلمى وفى الطبرى أتعلمين : راجع الطبرى ج ٢ ص ١٥٩ وعبارة ابن كثير : يا حليمة والله إنى لاراك قد أخذت نسخة مباركة ج ١ ص ٢٢٧ راجع الوفا ص ١٠٩ ج ١ فعبارته مماثلة عبارة ابن كثير السالفة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٣ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٥٩ راجع نسيم الرياض وشرح على القارى على الشفاء ج ٣ ص ٢٧٦ الحلبية ج ١ ص ١٠٧ .

إنها أول بشارات الفيض يظهرها الله جل شأنه فى محيط الأسرة الصغيرة .

لقد بدأت بركاته رخاء وأمنا وهو طفل رضيع لقد كان منذ هذه الطفولة الوديعة نسيم خير ورفق وعافية . وكان ذلك من فضل الله ارهاصا بمستقبل كريم للحياة على يديه .

* وتمضى حليمة مع ركب الآظار وهى تحمل نسمة البركة فتشاهد جديداً من البركات :

ثم خرجنا ، وركبت أتانى ، وحملته عليها معى فوالله لقطعت بالركب مايقدر عليه شئ من حمرهم حتى أن صواحبي ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب : ويحك أربعى علينا أليست هذه أتانك التى خرجت بها ؟

فأقول لهن : بلى ، والله إنها لهى هى ، والله إن لها لشأنا[1] .

* ويصل الركب ، وتستمر البشائر تترى قالت حليمة : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا فنحلب

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ دلائل النبوة لأبى نعيم . ج ١ ص ٤٨ السيرة الحلبية ج ١ ص ٨٥ ، الوفا ج ١ ص ١٠٧ — ١٠٩ .

ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيت[1] .

هكذا اختار الله ولا معقب لحكمه . ولقد كانت بشائر الخير التى عمت حياة الأسرة مؤشرات ذكاء : أن الاختبار كان هبة من الله : وأن عمل العبقريات فى دراسة هذه المجالات أن تفهم — تعبدا :

١ — ان رضاع النبى صلى الله عليه وسلم من حليمة وهى فى فقر وجدب كان تكرماً من الله وإرهاصاً بأن الذين سيتبعون هذا النبى ويسلمون له قيادة حياتهم سيكون لهم مثل هذا الخير واليسر والرخاء والأمن والسكينة :

٢ — ويفيد هذا الخير الذى سكبه الله على حليمة أن البيئة التى تربى فى حجرها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رغم أنها بيئة بديلة إلا أن جوا متكاملا من الحنان والوداد والزاد والهناء كانت ترفل فيه هذه الأسرة وكان الأب والأم على وفاق تام وانسجام رفيع فكانت بيئة أسمى من متطلبات دراسة علم النفس ، لأنها بيئة ربانية اختارها

---

(١) من مراجع هذا البحث — بالاضافة إلى ما ذكر سالفا — شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٥ .

الله لتكون لحبيبه الحاضن والأنيس ، لقد كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد قلباً لحقائق علم النفس .

وكان علم النفس واهى القوى ضعيف الشخصية بالنسبة لذات النبي الكريم ، فليضع هباء جهد أى باحث يريد أن يتجاسر ليدرس شخصية الرسول العظيم بقواعد علم النفس ، فلقد كان عليه السلام عند ربه يطعمه ويسقيه فهو بشر لكنه نبى .

ثانيا : شق الصدر

التنقية حسيًا ومعنوياً فى عالم البشر شىء مألوف ومرغوب فيه، إن استحمام الانسان استعداداً للقاء عزيز عمل يزينه العقل وتدعو إليه العادة .

وتأسف الإنسان لصديق عن خطأ ألم به فى حقه مثل أخلاق محمود ومعقول .

ذلك شأن البشر العادى الذى يربط فى حياته بأخلافيات الأرض ، ويتصل فى شئون عمره بأنظمة البشر .

أما الأنبياء فهم أصحاب بشرية سوية، إنهم يعيشون على الأرض وهم متصلون بالسماء رعاية وتربية وإعداداً لرسالة المستقبل ، وتنقية هؤلاء الأنبياء تأخذ مستوى سلطان المربى وما يملك من وسائل الإعداد[1] .

إن حياة الأنبياء منذ الاصطفاء حياة ربانية ، واصطفاؤهم عند الله منذ الأزل ، فإعدادهم له هذا المستوى الربانى ، وليس عند العقل مايرفض ذلك الواقع لادراكه الفرق الكبير بين تربية أبناء الأسرة المالكة وأبناء الأسرة الفقيرة . إن تفاوت البشر فى القدرة على

---

(١) راجع حول هذا المعنى المواهب ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٣ .

استخدام أفضل وسائل العيش فى جميع الشعوب المعاصرة مهما اختلفت ميزات مناهجها ليعطى فقها عاقلا ؟ ان حياة الأنبياء لها ميزة خاصة لأنهم يربون فى رحاب الله (فإنك بأعيننا) ؟

ولقد كان شق الصدر الشريف عملية تربية وتنقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فلقد رضع من ثويبة ، ومن حليمة . وتناول طعامه من الأرض وهو نور[1] فى الذات : انى عند ربى لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل فى طينته ؟ ؟

لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة صفيا مهذباً .

فكان لازما أن تنقى الهيولى النورانية من علائق الحياة العادية لتبقى الذات سوية[2] فكان شق الصدر ؟

يقول ابن هشام :

إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه [: ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه

---

(١) راجع الخصائص ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) فى اعلام النبوة للماوردى كلام حول هذا المعنى راجع ص ١٥٢ .

— راجع حول هذا الموضوع شرح المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٤٢ .

بحركانه — قالت : حليمة : فخرجت أنا وابوه نحوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، قالت فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يابنى ؟ قال :

جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى ، وشقا بطنى ، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ماهو . . قالت : فرجعنا إلى خبائنا . . قالت : وقال لى أبوه .

ياحليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت ماأقدمك ياظئر [١] وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟[٢] .

قالت : فقلت : نعم ، قد بلغ الله بابنى . وقضيت الذى على ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته عليك كما تحبين .

---

(١) الظئر : الناقة الحانية على ولد غيرها ، استعير فى التراكيب العربية لكل مرضعة ترضع ولد غيرها .

(٢) يشير هذا الجزء إلى : أن حليمة كانت قد أرجعت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أمه بعد فطامه وقد بلغ العامين ، ثم أرجعته أمه ثانية إلى حليمة فيكون هناك قدر مشترك بين العلماء فى وقت شق الصدر : انه بعد عودته ثانية إلى حليمة سواء كان فى العام الذى رجع اليها فيه أو العام الرابع راجع ص ١٩٨ أبو شهبة .

قالت : ماهذا شأنك فأصدقيني خبرك ؟

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها .

قالت آمنة : أتخوفت عليه الشيطان ؟

فالت : حليمة — نعم .

قالت : كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل ، وان لابني لشأناً . فلا أخبرك خبره ؟

قالت : بلى .

قلت : رأيت حين حملت به ، أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله مارأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه .

وقع حين ولدته ، وأنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقي راشدة[١] .

من جانبنا نرى أن هذه العملية كانت طبيعية بالنسبة لإعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة ،انه من أجل أن سيكون رسولا كان لازماً أن تنقى ذاته النبوية من التغذية البشرية لتظل تربيته ربانية .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٥ راجع تاريخ الطبرى ج ١ ص ١٦٠ الدلائل البيهقى ج ١ ص ٢٩٥ الوفا ج ١ ص ١١٠ الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٣٦ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ الروض الأنف ج ١ ص ١٠٩ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٤٩ أعلام النبوة للماوردى ص ١٣٤ .

قال فى المواهب اللدنية :

واستخراج العلقة منه تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولية ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره .

وخلقت هذه لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة للخلق الإنسانى ولا بد ، ونزعها كرامة ربانية طرأت بعد فاخراجها بعد خلقها أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية .

قال العلامة السبكى : لو خلق سليما منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر(١) .

ولهذه الخاطرة أسانيد ، وأسانيدها ذاتها . فقد تكررت هذه التنقية فى أوقات توحى ظروفها أن الذات النبوية أو البشرية السوية تستلزم التنقية من مظاهر الصورة البشرية العادية(١) . من تغذية الأرض ولقد كفانى مؤنة جمع هذا التكرار شيخنا العارف بالله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود إذ يقول(٢) :

« وهذا الحادث وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة » .

---

(١) المواهب ج ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية ٤٩ — ٥٣ .
سلسلة البحوث الاسلامية الكتاب الرابع عشر من السنة الثانية .
راجع نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشيخ مؤمن الشبلنجى ص ١٩ .

* لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذا ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان على مايرويه الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرج ، منه علقة فقال :

هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى مرضعته ، أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا .

* فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر فقد روى الإمام[1] أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئاً أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يا رسول الله : ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال :

لقد سألت أبا هريرة . .

---

(١) راجع الرواية فى تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٤ فى سورة الشرح راجع الوفا ج ١ ص ١١٥ راجع مجموع الروايات فى تفسير سورة الشرح من روح المعانى للآلوسى ج ٣٠ ص ١٦٧ . راجع باب المعراج ج ٦ ص ٢٠٣ ارشاد السارى للقسطلانى . الحلبية ج ١ ص ٤٠٦ راجع مسلم ج ١ ص ١٤٧ .

إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى »
وإذا رجل يقول لرجل :

أهو هو ؟

قال : نعم فاستقبلانى بوجوه ، لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها
من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى
أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مساً فقال أحدهما
لصاحبه :

اضجعه ، فأضجعانى بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه :

افلق صدره فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم
ولا وجع ، فقال له :

أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ،
فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز
إبهام رجلى اليمنى فقال : أغد واسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .

ويقول :

بينما كان فى الحطيم أو فى الحجر مضطجعا بين النائم واليقظان أتاه
فشق عن صدره حسبما يروى البخارى ومسلم واستخرج قلبه . . « ثم

أتيت بطست من ذهب مماوءة إيماناً ، فغسل قلبي ثم حشي ، ثم أعيد » . . [١] .

* وكان المعراج فتكرر شق الصدر فعن أبي بن كعب – فيما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

فرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري ثم أطبقه[٢] .

ولا يعنينا هنا – لا في قليل ولا في كثير – أن نجارى الماديين في جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر .

فالأمر أسمى بكثير من المماراة في الشكل والكيف والزمان والمكان .

---

(١) يمكن أن يرجع هذا الجزء في أعلام النبوة للماوردي ص ١٥٣ ، الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ وقد ذكر في المنتخب من السنة ج ١ ص ٦٤ عن دلائل النبوة لأبي نعيم وللدكتور أبو شهبة حديث حول هذا الموضوع راجع كتابة : السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٤ – ٢٠٦ راجع ج ٢ ص ٢٢٠ شرح على القاري على الشفاء .

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ راجع شرح على القاري ج ٢ ص ٢٢٠ راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٨ تخريج المرحوم عبد الباقي .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكاة التى تشعر بضعف الإيمان أكثر ماتشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد[١] الصحيحة ، وروت كتب السيرة[٢] هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة .

وإن من مظاهر هذه العناية ، أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لايكون للشيطان عليه سبيل[٣] .

إن الله سبحانه وتعالى — وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

---

(١) البخارى ج ١ ص ١٨٢ فتح المبدى ط رابعة حلبى ، مسلم ج ١ ص ١٠١ ط أولى حلبى سنة ١٩٦٠ م .

(٢) الوفا ج ١ ص ٢١٩ السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ الخصائص ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٢٩٣ أعلام النبوة ص ١٥٣ كتاب المعراج ص ٣٦ ، ٣٧ تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٤٩ ، ٢٢٥ ، راجع الاسراء والمعراج للدكتور عبد الحليم محمود : سلسلة البحوث الإسلامية ، راجع الشفاء بشرحيه ج ٢ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) راجع فقه السيرة لفضيلة الشيخ محمد الغزالى ٦٣ — ٦٥ .

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس ، والتوبة ، والإخلاص أو بتعبير آخر بشق الصدر ، واستخراج حظ الشيطان منه .

وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه سكينة :

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره وملأوه رأفة ورحمة :

فكان صلوات الله وسلامه عليه رقة على الصغير ورحمة للكبير :

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره فملأوه إيماناً .

ثم شقوا عنه فملأوه حكمة[1] .

إنه صلى الله عليه وسلم يعد ليكون الأسوة الحسنة والمثل الكامل للنقاء والصفاء والرحمة والسمو . إنه سيكون المقياس والدليل والإمام فلابد وأن يتحقق فيه سنام النقاء وذروة الصفاء وغاية السمو . حتى يكون هو وحده المثل .

---

(١) راجع الموضوع بجملته فى ص ٥٤ — ٥٦ الرسول (ص) لمحات من حياته ونفحات من هديه الكتاب الأول من سلسلة البحوث الإسلامية ، راجع الآلوسى ج ٣٠ — ص ١٦٦ ، ١٦٧ تفسير سورة الشرح .

ولقد كانت هذه الإجابة من النبي صلى الله عليه وسلم على سؤال أبي هريرة :

إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر : الرواية اشارة إلى ان تنفيسه بدأت مصاحبة لطفولته وليس ذلك بغريب إذا تصورنا القضايا في جوها المتناسق :

نبوة تصطفى من رب العالمين .

ولقد كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم هو ذروة النقاء والصفاء والسمو ، والسكينة ، والرحمة والإيمان والحكمة .

وصدق الله العلى العظيم : (وإنك لعلى خلق عظيم) ٤ — سورة القلم .

وصدق الرسول الأمين : أدبني ربي فأحسن تأديبي[1] .

---

(١) راجع الجامع الصغير ص ١٢ ج ١ .

على الهامش مع الدكتور هيكل

غير أن شواذا من الكتاب الإسلاميين الذين يستحبون الاستشراق على الذاتية الإسلامية لايستريحون لرواية شق الصدر[١].

يقول الدكتور هيكل باشا :

قصة لايطمئن إليها المستشرقون، ولايطمئن جماعة من المسلمين كذلك الى الملكين هذين . . . ويرونها ضعيفة السند ::

فالذى رأى الرجلين فى رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لايزيد على — سنتين إلا قليلا ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ[٢].

والمستشرقون ومعهم الجماعة من المسلمين الملتفين معهم فى غلالة الشك مخطئون فى الفهم والبحث من عدة جوانب :

الجانب الأول :

زاوية تفهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قبل البعثة وفيما بعدها :

---

(١) راجع نبي الانسانية ص ٢٧٨ — ٢٨٨ .

(٢) حياة محمد ص ١١١ .

الجانب الثانى :

زاوية التحمل التاريخى لرواية الحادثة .

الجانب الثالث :

محاولة تحقيق القصة ولو برواية تتمشى مع الزاوية التى ينبغى أن نفهم منها شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومستوى الرواية فى الحديث .

الجانب الأول
بشر يوحى

أما فيما يتعلق بالجانب الأول : فالمخطئون من جماعة المسلمين ومعهم المستشرقون عندما يدرسون السيرة النبوية العطرة يركزون فى دراساتهم على جانب البشرية البحتة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينتبهون إلى أن هذه البشرية داخلة فى إطار : (يوحى إليه) . فينبغى إذا درس هؤلاء القوم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلاحظوا أقطار الشخصية النبوة الكريمة كلها فى إطار الرسالة والبشرية معا من قبل ومن بعد الابتعاث .

وهذا أمر واضح جداً فى عصرنا الحديث : عصر الإيمان بالتخصص فليس هناك مجال من المجالات يقوم على شأنه مدير غير متخصص ، بل لن يسمح ألبتة بطبيب متخصص فى جراحة العيون أن يقوم باجراء جراحة فى القلب أو فى الأمعاء . مثلا .

بل إن المتخصصين أنفسهم ليتفاوتون فى مجال تخصصهم نتيجة لتفاوت الذكاء والنشاط ، والاستفادة من التدريب ، واستيعاب المعلومات ، والقدرة على دقة تطبيقها .

والنبوة مجال أعظم من كل مجالات الحياة ، وأخطر كثيراً جداً من جميع مجالات التخصص ، فان الأنبياء هم المصطفون من عند الله لتبليغ وحيه وقواعد الحياة التى أرادها الله للإنسان ليحيا عليها .

وبالطبع وحسب مجريات الأمور فى الحياة العادية . لابد وأن يكون للأنبياء حظ وافر من التهيئة والاعداد الربانى قبل الرسالة : والذى يتولى هذه التهيئة والتربية والاعدادهو صاحب الكون والملكوت الذى سينيبهم عن جلاله فى تبليغ أحكامه .

وإذا تواضعنا فى القياس فإن رئيس الدولة يتخير الممثل له الذى سيتحدث باسمه ، ويجرى له تدريبات واختبارات حتى يتحقق من قدرته على النيابة عنه .

فاذا كان الله جل جلاله هو المختار المصطفى وهو فعال لما يريد فكيف يكون الاختيار ؟

وإذا كان هو جل شأنه المربى وهو الذى أتقن كل شىء فكيف تكون التربية ؟

يقول الإمام الماوردى :

فصل : تدرجت إليه أحواله فى النبوة حتى علم أنه نبى مبعوث ورسول مبلغ ، ترتب تدرجه على ستة أحوال نقل فيهن إلى منزلة بعد منزلة حتى بلغ غايتها . . ثم يقول : والمنزلة الثانية ما ميز به عن

سائر الخلق من تقديسه عن الأرجاس ، وتطهيره من الأدناس ليصفو فيصطفى ، ويخلص فيستخلص فيكون ذلك إنذاراً لأمر وتنبيها على العاقبة[1].

ويقول فى موضع آخر :

« ولا منزلة فى العالم أعلى من النبوة التى هى سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق بها أخص وأكملهم بشروطها أحق وأمس ، ولم يكن فى عصر الرسول وما دانى طرفيه من قاربه فى فضله ولا داناه فى كماله خلقا وخلقا ، وقولا وفعلا وبذلك وصفه الله تعالى فى كتابه بقوله :

(وإنك لعلى خلق عظيم)[2].

يروى صاحب السيرة الحلبية :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية إلا مرتين من الدهر ، وكلتاهما عصمنى الله عز وجل منهما[3].

---

(١) اعلام النبوة ص ١٥٢ . (٢) اعلام النبوة ص ١٣٧ .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٧ راجع أعلام النبوة للماوردى ص ١٣٥ — راجع كذلك الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢١٩ .

فالعصمة للنبى صلى الله عليه وسلم طبيعة وجبلة منذ اصطفى وآدم منجدل فى طينته .

إنها له جبلة منذ تعلقت إرادة الله جل شأنه فى الأزل البعيد بأن سيكون محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين رسولا .

وعلى هذا فزاوية الدراسة التى ينبغى أن تلاحظ ، هى أن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم بشرية معصومة منذ طفولتها المبكرة ، منذ وجوده فى الحياة ، منذ ولادته .

ومن الإشارات اللطيفة واللفتات الحسان التى كان يجود بها فضيلة الدكتور محمد بن فتح الله بدران رحمه الله تعالى مايغذى هذا المعنى ، يقول :

لم يقرن القرآن أبدا لمحمد صلى الله عليه وسلم صفة البشرية وحدها بل أفرد له صفات الرسالة وجعلها مقصورة عليه ، وجعله مقصوراً عليها فى مثل قوله سبحانه : (وما محمد إلا رسولا) سورة آل عمران — ١٤٤ .

(إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل) سورة هود — ١٢ .

(ان عليك الا البلاغ) سورة الشورى — ٤٨ .

(ان أنت الا نذير) سورة فاطر — ٢٣ .

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) سورة فاطر — ٢٤ .

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون) سورة سبأ — ٢٨ .

يا صاحبي : وتدبر معى قوله تعالى فى سورة الأحزاب — ٤٠ :

(ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

واتخذ شعارك دائماً من سورة الفتح — ٢٩ قوله سبحانه :

(محمد رسول الله)[1].

فقد وضح أنه من الخطإ البين — وهو الذى بسببه لا يطمئن — المستشرقون وخدنهم من تلاميذهم فى الشرق الإسلامى — أن يتفهموا شخصية الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام إن قبل البعثة وإن بعدها من زاوية البشرية البحتة فقط ويجعلون عقولهم — وهى صغيرة جداً فى ساحة هذا الشرف العظيم — هى المقياس فى إدراك حقائق عليا تخص نبياً شاء الله تعالى له منذ الأزل أن يكون للعالمين نذيرا .

---

(١) الفلسفة الحديثة فى الميزان ص ١٥٧ للمرحوم فضيلة الدكتور محمد بن فتح الله بدران .

ولمولانا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود استفاضات نورانية في عرض منهاج للباحثين الذين يرغبون في تفهم سيرة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول :

بعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم فتمر عليه الآية الكريمة :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى)

يقف عند كلمة « بشر » :

فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً لايتناسب قط مع قوله تعالى :

(يوحى إلى) سورة الكهف — ١١٠ .

بل إنه في اندفاعته الهوجاء ينسى (يوحى الى) ويهملها إهمالا .

وينسى في كل ذلك :

(وما ينطق عن الهوى) ٣ — سورة النجم .

وينسى في كل ذلك :

(يوحى إلى) .

وينسى :

(لست كهيئتكم) .

وينسى :

(لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ٦٣ — سورة النور .

ويستمر فضيلته فى توضيح المسألة فيقول :

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون المبشرون فى العصر الحاضر ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وماكان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر — فى هذه النزعة — وهو : أبوجهل

وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة أو يتابع أبا جهل، وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتها إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنا مضت يتزعمهم فيها أبوجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها .

ثم يحدد الموقف فيقول :

هناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس .

طرف : (بشر) أو (قل : إنما أنا بشر مثلكم) .

وطرف : (يوحى إلى) أو (رسولا) .

وبين الطرفين يتأرجح عدد لايحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا انخفاضا وسموا .

وان مقياس الإيمان : قوة وضعفا .

مقياس درجة الإيمان الذى لايخطىء ، إنما هو ما وقر فى القلب أوغلب عليه من البشرية ، أو من : (يوحى إلى) .

إنهما يمثلان مايوضع فى كفتى ميزان :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم [1]

وإذن فالزاوية التى ينبغى أن يلتزمها الباحثون فى السيرة النبوية هى : بشرية النبي ، البشرية السوية ، البشرية التى رباها ربها بشرية يوحى إلى . حتى لايخطئون وتلك هى الزاوية التى يتجنبها هيكل باشا وجماعة المسلمين الذين معه فى حلقة الاستشراق . . . ولذا فانهم مخطئون .

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هديه ص ١١٧ وما بعدها .

الجانب الثانى
أثر المخيط

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخى ، ومن الذى يتحمل مسئولية الرواية فالذى روى القصة للتاريخ وتحمل تبعتها ليس هو طفل حليمة ، بل حليمة نفسها هى التى روت حادث شق الصدر الأول :

فالتحمل التاريخى لهذه الرواية مرتبط بأخبار السيدة الفاضلة حليمة بنت أبى ذؤيب . وهى لم تتحمل الرواية عن أخبار ولدها الذى جاءها وهو يشتد . بل انتقلت هى وزوجها إلى مكان الحادث : وبنفس الألفاظ التى نقلها ولدها إليها وهو يصور الواقعة أخبرها رضيعها محمد ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم كذلك بنفس التفاصيل التى حملها التاريخ عن حليمة وهى تروى مشاهدتها :

ورواية ابن هشام :

« قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه . . فوجدناه قائماً ممتقعا وجهه قالت : فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له :

مالك يا بنى ؟

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو .

قالت : فرجعنا إلى خبائنا[١] .

ورواية ابن كثير :

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه ، فنجده قائماً ممتقعاً لونه فاعتنقه أبوه :

وقال : يا بنى ما شأنك ؟

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض أضجعانى وشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان[٢].

ورواية ابن الجوزى :

قالت : فخرجت وخرج أبوه نشتد نحوه ، فانتهينا إليه وهو نائم[٣] ممتقع لونه فاعتنقه أبوه واعتنقته ، وقال : مالك يا بنى ؟

قال : أتانى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى[٤] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣) هكذا فى ص ١١٠ ولعلها خطأ مطبعى وأصلها قائم أو حال أخرى فى هذه الرواية .

(٤) الوفا ج ١ ص ١١٠ .

ورواية السيوطى :

فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه ، فنجده قائماً منتقعا لونه فاعتنقه ابوه وقال : أى بنى ما شأنك ؟

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب فأضجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان[١] .

ورواية الماوردى :

فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائماً قد انتقع لونه ، فلما رآنا أجهش إلينا باكيا ، قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له : مالك ؟

فقال : « جاءنى رجلان فأضجعانى فشقا بطنى[٢] » .

ورواية الإمام مسلم : حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى ظئره فقالوا : إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره[٣] .

---

(١) الخصائص ج ١ ص ١٣٦ . (٢) اعلام النبوة للماوردى ص ١٣٤ .

(٣) مسلم باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٢١٦ — ٢١٨ المطبعة المصرية . راجع طبعة الأستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى ج ١ ص ١٤٧ .

فالمتحدث فى هذه الروايات هو حليمة ، يعنى المتحمل تاريخياً رواية شق الصدر الأولى هى حليمة ، غاية ما هنالك انها تلقت الخبر أولا من طفلها . لكنها لم تتحمل منه الرواية بل انتقلت إلى مكان الحادث فلقد اتفقت الروايات على افادة أن حليمة وزوجها قد انتقلا إلى مكان محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم سمعت القصة من غلامها الذى وقع به الفعل وأن أول دليل على صدق الحادثة انها تمت فى جوها الطبيعى .

وجوها الطبيعى :

انفعال وليدها الصغير ورعبه من هول الحادث فى زمن ليس للطب الجراحى فيه اسم ولا يمكن إدراكه لطفل من حيث رؤيته فجاءه .

ثم انتقال حليمة بناء على أخبارها ومشاهدتها امتقاع لون وليدها الرضيع منها .

ولا يمكن أن تصدر الحادثة عن غير هذا الجو ، صحيح أن الوليد صغير ولكن صحة الرواية وصدقها لا يرتبط فى مثل هذه الأمور التى لا يراها إلا الأطفال وبحسب العادة فى رعاية البهم أنها لاتكون إلا عن طريق الغلمان فهم الحاضرون والمشاهدون للواقعة .

والطفل فى البادية أصدق لسانا وأصفى وجدانا وأكثر ذكاء . وألمع قريحة فى التعبير عن مشاهداته وانفعالاته .

وحول هذا يقول هيكل نفسه :

ويجد هو فى الصحراء وخشونة عيش البادية مايسرع به إلى النمو ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه[١].

حتى لو يعترف هو بهذا ، فإن ابن كثير يقول :

فكان يشب شبابا لا تشبه الغلمان فوالله مابلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا [٢].

ويقول ابن الجوزى :

قالت : وكان يشب فى اليوم شباب الصبى فى الشهر ، ويشب فى الشهر شباب الصبى فى السنة ، قالت : فبلغ سنتين وهو غلام جفر [٣] .

فإذا ما رأى الطفل مشهداً مرعباً فانفعل واشتد نحو أمه . وحضرت وسمعت من غلامها الرضيع فإنما تسمع من غلام جفر له كمال التكوين وسلامة العقل وصدق الإحساس ، ودقة التعبير عنه ولقد كان تعبيره صادقاً ، وكان التحمل صحيحاً . وكان الطريق إليه طبيعياً فاذا ما انضم إلى هذا خوف حليمة على ولدها وتقريرها هى وزوجها ارجاعه إلى أمه ، ثم استفسار أمه عن سبب ارجاعه وقد كانت حليمة أشد تمسكا ببقائه ، وأخبار حليمة أمه بما حدث . . . الخ ، يفيد أن الذى روى

---

(١) حياة محمد ص ١١٠ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) الوفا ج ١ ص ١٠٩ راجع كذلك شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٤٨ للزرقانى ط أولى سنة ١٣٢٥ هـ . الأزهرية المصرية .

الحادثة للتاريخ هى حليمة وأن طريق التحمل كان غاية فى الدقة لأنه طريق التحمل الطبيعى .

على أن المسألة أخيراً قد انتقلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الإمام مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى ظئره . . . فقالوا : ان محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره[1] .

فاذا ما كانت المسألة قد وصلت إلى أخبار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتقلت إلى مرتبة الإلزام والقبول وإلا كان المدخل فى العقيدة الطعن فى مستوى العقل إذ لا يمنع من مثل هذه الحادثة فى عصر أصبح شق الصدر دون إحساس أو آلام أمراً مكرراً مألوفا .

وإذن فمن رفض قبول الرواية ، أوشك فيها فقد انتحل مذهب الجاهلية ، وأفسد عقله بانحراف منه هو . ومن قبلها فقد احترم عقله وصان دينه وما يعقلها إلا العالمون .

(١) مسلم ج ٢ ص ٢١٦ شرح الامام النووى ، راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٧ اخراج عبد الباقى .

الجانب الثالث

كراع حول الحمى

أما فيما يتعلق بالجانب الثالث ، محاولة تحقيق القصة بما يتمشى مع الزاوية الطبيعية التى ينبغى أن تتخذ أسوة فى تفهم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى (بشر يوحى إلى) . ومقدار درجة الروايات من وجهة مقياس الحديث :

فإن هؤلاء الذين لا يطمئون لهذه الحادثة لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن رواية تحسن عندهم وتتفق مع الجو الإسلامى لصدق القصة بل اقتصروا على ماعندهم من ظن عقلى لا يغنى من الحق شيئا ، ورفضوا الأسانيد وعللوا الرفض بأنها ضعيفة .

وكان يمكن التسليم بهذا الأمر لو لم تتكرر الحادثة ولو لم يروها أحد الكتب الصحاح التى تعتبر ذخيرة الأمة الاسلامية ، للنصف الثانى من أساسيات التشريع الاسلامى وهو : السُنّةُ المطهرة .

أما وقد تكررت الحادثة على نحو ما عالجته فى صدر هذا الحديث .

وأما وقد رواها الأئمة البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل وابن هشام ، وابن كثير وابن الجوزى والبيهقى ، والماوردى والسيوطى

والقشيرى :[1] وأبو نعيم وكلها طرق يقوى بعضها بعضا . وليس فى إحدى الروايات وضع يفسد أو يشوش على الروايات الأخرى :

فإن القضية لا تحتمل التضعيف أو التشكيل أو الشك بقدر ما تحتمل التوثيق ، والقبول ، والاعتراف وإذا كان الذين لا يرضون قصة شق الصدر — ولا يقبلونها من جماعة المستشرقين ولفائف مجتمعهم من الذين لا يجيدون إدراك المناقشة فى علوم الحديث ، فإنى أضع فى مجابتهم عالما متخصصا فى الحديث وعلومه والتفسير وعلومه ليكون الرد على شكوك غير المتخصصين بأدلة من المتخصصين الكبار.

يقول فضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة :

أما قول البعض ، إن هذه القصة ضعيفة السند فنقد مجمل ،وكنا نحب من الناقد أو المنكر وقد تعرض لانكار أمر يقره جمهرة المسلمين وفيهم أئمة كبار لهم بعد بالنقد والتعديل والتجريح للرواة أن ينقد سند القصة نقداً تفصيلياً ؟

---

(١) راجع كتاب : المعراج لأبى القاسم القشيرى ص ٢٨ ، ٢٩ ، وقد سبق أن رمزنا للروايات الأخرى . راجع القسطلانى ج ٦ ص ٢٠٣ ط السابعة بولاق الأميرية ١٣٢٥ هـ ، راجع شرح المواهب اللدنية للزرقانى ص ٢٢٥ ج ١ — الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ ، المطبعة الأزهرية المصرية ، راجع فتح البارى ج ٨ ص٢٠١ — ٢٠٥ .

أما وقد أتى به نقداً مجملا فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند هذه القصة ، وقد سمعت آنفاً [١] أن القصة رواها الإمام مسلم فى صحيحه، وإن كانت مجملة وأن أسانيد القصة إن لم تكن صحيحة فهى حسنة وجيدة وتصلح للاحتجاج بها ، بل قصة الشق ليلة الاسراء والمعراج مروية فى الصحيحين —[٢] وغيرهما من كتب الحديث .

بل قال بعض العلماء المحققين أنها متواترة ، قال الحافظ ابن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكراره (وجميع ماورد من شق الصدر واستخراج القلب . وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك[٣] .

وقال القرطبى فى « المفهم » لايلتفت لانكار الشق ليلة الإسراء والمعراج لأن رواته ثقات مشاهير .

وطبيعى أن من صدق به ليلة الإسراء والمعراج يلزمه التصديق به فى الصغير وعند البعثة مادام الأمران ثابتان بالروايات التى يحتج بها .

---

(١) راجع السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) فى البخارى باب كيف فرضت الصلاة ، كتاب التوحيد باب المعراج فى كتاب الفضائل وفى مسلم باب الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ١٠١ ط أولى حلبى .

(٣) فتح البارى ج ٨ ص ٢٠٣ حلبى ١٣٧٨ هـ . ١٩٥٩ م .

أما ما قيل : من أن ابن إسحاق رواها مرسلة عن رجل لم يسم من الصحابة فلا ينهض الطعن إذ المعروف فى قواعد « أصول الحديث » أن الصحابة عدول فلا تضر جهالة الصحابى[1] أ . هـ .

* ومما قاله ابن حجر رحمه الله تعالى :

رجح عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة وتعقبه السهيلى بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب : ومحصله .

أن الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة التى قيل له عندها : « هذا حظ الشيطان منك » .

والشق الثانى كان لاستعداده للتلقى الحاصل له فى تلك الليلة .

وقد روى الطيالسى والحارث من حديث عائشة أن الشق وقع مرة أخرى عند مجىء جبريل له بالوحى فى غار حراء والله أعلم ومناسبته ظاهرة .

وروى الشق أيضا وهو ابن عشر أو نحوها فى قصة له مع عبد المطلب أخرجها أبو نعيم فى الدلائل .

وروى مرة أخرى خامسة . .[2] .

---

(١) راجع كتاب السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٢) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص١٥٣ ط أولى ١٣٢٥ هـ .

* ومن روايات البخارى رضى الله تعالى عنه :

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى سليمان عن شريك بن عبدالله أنه قال ، سمعت ابن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاء ثلاثة نفر وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل ، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور محشوا إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده — يعنى عروق حلقه — ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء . . الحديث [١] .

* وفى تفسير روح المعانى لعمدة المدققين مفتى بغداد أبى الفضل شهاب الدين السيد محمد الآلوسى : أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا أنا فى الحجر — وفى رواية فى الحطيم — بين

---

(١) صحيح البخارى كتاب التوحيد .

النائم واليقظان إذ آتاني آت فشق مابين هذه فاستخرج قلبي فغسله ثم أعيد ثم أتيت بدابة . . الحديث[١] .

ومن روايات البخاري أيضا عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا[٢] .

وإذن :

أفلا يكون — في أقل تقدير — هؤلاء العلماء ، ابن هشام ، والآلوسي وابن كثير ، وابن الجوزي ، وأبو نعيم ، والماوردي ، والسيوطي ، والبيهقي وابن حجر والقرطبي ، والقشيري . . . الخ . أقرب إلى التصديق من ادعاءات السير وليم موير ، ودر منجم ؟

أفلا يكون مسلم والبخاري أقرب إلى الصواب من هيكل باشا ؟

وهل المحدثون من كتاب التاريخ الإسلامي ذو غيرة ودراية بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم أكثر وأصدق من المتقدمين . ؟

---

(١) روح المعاني ج ١٥ ص ٤ — ٥ إدارة الطباعة .

(٢) صحيح البخاري باب كيف فرضت الصلاة . .

ولنفرض ذلك جدلا . . . فهل سلوك المحدثين وتغذيتهم وأجواؤهم الاجتماعية تؤهلهم ليكونوا أكثر صدقاً وغيرة على مصادر قصة شق الصدر عن الورعين الطاهرين المخلصين السابقين من علمائنا الأجلاء ؟

إن طريق الرواية وتعدد رواتها ، وكثرة رواتها من كبار العلماء والجو الاجتماعى الذى عاشوا فيه ليؤهلهم للثقة غير المحدودة ، ويوجب بالإلزام الخلقى والعلمى أن تكون مقالتهم هى الصدق .

ومن خالفهم فقد تجرأ على حمى من حمى الدين يوشك أن يواقعه .

ثالثا : اليتم والشخصية

تعتبر التنشئة الاجتماعية قديماً وحديثاً هى المقوم الأساسى لشخصية الفرد والجماعة .

إنها فى أبسط تصوراتها :

نقل خصائص البيئة إلى الجيل القادم ليحمل عن آبائه مقومات الأسرة ضمانا لاستمرارها على مواريث الآباء .

وكذلك شأن الدول :

والتنشئة الاجتماعية فى العصر الحديث أخذت نصيباً كبيراً من جهود الحكومات ، خاصة تلك الدول ذات المذهب المعين ، ولقد تفنن المسئولون فى تطوير وسائل التنشئة الاجتماعية من المدرسة ، والجامعة ، ودور الثقافة ، والمتاحف ، والتلفزيون والإذاعة ، والمسارح ، والمعارض ، وصالات السينما ، والندوة والتنظيم والنشرة .

وبات العلماء الاجتماعيون فى كل دولة حديثة يبحثون مشاكل التنشئة الاجتماعية وتطوير وسائلها . والتخطيط إليها . وانتخاب وتدريب القائمين على تنفيذها وذلك بالمحافظة على سلامة تنفيذ التنشئة الاجتماعية حتى لا تتخلف أهدافها المرسومة .

وذلك كله من أجل حصر عقول الجيل القادم فى سور ثقافى معين يكون دافعاً للسلوك المرجو تحقيقه مستقبلا : ولقد أجهد هذا النشاط المسئولين عن التنشئة الاجتماعية فى عدة مجالات أخصها :

مجال البحث فى تطوير آلا ت التنشئة الاجتماعية :

ومجال متابعة تنفيذ الخطة :

ومراقبة نتائجها :

وكل ذلك من أجل تخريج جيل له فقه خاص لسلوك خاص :

فهل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحظ ليكون رائدا لبناء فقه اجتماعى جديد لأمة العرب ؟ بل العالم كله ؟

أكانت المعايير والثقافة فى الحياة العربية بل فى العالم كله يومها لها من الصلاحية والتوافق بحيث تنتج للعالم رائدا يشرع ويضمن للحياتين : الدنيا والآخرة عيشاً رفيعاً ؟ بدون تحرج ولا حاجة إلى دليل .

إن الجواب : لا

فإذا أضيف إلى هذا أن علم النفس وهو مفخرة الباحثين فى هذا المجال يقرر :

أن الذكاء رغم أنه قدرة فطرية فإن عوامل البيئة تلعب دورا هاما فى إثارة هذه القدرة إيجاباً وسلباً ومن هذه العوامل :

١ — الحالة الصحية ، والاقتصادية ، والثقافية للأسرة :

٢ ــ الرفاق وأثرهم :

٣ ــ التعليم المدرسي :

وقد يحدث في بعض الحالات : أن يولد الطفل مزودا بقسط كبير من الذكاء إلا أن ظروفه البيئية تحول بينه وبين الذهاب إلى المدرسة ليتعلم العلوم ويكتسب الخبرات ومن ثم : لم يتح لهذه القوة الفطرية الظهور بالشكل المفروض أن تظهر به لو اختلفت هذه الظروف [١] :

ويقول علماء التربية :

إن الطفل الذي ينشأ في أسرة مفككة ، دب الشقاق بين أطرافها يضطرب اتزانه الانفعالي .

والطفل الذي يعيش في ظلال أسرة فقيرة ليست لديها وسائل التعليم والثقافة يفقد فرصاً كثيرة من المعرفة اللازمة لحياته [٢] .

ويقولون :

إن من عوامل التربية المصاحبة : حال الوالدين :

فإذا لم يكونا على جانب من الثقافة فقد الطفل فرصا كبيرة للتثقيف بله الأثر السيء الذي قد ينعكس عليه من والديه ، نتيجة عدم معرفتهما لطبيعة مراحل نموه [٣] .

---

(١) سيكولوجية الطفولة والمراهقة للدكتور مصطفى فهمي ١٧٥ – ١٨٠ .

(٢) أساسيات التربية ص ٢٢ – ٤٤ دكتور ابراهيم شهاب .

(٣) أساسيات التربية ص ٢٢ – ٢٤ .

وقالوا أيضاً :

إن خروج المرأة للعمل : أدى إلى انتقال جزء من الوظيفة التربوية للأسرة إلى مدارس الحضانة أو إلى الخدم ، ولما كانت مدارس الحضانة قليلة الشيوع فالنتيجة الحتمية أن تترك طفلها للخادم ، الأمر الذى له أسوأ الأثر على النمو النفسى للطفل .

فالأم أكثر حساسية لمطلب طفلها ، وأكثر استجابة لهذا المطلب وأكثر سرعة فى الاستجابة إليه .

بل إن الجو المشبع بالحنان الذى ينشره وجود الأم حول طفلها يشعره بالأمن والسعادة مما يساعد على نمو الطفل نموا متكاملا سليما :
أما ترك الطفل تحت إشراف الخدم فإن له أثراً سيئاً عليه[1] :

ثم يستنتجون :

ومن هنا كان لزاما على الأم أن تشرف إشرافاً دقيقاً على تربية طفلها ، ولهذا نجد أن تثقيف الأم من الضرورة بمكان [2] .

هذه هى القواعد النفسية والتربوية التى قالها العلماء المتخصصون فى هذين الفنين كمقاييس أو معايير لحياة الإنسان العادى .

إنه يحتاج فى تكوينه النفسى والتعليمى إلى شروط عدة لكى يكون إنساناً مثقفاً ، لا أن يكون زعيما أو مصلحاً .

---

(١) ، (٢) أساسيات التربية ص ٢٥ — ٢٦ دكتور ابراهيم شهاب .

فإذا قسنا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الموازين فما تكون هذه الموازين بالنسبة إليه ؟

لن يكون يتمه سبباً فى اضطراب نمو ثقافى أو وجدانى له ، ولن يكون الفقر معطلا لما أودع فيه من الذكاء الفذ :

إنه فوق كل موازين علم النفس والتربية . فقد كان يتيما وفقيرا ، ولكنه كان بشهادة التاريخ الواقعى الطويل كان أعظم رجل فى الوجود كله .

ما كان فى مجتمعه العربى ذا ثروة تحييه عيشاً رغيداً وكان محمد عليه الصلاة والسلام أعلاهم ذكاء ، وأرهفهم حساً ، وأصدقهم وجدانا ، وأعفهم خاطرا ، وأكيسهم حلماً ، وأعظمهم عقلا .

وكان هو الصادق الأمين حسبما خلع عليه المجتمع له هذا الولاء وتلك الثقة .

وإذن :

فما قيمة كل النظريات النفسية والتربوية فى جانبها البشرى إذا دنت من روضة النبوة التى أحيطت بالعلم اللدنى : (فإنك بأعيننا) ؟

لقد نشأ وهو صغير فى يتم . بعيداً عن أمه ، وبعيداً عن أبيه بعداً لا يمكن له معه فى الحياة لقاء . وغاية ما يمكن أن يقدمه السلوك الاجتماعى فى أى عصر مهما كان المجتمع راقياً وحنوناً لا يعدو أن يكون

محافظا على جسده ليكفل لنفسه فى المستقبل لقمة عيش يقى بها المجتمع ما قد يظن فيه من انحراف لو شب عاطلا محروماً . . . !!

أما أن يعد اليتيم أو يؤهل عن طريق المجتمع ليكون فى المستقبل رائد أمة ، أو مصلح جيل ، فذلك ما تبخل به ظروف المجتمع وتشح به كل النفوس فيه ، فإن الرياسة والشرف حوافز تنافس تورث بين الناس أضغاناً ، فإذا ما ذكر يتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم توارث علوم النفس والتربية والاجتماع .

تتوارى كل القواعد البشرية ، وتتلاشى كل التخصصات الإنسانية البشرية وتنهار كل النظريات الفكرية . فإنها عرجاء فى ساحة المدخل الذى يوصل إلى روضة النبى العظيم محمد بن عبد الله فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

لقد كان يتمه لازماً : فلم يكن رجل واحد من الناس يعيش لإصلاح تنشئة خاصة :

لم يكن رجل المستقبل لحماية تنشئة اجتماعية عربية : أو فارسية أو شرقية أو غربية أو بشرية على الإطلاق : جغرافية أو جنسية أو قومية أو وطنية .

لقد كان رجل المستقبل للعالم كله لتوصيل تنشئة عالمية ربانية بديلة تنشئة البشر ، وهى ذات أصول من عند الله رب الناس ملك الناس ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

وإذن فمن يكون له أستاذ ؟

أمه ؟

أبوه ؟

لا . : لن يكونا :

ومن هنا كان اليتم له تهيئة وإعدادا من أجل انه سيكون للعالمين رسولا .

وتنتقل كفالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلى جده عبد المطلب وهو شيخ وقور مجرب حكيم . فأعز محمدا لأنه ولد عبد الله الذى ارتحل عنه وفى شرخ صباه : حلوا ، فتيًّا ، جذعا :

لقد ارتفع الجد العظيم بحفيده العظيم فوق حدود الفقه الاجتماعى الذى تموج به التقاليد فى المجتمع العربى آنذاك .

فكان يجلسه على فراشه الخاص به الذى كان يعد له عند الكعبة المشرفة .

وكانت التقاليد لا تسمح بهذا : : ولذا كان بعض أعمامه يحاول أن يمنعه من الجلوس فيقول الجد الحكيم عبد المطلب « دعوا ابنى ، إن له لشأناً » ثم يجلسه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع [1] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٦٨ الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٢٠ ١٣٠ راجع السيرة لابن كثير ج١ص٢٤٠ راجع الخصائص الكبرى ج ١ ص٢٠١ .

إنه يسره ما يراه يصنع ، ولا يقترح عليه سلوكاً . ولا يلقنه شيئاً من ثقافة القوم ، لم تكن كفالة هذا الجد العظيم وهو بحفيده ودود رءوف إلا أنه :

١ — يجلسه على فراشه الخاص به :

فيخالف بهذا التصرف التقاليد الاجتماعية . فكأن عمله هذا إرهاصاً بأن حفيده سيبعث لقلب نظام التقاليد الاجتماعية .

٢ — ويسره مايراه من محمد عليه الصلاة والسلام فهو يتقبل أفعاله ، ولا يعرض عليه شيئاً ما من نماذج أفعال المجتمع :

لقد ارتفع عبد المطلب بحفيده وهو فى طفولته المبكرة فوق أقطار الثقافة الاجتماعية وتنبأ له بأن له شأنا :

ثم ينتقل عبد المطلب إلى جوار ربه وقد أوصى به عمه أبا طالب خيرا :

يقول ابن كثير :

فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته[1] :

ويقول ابن الجوزى :

قالوا : لما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته[2] :

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) الوفا لابن الجوزى ج ١ ص ١٢٠ .

ولقد كان عبد المطلب يوصى أم أيمن :

يا بركة لا تغفلى عنه ، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة [1] ».

انتقل محمد عليه الصلاة والسلام إلى عمه أبى طالب وهو له هذه المنزلة أنه مسيج بدثار البشرية السوية التى عليها تربى لدنيا : فهو على صلة بالحياة من حواليه لكنه غير مغامس لها كل المغامسة فيحياها بعواطفه ، وهو غير جاهل بها فيغفل عنها كل الغفلة فيترفع عليها[2] :

لقد كان فيها كما تكون المعادن النفيسة مع ما دونها فى علبة واحدة يتم بينها الاتصال دون تنافر أو تمازج .

يقول الأستاذ محمد جاد المولى :

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى نشأته جارياً على المألوف فى الصبيان من تأثر عقولهم ونفوسهم بما يرون ويسمعون ويحسون فى بيئتهم ، ولو جرى الأمر على ذلك لشارك — حاشاه — قومه فى تعظيم الأصنام وعبادتها ، ولانغمس عصمه الله فى ضلالات الوثنية وأوهامها ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس من جميل الصفات وحميد الخصال [3] .

---

(١) المرجع السالف والطبقات ج ١ ص ١١٨ .

(٢) راجع هذا المعنى ص ٧٧ وما بعدها   الظاهرة القرآنية مالك بن نبى .

(٣) محمد المثل الكامل ص ١٢ راجع الوفا ج ١ ص ١٣٩ .

ولقد قال لبحيرا : لا تسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما [١] .

يقول ابن الجوزى :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت إليها ، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها ويعيبها [٢] .

ويروى الإمام السيوطى :

أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كان بوانه صنما يحضره قريش يوما فى السنة وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى . . حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . وجعلن يقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً ؟ فلم يزالوا به حتى ذهب . فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً . فقلن عماته . . .

---

(١) السيرة لابن هشام ص ١٨٢ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٣٨ .

ما دهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لمم ؟ فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ؟ فما الذى رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي :

وراءك يا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ [١] :

قال ابن كثير :

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى : : حتى سماه قومه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة فكان أبو طالب يحفظه ويحوطه وينصره ويعضده حتى مات [٢] .

هكذا هيأ الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وكفى فى ذلك قوله تعالى :

(ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى) ٦ - ٨ الضحى . :

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٤٩ .

وفى هذا يقول قاضى القضاة عبد الجبار الهمذانى :

« فتأمل ما فى هذا ، فإنه صلى الله عليه وسلم ما عرف العز بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه فإن أباه مات وهو حمل ، وماتت أمه وهو رضيع فآواه الله أكرم إيواء ، فلما كمل أتاه النبوة » : وكان امر الله مفعولا [1] .

---

(١) تثبت دلائل النبوة لقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذانى ٤١٥ ﻫ ، تحقيق د : عبد الكريم عثمان ج ١ ص ٨٥ ط دار العربية ببيروت ، راجع شرح على القارى للشفاء ص ٢١٠ – ٢١١ ج ١ ط الأزهرية ١٣٢٥ ﻫ .

رابعا : رعى الغنم ... والتدريب السياسى

علم إدارة الأعمال ووظائفها وتدريب القيادة ومستوياتها أخذ فى العصر الحديث لوناً خاصا من الأهمية والانتباه الكبير ، والتفنن « والحذلقة » فى التدريب من حيث : النظرية والتطبيق وذلك نتيجة الصعوبات التى تواجه الحكومات فى إدارة الأعمال ، ونتيجة كذلك لظروف التخلف الوجدانى عن الصفاء النفسى فى إدراك وحدة الجماعة وأحقية عيشها فى مستوى يصل فيه الحق إلى صاحبه دون معاناة أو وساطة : ونتيجة كذلك للتخلف السياسى فى فهم مدلول السلطة : : تلك الحالة التى منى بها الوسط السياسى للدول النامية :

ولقد كان من نتائج ذلك كله أن صار كل ميدان يخدم المجتمع أو يلتحم به المجتمع أو فيه حاجة إلى تخطيط أو رسم سياسة وتدريب .. الخ؛

كان ذلك كله من أجل أن يسوس الإنسان أخاه الإنسان . وهى فى الواقع قضية غاية فى الصعوبة وغاية فى الدقة ، إذ البشرية تسوس البشرية ، والنفوس الإنسانيـــة تسوسها النفوس الإنسانية والمشاعر تسوس المشاعر ، والحال أن الكل فى حق الحياة سواء : فلماذا هذه تسوس وتلك تساس ؟ .

ولذا فقد كانت عملية الإدارة من أهم الوظائف وأصعبها ، ومازالت حتى عصرنا هذا تعانى أزمة فى جميع نواحيها مع كمال الإدراك بما تعانيه . إن فى مجال التقنين وإن فى مجال التطبيق ؟

وعلة ذلك أن ميدان الإدارة يفتقد عنصر الحساسية الاجتماعية كعاطفة خلقية تدفع إلى الشعور بحتمية توصيل الحقوق إلى أهلها ، أو كعاطفة خلقية تكثر فى النفس الرغبة فى حب الخير وايصاله إلى الناس ومن أوليات هذه العاطفة .

الصبر والرضا واحترام ظروف الغير وتلك العناصر مجالها فى الفرصة التى يمنحها الجو الاجتماعى بما فيه من خليقة شريفة وعمل يربى هذه العاطفة وذلك القدر هو فى شأن البشرية العادية ؟

أما البشرية السوية بما هيىء لها من الجبلة والهيولى النورانية فانها مع براءتها من الاحتياج إلى مثل هذا الجو فقد بزت فى سبق غير مدرك جميع أجيال الفن الإدارى ؟

لقد كانت الصحراء أجود بيئة ، وخير وسيلة للتمرس القيادى الذى يورث الصبر ، والرضا واحترام ظروف الغير .

فى الحياة العادية يضيق الإنسان ذرعاً بفصل فى مدرسة أو بمتابعة قسم فى مصنع ، وقد ينوء المشرف الاجتماعى بأثقال الشكاوى ولا يجد لها حلا ، وقد يعجز السياسى الداهية : : وكثيراً ما تكون الأهواء مطايا الفشل تحت ستار الحذق والتخصص .

فكيف إذا ما أدار العاقل الحيوان وساس البهيمة فى صحراء شاسعة حدودها آفاقها البعيدة وأبوابها منافذها المترامية الأطراف ، تشرد هذه وتجرى تلك ، وتتخلف واحدة ، وتسبق أخرى : يتصارعان ، أو يتناطحان ، أو يهرولان ، ليس للنصح قيمة :

ولا للتهور عليهن مغزى :

فكيف تكون صفة الصبر التى يتمرس بها راعى الغنم ؟

وكيف يكون رضاه بعمله : وكيف يكون احترامه لظروف الغير ؟

وفى العادة البشرية قد يضيق الرجل بطفله إن أكثر من البكاء وأزعج ليله :

فكيف بالراعى مع غنمه يجمعها من تشردها ، ويحميها فى تحركها ذهاباً وإياباً : فى الغدوة والروحة ، عند الشروق ، ومع الغروب : ويدلها على الطريق ويختار لها الكلأ ويحاول أن يقيها شر العوادى : لا يمنعه من خدمتها شرودها أو مروقها أو عصيانها .

بل إنه ليدرك أن الغضب عليها سوء فى الرعاية ، والضرر بها ليس من كرم الإدارة .

إنه لها أنيس ، وعليها أمين ، فهو بها رفيق ولها رائد : . هنا تظهر للحق فى كل جانب من الحياة حكمة التمرس النبوى برعى الغنم :

لقد رعى كل نبي الغنم ، روى الصحابي الجليل أبو هريرة رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مابعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم ؟

قال له أصحابه : وأنت يارسول الله؟

قال : وأنا ، رعيتها لأهل مكة بالقراريط .[1]

يقول ابن الجوزى :

عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

مابعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم ، قال أصحابه : وأنت؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة .

انفرد بإخراجه البخارى[2] .

يقول صاحب الروض الأنف :

وإنما جعل الله هذا فى الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ولتكون أممهم رعاياهم[3] .

---

(١) القراريط : أجزاء من الدراهم أو الدنانير ، وقيل : هى اسم لموضع ، راجع دلائل النبوة لأبى نعيم ج ١ ص ٥٥ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ١٥٠ فتح البارى البخارى ج ٥ ص ٣٤٧ الوفا ج ١ ص ١٤٢ هامش .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٤٢ ، البخارى باب رعى الغنم على قراريط ، ابن كثير ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) الروض الأنف ج ١ ص ١١٢ راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٥ وما بعدها .

قال ابن عقيل : لما كان الراعي يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر للمداراة وكان الأنبياء معدين لاصلاح الأمم حسن هذا فى حقهم »[1] .

لقد كان رعى الغنم مجال تدريب وإعداد للأنبياء على الإدارة وحسن رعاية الأحوال ، وأنه لتمرس فى أجود مجالات التدريب وأصدقها صقلا لتربية عاطفة حب الخير من غير انحراف بالعاطفة الخاصة وأنه كذلك لأجود مجال لاكتساب خبرات أساسية فى القيادة : الصبر ، والرضا ، واحترام ظروف الغير .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه الله له راعياً للغنم :

فى البخارى حديث عن أحمد بن محمد المكى عن عمرو بن يحيي عن جده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

مابعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال له أصحابه ، وأنت ؟ ، فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة [2]

لقد كان رعى الغنم فى مرحلتين من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الأولى : وهو صغير فى بنى سعد .

---

(١) الوفا ج ١ ص ١٤٢ .

(٢) البخارى ج ٥ ص ٣٤٨ راجع الروض الأنف ج ١ ص ١١٢ ، دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٣٦ .

الثانية : وهو شاب فى مكة .

والأخيرة هى التى يشير إليها حديث البخارى .

لقد كان رعى الغنم — كما شاءه الله تعالى — واحداً من ألوان التهيئة التى أعد الله بها نبيه من أجل أن سيكون للعالمين رسولا تشمل عاطفته الرحيمة : الحيوان[1] والإنسان ، وكل ذى نفس رطبة ؟

وذلك واحداً من مدلولات صفته العالمية .

(وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) ١٠٧ — الأنبياء .

السوية والعصمة

فى ظلال تلك النفحات الرفيعة التى أعد الله بها حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم يتحدد مفهوم « البشرية السوية » التى تميز بها النبى عليه الصلاة والسلام .

فقد رأينا أن اليتم لم يكن له مضياعا على عكس مستوى البشرية العادية فى هذه الحالة :

وماكان رعى الغنم له مهنة بل كان تمرسا وتدريبا على عالمية نشأة ربانية المصدر سيلغى بها محمد الأمين صلى الله عليه وسلم جميع مفاهيم

(١) فى الحديث : دخلت امرأة النار فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض ، الفتح الكبير للسيوطى ج ١ ص ١١٠ .

التمشئات الاجتماعية القومية والوطنية والجنسية ... الخ ، ليكون الإنسان فى هذه الدنيا عبدا لله وحده .

فى تلك الظلال من التهيئة الربانية تتضح للباحثين مدلولات : السوية التى خص الله بها نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، إنها « بشرية النبي » التى خلقه الله عليها وأعده بتعليم من لدنه ليكون للعالمين نذيراً .

إنها بشرية مجردة عن القابلية لأى فعل غير مرضى عنه من الله تبارك وتعالى[1] .

انها بشرية مهيأة لكل كمال ، وليست محتوية على أدنى عنصر يمكنه أن يستقبل أدنى نوع يتجافى مع الكمال الذى هيئت له البشرية السوية .

يؤازر هذا المعنى ماجاء فى البخارى وابن هشام :

« لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان الحجارة فقال عباس للنبي صلى الله عليه وسلم ، اجعل إزارك على

---

(١) راجع حاشية الشيخ عبد الله الشرقاوى على شرح الهدهدى ص ١١١ ط الحلبى .

رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت[1] عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال :

إزارى ، إزارى . . . فشد عليه إزاره .[2]

السلوك العادى فى مثل هذه الحالة هو كشف العورة . . . ولا ملامة فيها ولا مؤاخذة عليه فذلك هو ما سلكه حاملو الأحجار ، ومعهم العباس . إنه سلوك متفق مع طبيعة البشرية العادية .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فإن بشريته من طراز خاص إنها البشرية المعصومة بشرية النبى . . . وهى بهذا لا يجوز أن تتناول سلوكا عاديا مثلما يفعله أصحاب البشرية العادية .

يقول السهيلى :

إنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه نودى من السماء : أن اشدد عليك إزارك يامحمد .

يقول ابن هشام راوياً مثل هذه الحالة :

لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب به

---

(١) ، (٢) راجع البخارى باب كراهية التعرى فى الصلاة ، فتح البارى لابن حجر ج ٢ ص ٢٠ ، راجع السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ تحقيق شلبى ، والسقا ، والأبيارى ، راجع السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ ، راجع فتح البارى ج ٨ ص ١٤٦ باب بنيان الكعبة ، الحلبية ج ١ ص ١٤٥ . المواهب ج ١ ص ٢٠٥ .

الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ ازاره فجعل على رقبته يحمل عليه الحجارة ، فانى لأقبل معهم كذلك واذبر إذ لكمنى لاكم ماأراها لكمة وجيعة ، ثم قال :

شد عليك ازارك قال :

فأخذته وشددته على[1] .

وفى رواية ابن سعد أول شيء رأى النبى صلى الله عليه وسلم من النبوة أن قيل له استتر وهو غلام[2] .

إن اليتم ، ورعى الغنم وستر العورة . . . كلها أنماط من التربية الالهية التى اختص الله بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول ابن هشام :

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى يكاؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مرءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨٣ دلائل النبوة للبيهق ج ١ ص ٣١٤ — اعلام النبوة ص ١٣٥ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ الحلبية ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٧ ط بيروت .

أمانة ... حتى ما اسمه فى قومه الا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[1].

والامام الماوردى يروى فى كتابه أعلام النبوة :

روى على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ماهممت بشىء مما كان فى الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله تعالى بينى وبين ما أريد فانى قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة ، لو أبصرت إلى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها مايسمر الشباب ؟ فقال :أدخل .

فخرجت أريد ذلك . حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير فقلت : ماهذا ؟ قالوا : فلان بن فلان تزوج فلانة ابنة فلان فجلست أنظر اليهم فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال فجئت صاحبى ، فقال مافعلت ؟ فقلت : ماصنعت شيئاً وأخبرته الخبر . قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فقال : افعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ماسمعت ودخلت مكة تلك الليلة ، فجلست أنظر فضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فأخبرته الخبر .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٨٣ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٧ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ .

ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته :

يعلق الإمام الماوردى على هذه الرواية فيقول :

« فهذه أحوال عصمته قبل الرسالة ، وصده عن دنس الجهالة ، فاقتضى أن يكون بعد الرسالة أعظم[1] :

إن البشرية السوية هى (بشرية يوحى إلى) إنها عصمة الله لنبيه بما جبله ورباه عليه من رفيع الآداب ، وجليل الأخلاق إنها إحاطة الله تعالى نبيه بكامل الرعاية وسلامة الفطرة منذ تعلق الاختيار الإلهى باصطفائه فى الأزل إلى أن يشاء الله له بتأدية الرسالة .

إنها بشرية فى إطار ، فإنك بأعيننا .

قال فى شرح الشفاء :

قال أنس رضى الله عنه فيما رواه الشيخان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحسن الناس خلقا » فيما ذكره المحققون مجبولا أى مخلوقا ومطبوعا عليها من أصل خلقته أى من ابتداء نشأته الروحية «أول فطرته » أى مخلوقاً مطبوعاً على مكارم الأخلاق فى أصل خلقته وأول فطرته التى فطره الله عليها أى من غير تكلف ولا تعلم ، لم تحصل باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهى وخصوصية ربانية[2] ا . هـ .

---

(١) اعلام النبوة ص١٣٥ مطبعة شركة التمدن الصناعية الجابية ج١ص١٤٥، ١٤٦ .

(٢) راجع شرح الشفاء نسيم الرياض ج ١ ص ٤٨٢ يلاحظ أن هذه الصفحة مرقمة خطأ برقم ٤١٠ وقد ابتدأ الترقيم خطأ من ص ٤٨٠ .

ويقول فى موضع آخر :

وهذه — أى الخصال الممدوحة — كانت حاله — وفى نسخة خلقه صلى الله عليه وسلم — أيضا — قبل أن يبعث — لما خلقت هذه الشمائل وطبعت هذه الفضائل فى أصل فطرته ومادة خلقته قبل بعثته بل قبل حصول ولادته كما ورد «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد[1] » .

وهنا ندرك مرة أخرى معنى « بشر » فى قوله تعالى :

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) .

إنه بشر سيكون نبيًّا له خبرة بحدود النفس البشرية ولديه إدراك كامل بأقطارها ، وعنده معرفة واضحة بكل مطالبها .

ولكنه ليس من مستواها ، كما أنه ليس ملكا .

فإذا ماشرع كان أعلم مشرع .

وإذا ما حكم كان أعدل حاكم .

وإذا ما قضى كان الأحوط علما بفقه الأمور وعواقبها .

وإذا ما استشير أو أشار فنعمت المشورة وعظمت الشورى عن دربة وإحاطة وكشف .

---

(١) ص ٣٧ ج ٢ المرجع السالف شرح على القارى على الشفاء ج ٤ ص ٤٧ .

ليس ملكا بعيداً عن البشرية فيحمل الناس على طبعه وخصائصه والملائكية نور لا شهوة فيه :

وليس ببشرى عادى يغامس الحياة كما يغامسها الناس فتتحكم فيه الشهوة وتتغلب عليه العصبية ، وتجبره مواريث المجتمع على نوع خاص من السلوك .

إنه ليس ملكا ، وليس من البشر العام ولكنه بشر يوحى إليه .

سوى معصوم .

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) .

٨٦ — القصص :

إنها بشريته هو ، فهى له خاصة .

وهو نبى الله بها :

فلو لم يكن هو ما كانت :

ولو كانت هى ما تكون إلا له :

قال العارف بالله أبوالحسن الشاذلى : فان قلت بشر قلت : نعم لا كالبشر كما تقول : الياقوت حجر لا كالحجر .[1]

وكفى انه وحده الذى قيل له :

وإنك لعلى خلق عظيم . . .

---

(١) أبو الحسن الشاذلى ص ١٢٧ ط أعلام العرب .

خامسا : الوجدان الاجتماعى

١ ـ العمل والعمال :

كثير من التخطيط الذى ترسمه اللجنة المكلفة خلف مكتبها الفاخر . . . مايصيبه الفشل . . ويعاد من جديد فيصيبه العطب والفشل .

وكم من اخصائى اجتماعى مؤهل فى المعاهد العالية لفن الخدمة الاجتماعية يتدرب فى حقول العمل الاجتماعى : ثم اصابه الركود والتخاذل عندما برز إلى العمل .

ذلك : لأن التخطيط للعمل ليست طبيعته مقعدا خلف مكتب فخم ولا تصنع فكر مثالى . خاصة فى مجال يتصل بتحرك المجتمع ، وإنما طبيعته مزاولة مرغوب فيها تولد حساسية ووجدانا يجد لذة فى التعرف على قضايا المجتمع وفى السعى الحثيث لإيجاد حلول لها . حلولا تتفق مع القيم الأصلية فى المجتمع وتنفذ بالإقناع والحجة والمشورة ، والرضا لا بالعنف والثورة والجبروت .

فالحركة العمالية ـ فى العصر الحديث ـ قامت على أشلاء الأبرياء ، وسحل الضحايا ، وإسالة بحور من الدماء لأن قيمة الفكر فيها لم تصل إلى حالة الوجدان الاجتماعى الذى ينبغى أن يتحلى به المصلح ، وذلك

لأنها حركة عدائية لقيم الانسان فهان عليها ، ففعلت به أحقر ألوان التعذيب لأنها رضيت لنفسها احقر الشعارات والأسماء لعجزها عن ادراك المثل والقيم الرفيعة [1] .

انها حالة عصبية تضاف فى قسوتها اللانسانية إلى فشل المخططين والاخصائيين الاجتماعيين الذين وصلوا فى العمل الاجتماعى إلى الحد المهنى الوظيفى ولم يبلغوا بعد التأهيل والتدريب إلى مستوى الحساسية الاجتماعية التى تذوقهم حلاوة خدمة العمل من أجل العدالة الاجتماعية للمحتاجين .

تلك حالة العصر الحديث فى :

١ — التخطيط :

٢ — والقيادة الاجتماعية .

٣ — والحركة العمالية الخارجية بسلوكها على قيم الانسانية .

هذه الحالات كانت وليدة فكر البشر العادى الذى لا يملك من المعرفة أكثر من معلومات كلية . . . أو اصطناع نظرية عندية يزينها له الشيطان :

(١) فى العصرى كلمة (Conmor Paple) تساوى الحقير وهى نصف الاسم الذى يطلق على حركة التقدم العالمية ص ١٤٨ .

وفى القاموس الأندونيسى الانجليزى كلمة (Morba) تساوى الحقير ص ٢٣٩ وهى كذلك اسم الحزب الشيوعى المجمد حاليا فى اندونيسيا .

وذلك ليس مؤهلا للقيادة والاصلاح ولا مورثا لصفة الزعامة للاصلاح الاجتماعى تلك التى تتوقف أول ما تتوقف على حجم الادراك الوجدانى المستعد لبذل أقصى الجهد لخدمة الناس .

انما الأهلية أساسها ممارسة بالفعل ، وشهرة فى العمل ، وصدق فى تأدية الأمانة حتى يجتمع له عند الناس صفة أنه الأمين الرفيق الصدوق .

ومجال الممارسة التى تؤدى إلى هذا : صلة العامل بصاحب العمل .

يستثمر فيها العامل قدراته ، ويتعرف على حقوقه الواجبة له على صاحب المال ، ويقدم ماعليه من حقوق لصاحب العمل ، فيحصل لديه معرفة بحال الطرفين :

١ — حقوق العامل الواجبة له نظير انتاجه .

٢ — حقوق صاحب العمل الواجبة له ، ليؤدى رأس ماله وظيفته فى المجتمع .

وتثبت فى هذه الممارسة :

١ — حسن ادارته للمال مع كمال الصدق والأمانة .

٢ — حسن معرفته بحال العامل وصاحب العمل .

فاذا ماشرع أو تصدى للاصلاح كانت التجربة شاهدا ، والثقة مؤكدة ، والاصلاح مأمولا .

وهذا هو ماهيأ الله به حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم فقد ملأت سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حياة العرب عطر شذيا بخلقه الرفيع وأمانته العفيفة وصدقه اليتيم ، وحسن معاشرته ، وجود فكره وشرف انسانيته ونبل مقصده ، ورجاحة عقله ونورانية فؤاده ، وكانت خديجة رضى الله عنها صاحبة مال وتجارة وهى سيدة ذات شرف ، وحسن نسب وذات بال ، وحسب يجلها المجتمع العربى أجمع ، ويقدرها الناس فى مكة كافة :

من خلال العبير المتطاير وصلت اليها نفحة من شذا العبق ، فتمنت أن توليه إدارة تجارتها فعرضت عليه ذلك . . : يقول ابن هشام :

فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مابلغها من صدق حديثه وعظم أمانته ، وكرم اخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وخرج فى مالها ذلك (١) .

وعلى الرحل الميمون سافر محمد الأمين يعمل فى تجارة خديجة صاحبة رأس المال بوجدانه الاجتماعى الرفيع ، وهو وفى لفن التجارة بالحق والعدل لا بالغش والخداع من أجل الربح المزيف :

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨٨ ، الحلبية ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

وهو كذلك حريص على تنمية المال بالحق والعدل لا بالظلم والغبن من أجل الزيادة فى الأجر :

وهو كذلك رءوف رفيق بمعاونة « ميسرة » بالحق والعدل لا بالسيطرة والجاه لأنه حر وذاك رقيق .

وفى خلال الحل والترحال ، والسفر والاياب ، والبيع والشراء ، شاهد ميسرة من صاحبه جديدا فى المشاعر وجديدا فى المعاملات . . وجديدا فى العلاقات وجديدا فى الأخلاق لم يألفه من قبل مع الذين سبق أن استعملتهم خديجة . فلما عاد بشر سيدته بما رآى ، وشاهد وأحس وأدرك .

والذى رآه ، وشاهده ، وأحس به ، وأدركه هو : عامل ذو وجدان اجتماعى طيب الخلق رفيع الشمائل ، مبارك التجوال ، كريم النفس سخى المشاعر ، صادق الود ، رفيقا بالصديق مجودا أصول الفن التجارى ، سمحا فى البيع أمينا فى الشراء رءوفا بالمتعاملين . . . الخ ، فحرك ذلك التقرير فى نفس خديجة كصاحبة مال أن تمكن هذا العامل من رأس مالها بتفويض مطلق يعمل فيه لينمو بالبركة والأمانة ، ويزداد بالخبرة والفن ، ويربو بالحلال الطيب ، ويعم نفسه بأداء وظيفته فى تحقيق رفاهية مكة : وكان الطريق إلى ذلك فى نظر خديجة أن تخطبه هى إلى نفسها زوجا كريما .

تلك المشاهد التاريخية والنبى صلى الله عليه وسلم فى منتصف العقد الثالث من عمره الشريف ، فيقبل خطبة خديجة ؛ ويتزوجها ، فتنتقل منزلته فى المال من عامل أمين بأجر إلى وكيل أمين متصرف :

ذلك القدر من الاعداد للرسالة العالمية مفهومه أن التخطيط والعمل مع الجماعة أساسه الحساسية الاجتماعية ، والوجدان الاجتماعى الذى تربيه الممارسة بالرغبة وتشهد به العادات ؛

ليست القيادة مجموعات نظرية يدرب عليها نفر من أجل أن سيكون موظفا كلا . . انها لن تكون كذلك ؛

إنما هى تقوم على أساس من :

١ ـ الخلق الفطرى والرغبة الوجدانية ؛

٢ ـ الوجدان والحساسية الاجتماعية التى ترغب أن تعطى كثيرا للمجتمع وتتنازل عن كثير من أجل المجتمع ، ومنبع ذلك إنما هو الدين فقط الذى يعطى لكل واحد حقه دون نظر إلى تفاوت بالعلم أو بالمال أو بالجاه . . ويجعل الرقابة العليا على السلوك الانسانى :

(اعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك) ؛

---

(١) مسلم كتاب الايمان ص ١٥٧ ح ١ .

انها تورث الحساسية والوجدان الاجتماعى وفى الحديث :

(لايؤمن احدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه)[1] .

أين المتحابون فى اليوم أظلهم بظلى يوم لاظل الاظلى[2] .

وفى القرآن الكريم أساس متين لها :

(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) . ٢٤٥ — البقرة .

لذلك كانت مرحلة العمل مع السيدة خديجة واحدة من عوامل التهيئة للرسالة ليحمل له التاريخ وحده أنه أصدق مشرع يربط العامل بصاحب العمل ارتباطا انسانيا يعطى العامل للعمل حقوقه وواجباته ، ويأخذ من صاحب المال حقوقه كاملها بما يكفى حاجته بالعدل والقسطاس لايعتدى صاحب حق بحقه على الآخر لأنه يملك جمهرة تعبث فسادا إن أرادت ولا لأنه يملك جاها فيطغى أن رآه قد استغنى ؛

ويكون التشريع مؤسسا على التجربة والمعرفة بأطراف القضايا يصور ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

(أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)[3] ؛

---

(١) البخارى : باب من الايمان أن يحب لأخيه ص ٦٣ ج ١ فتح البارى .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٩٨٨ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٨ .

٢ ــ الأسرة :

كذلك من مظاهر ذلك الوجدان الاجتماعى الذى يفيض بالحنان على البشرية بالطبع والإعداد الربانى ، عطفه صلى الله عليه وسلم على الأسرة وإدراكه الواجب نحوها دون ماسؤال أو طلب . . : يروى ابن هشام :

أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وقد كان أبوطالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم ، ياعباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه ، فلتخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ أنت رجلا ، فنكلهما عنه ؟ . فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالاله : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ماهم فيه ؛ فقال لهما أبوطالب إذا تركتما لى « عقيلا » فاصنعا ماشئتما :

، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليا » فضمه إليه وأخذ العباس « جعفرا » فضمه إليه فلم يزل عليا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا فاتبعه على رضى الله عنه وآمن به .[1]

هذا التصرف قبل البعثة قائم على أساس الوجدان الاجتماعى الذى هيأ الله به حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم . فرأى أن وظيفة المال فى

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٢٩ ،

المجتمع يجب أن تؤدى فى تخفيف ويلات الفقر والعوز والأقدار دائماً عليه رعاية الأضعف دون ما مسألة منه أو امتنان عليه .

ولقد حمل ذلك الوجدان الاجتماعى الرفيع هذه الدعوة إلى العباس لينشر الخير ، ويدعو إلى التراحم والبر ثم انصرفا معا عندما استجاب العباس لنداء صاحب الوجدان الاجتماعى الرفيع محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين .

وكان على فى حضن محمد عليه الصلاة والسلام محل الحنان والمودة والعيش الراقى خلقاً وتأديباً ، وحناناً :

يقول فى ذلك شيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود :

نشأ على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظافره فتفتحت عيناه — طفلا — على أكرم مثل للقدوة الحسنة ، ممثلة فى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتفتحت عيناه على أكرم مثل للود المتبادل بين الزوجين الطاهرين ، والحنان الذى يملأ البيت الكريم ، والرحمة التى تفيض من قلب « محمد وخديجة » فيكون من أثرها :

حمل الكل :

وصلة الرحم .

وقرى الضعيف :

والإعانة على نوائب الدهر :

فترك ذلك فى نفسه أكرم الأثر [١] .

لقد كان هذا السلوك فيضاً من ينابيع التربية الربانية التى هيأه الله تعالى بها لتكون الذاتية النبوية فى محمد عليه الصلاة والسلام مدد كل خير ومعروف بالطبع والجبلة اللذين صنعهما الله فيه ليكون للعالمين رسولا .

٣ ـ العدل الاجتماعى :

تركت حرب الفجار آثاراً سيئة فى المجتمع العربى القديم ، انقطعت بها الصلات الاجتماعية ، وتأثرت بها حوافز النجدة مما جعل العاص ابن وائل يماطل فى دفع حق رجل من زبيد (باليمن) ، فجعل الرجل يستجير ، حتى أجاره الزبير بن عبد المطلب بعد أن دعا إلى حلف الفضول ليعيد به الشكيمة العربية والنجدة الأصلية التى تأثرت بنتائج حرب الفجار .

لقد كانت مهمة حلف الفضول توصيل حق الضعيف إليه دون بخس أو اياس من الوصول إليه . . ولو كانت وسيلة ذلك الحرب : : فان درء المظالم دون مقابل كان ميثاق هذا الحلف تجديداً للخليقة العربية القديمة التى تتمركز فى مثل هذا التجمع لتصون مقوماتها الأخلاقية وتنشر الخير والعدل فى ربوع الديار [٢].

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ١٦٧ .

(٢) راجع فى هذا الموضوع « بحث . المرحلة التمهيدية للدعوة الإسلامية» ص ٨٦ ـ ٩٣ راجع كذلك : السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٣٣ .

وفى هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم له النور والبركة ، والهداية ولقد قال صلى الله عليه وسلم فى شأنه :

لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلف ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت :

ففى الحديث النبوى الشريف تصوير لمشاعر النبى الكريم وتقديره صلى الله عليه وسلم لهذا الحلف الذى تحمل فى القرون الوسطى مسئولية العدل والأمان :

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم واحداً من الناس يوم أن استجاب إلى هذا الحلف ، بل كان عملا واستجابة من رجل مكمل صفات العمل الاجتماعى والدعوة إلى رفيع سبل النجدة والمعروف . فقد استمرت ذكريات هذا الحلف له أملا فيما بعد الرسالة . بينما الذين أسهموا فيه ماذكروه بعد ولو ذكروه لكانوا فى حلف النبوة ينشرون العدل بوحى أمين من عند الله .

لقد كان اشتراك النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحلف من عمليات التهيئة والتوعية ليفهم فيما بعد أن قواعد العمل الاجتماعى المبينة على الوجدان الاجتماعى المرهف والتجربة الهادفة الناجحة إنما يكون من هذا النبى العظيم :

وفى ظلال هذا المعنى ينشرح الصدر بمفهوم هذه الآية الكريمة :
(ولا تمنن تستكثر) . .

إن دعوتك إلى الحق والخير والعدل يجب أن تقوم على أساس من التطوع والحسبة لوجه الله الكريم دون مقابل . . بل دون تفكير فى شىء من عرض الدنيا فقد كفيت أمرها .

إنها رسالة لا وظيفة لأكل العيش ولا لمنصب رفيع أو سامق فى الحياة الدنيا ، إنها رسالتك التى ربيت لها وهيئت من أجلها فاصبر فإن أداءها يحتاج فى توصيلها وهى فى جوهرها الأصيل إلى الصبر .

وإنى لأشهد أنه أداها كما أمر ، وصبر كيفما شاء الله له أن يحقق بصبره خيرا عميقاً .

٤ ــ الشذى العطر وضوء الفجر الأمين

تلك الشمائل العليا ، والفضائل السوية التى وهبها الله جل شأنه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى حياته الإنسانية قبل البعثة عبق بها الوجود الإنسانى فسرت روائح شذاها فى كل أرجاء المجتمع العربى القديم ، حتى انفرد محمد صلى الله عليه وسلم وحده بلقب الأمين .

لم يكن لقب : الأمين ، وساما ذا درجات . . ولم يكن « بروتوكولا » عاماً . أعطى غير محمد قبله أو بعده هذا اللقب .

ولكنه كان شهادة فذة يتيمة . وكان إحساساً اجتماعيًّا عاماً بأن الشخصية المحمدية جديدة . جديدة فى عالم الخلق ، وفى عالم الإنسانية ، لم يتعرف ــ المجتمع على ند لها فى السر أو العلانية .

لقد كانت جديدة فى بشريتها السوية .

وكانت عليا فى سموها الأخلاقى .

وكانت سابقة فى ودها الاجتماعى :

حتى انجذبت إليها النفوس فى استقطاب كلى ، ولقد انجذبت الناس إليها : إلى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، ليستودعوا أماناتهم فى عرين الأمان ويحفظوا أسرارهم فى طيات من الستر .

ولقد أحسوا بالراحة النفسية فى كنفه ، وبلذة الحياة فى صحبته ، وأدركوا العزة فى صداقته ، وأحبوا فيه صدقه ، وعشقوا فيه أمانته.. فلم يلبث المجتمع أن خلع عليه كل مايستطيع أن يعبر به عن هذه المحبة. فلهجوا بالثناء عليه واختاروا له لقباً هو فيه أكمل وأفرد ...إنه الأمين :

يقول ابن هشام :

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى : — الأمين[1] ويقول فضيلة الشيخ الخضرى بك رحمه الله تعالى :

فسموه الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة ، والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل ، والتواضع والعفة ، والجود والشجاعة والحياة حتى شهد له بذلك ألد أعدائه[2] .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٩٨ . (٢) نور اليقين ص ١٦ ، ١٧ .

هذا الرأى العام حول (محمد) هو نوع فرد فى أبواب التاريخ فما تشرف التاريخ قط بتدوين رأى عام نحو واحد من الزعماء أو قادة الاصلاح عامة إلا بمحمد النبي الأمى الخاتم .. فكان وساماً فريداً وحيداً يسجله التاريخ فى أرفع مكانة وحده دون توأم له أو شبيه .

إن لقب الأمين لم يكن وصفاً عابراً ، ولا كلمة مجاملة ولكنه كان خلقاً عند القوم أخذوا به وارتضوه حكما وقاضياً يوم أن أعلنت ألسنة الحرب والدمار حين أعاد الناس بناء قواعد البيت الحرام واختلفوا فى وضع الحجر الأسود لمن يكون شرف حمله ووضعه فى البناء ؟

أما بنو عبد الدار وشيعتهم من بنى عدى بن كعب بن لؤى فقد أدخلوا ايمانهم فى جفنته من الدم وهم يقسمون :

« ألا ينال هذا الشرف العظيم أحد سواهم » .

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ماصارت إليه الحال من سوء وتوتر ونزاع يكاد يكون حرباً دماراً قال للناس : وكان الأكبر سنا والأطوع استجابة :

« إجعلوا الحكم فيكم أول من يدخل من هذا الباب » .

فلما دخل محمد الأمين عليه الصلاة والسلام قالوا :

هذا الأمين رضينا به هذا محمد .[1].

---

(١) راجع ابن هشام ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧

يروى أبو نعيم فى دلائل النبوة :

عن هلال بن خباب عن مجاهد قال :

حدثنى مولاى عبد الله بن السائب قال :

كنت فيمن بنى البيت وأخذت حجراً فسويته ووضعته إلى جانب البيت وإن قريشا قد اختلفوا فى الحجر حيث أرادوا وضعه حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف .

فقال اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب [1] فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه فى الجاهلية : الأمين ، فقالوا قد دخل الأمين فقالوا : يامحمد ، قد رضينا بك .

فدعا بثوب فبسطه ثم وضع الحجر فيه ، ثم قال لهذا البطن ، ولهذا البطن . . . لجميع البطون من قريش ليأخذ كل رجل من كل بطن منكم ناحية من الثوب ، فرفعوه . . . فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم — فوضعه .

يقول الامام الماوردى تعليقا على هذا :

كان ذلك تأسيساً لما يريده الله تعالى من كرامته وتوطئة لقبول ماتحمله من رسالته والله أعلم بمغيب ما استأثر من علمه :

---

(١) يعلق فضيلة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة على هذا فيقول : هو باب بنى شيبة وهو يعرف اليوم باب السلام ص ٢٣٤ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة .

(٢) اعلام النبوة للماوردى ص ١٣٧ .

يقول شيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود :

« إن عناية الله رافقته ، ولا حظته ، ووجهته فكان خيرا زكيًّا ، وكان أمة واحدة وسط هذا الضلال الدينى » .

ومن أجل ذلك سماه قومه : الأمين .

لقد كان أميناً على نفسه ، فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس ، وكان أميناً على الحديث إذا تحدث فلا كذب ولا مغالاة وكان أميناً على الأسرار فلم يفشها ، ولم يذعها . إنه الأمين أجمع عليها القرشيون . وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعه فى الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة حينما رأوا محمدا وصاحوا . . . إنه : الأمين ، رضينا . . . إنه محمد [1].

بهذه الفرحة العارمة ينفعل المجتمع . لقد خرج من أزمة عسكرية حادة كانت ستأتى على كل شىء وتدمر ماصادفت ؟

وتشهد هذه التجربة أن المجتمع العربى القديم قد : أعطى محمداً لقباً يتيما لأنه وحده الأحق به ، فما تحلى بشمائله أحد سواه .

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم — سلسلة البحوث الإسلامية ص ٦٧ ، ٦٨ .

وقد ارتضاه حكمًا فى قضية من أخطر قضايا الشرف والرياسة عنده بلغ التعصب لها مبلغ القسم والأيدى فى الدماء : إما أن ينالوا هذا الشرف أو تراق الدماء .. كلها .

فلما دخل محمد هدأت العاصفة ، وركدت الدماء الثائرة .. ورأوا الخلاص والعدل ، وصاحوا . هذا محمد . هذا الأمين . رضينا بك .. تؤكدات تاريخية وإرهاصات منبهة ، أن الخلاص من الحرج والمآزق ، والأزمات ليس له من سبيل إلى حل غير هذا الأمين .

لقد أقر المجتمع العربى أن العدل فقط هو فيما يراه محمد أنه إذا حكم كانت الألفة والوحدة والسلام والتضامن وكان الخير والبركة واليمن والأنس .

وأقر المجتمع أن الفضل فقط فيما يدعو إليه محمد وهو يومها فى منتصف العقد الرابع من حياته قبل أن يكون نبيًا فثبت فى ذمة المجتمع أنه عاش يوم الخلاص من حرب مدمرة بفضل حكومة محمد ، وأن سيرته العطرة فى شبابه توجت بتاج من الثناء خاص به : الأمين .. وأنه وحده على المستوى السامى فى وجدانه الاجتماعى وعمله القيادى .

لقد التزم بهذا المجتمع العربى فيما قبل البعثة ، وأقر به وجيه من وجهائهم — أبوسفيان بن حرب — فى حديث له مع هرقل عندما سأله : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول هذا القول ؟

فيجيب أبوسفيان : لا .

وفى ختام المناقشة يقول هرقل :

ماكان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله [1] .

وإذن فقد اقتربت الحياتان :

الحياة البشرية السوية فى محمد ، والحياة البشرية العادية فى المجتمع.
اقتربت من لقاء .

لقاء : للسوى فيه القيادة :

وللعادى فيه التبعية :

وكان هذا اللقاء بعيداً عن عنصر المفاجأة كذلك لم يكن دون توعية بل كان مسبوقاً بعديد من البشارات والإرهاصات .

لقد كان حظاً من البشارات والإرهاصات والإعداد لم يتوفر من قبل لواحد من البشر مثلما كان لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فما حمل التاريخ ولن يحمل أبدا من بعده لواحد من الناس مثل هذه الثقة المطلقة التى أقر بها المجتمع العربى الجاهلى لمحمد بن عبد الله رسول الله الخاتم :

وما شهد التاريخ قط أن غير محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقبل الناس حكمة بالاجماع والرضا والقبول والفرحة فى معضلة

---

(١) البخارى باب بدء الوحى .

من كبرى المعضلات التى تكد الأمن وتفسد المناخ المعيشى إلى درجة تبعث على سفك الدماء : وكان محمد هو الخلاص والفرح ، لقد كان لقاء بين النبى الخاتم والمجتمع الإنسانى كله لقاء فريداً فى توعيته وفى مستواه :

إنه لقاء يتيم فى عالم الاصلاح والفكر سبقته توعية شاءها الله جل شأنه وكان لذلك فيما بعد البعث آثار من بركة النبى العاقب. عليه أفضل الصلاة والسلام :

الباب الثاني

الفصل الأول : الى الوحى ـ التحنث وطريقه ..

الفصل الثانى : فى التطبيق التاريخى ..

الفصل الأول

الى الوحى ــ التحنث وطريقه

كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى حياته كلها خاصة قبل البعثة يعيش فى كنف الله عز وجل .

لقد كانت العناية الإلهية تربيه لمستقبل العالم الإنسانى كله ، فكان ربانيا فى كل حركة يتحركها ، وتلك هى السوية التى نصطلح عليها فى هذه الدراسة كميزة خاصة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وتدل عليها مجريات الأمور فى حياته الخاصة فيما قبل البعثة(١) .

بهذه السوية كانت دلائل النبوة تقترب ، حتى تكلم الحجر ، وجل شأن الله فى ملكوته إذ يدبره مع أصفيائه كيفما شاء ولقد وسع كرسيه السموات والأرض ، ففى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يحيى ابن أبى بكير عن إبراهيم بن طهمان حدثنى سماك بن حرب بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن(٢) .

---

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

(٢) مسلم كتاب الفضائل : باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم رقم ٢٢٧٧ تخريج الأستاذ المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى راجع شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ٥ ص ١٢٢ ط أولى ١٣٢٦ هـ . المطبعة الأزهرية .

كان الحجر يسلم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وما زال الحجر معروفا بعد البعثة للنبي صلى الله عليه وسلم .

وصيغة ألفاظ الحديث فيها مؤكدات عدة « إن » والنص على « مكة » و التعبير « بكان » ، « وقبل أن أبعث » ، ثم التوكيد « بأن » مرة أخرى والنص على معرفته « الآن » بعد البعثة الشريفة مما يوضح للباحث أن الله جل شأنه أكمل للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تربيته وإعداده للرسالة الجو النفسي ، وقرب إليه يوم الوحي بدلائل خاصة ، كان منها تسليم الحجر ، ثم كان منها الرؤيا الصالحة في النوم ، ففي البخاري :

حدثنا يحيى بن بكير قال : حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت :

أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء : . . فجاءه الملك :

فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ :

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى :

فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ :

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ :

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى :

فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع :

فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى .

فقالت خديجة : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب

العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبير قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ؟

فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟

قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الاعودى ، وأن يدركنى يومك انصرك نصرا موزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى .

قال ابن شهاب : وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال — وهو يحدث عن فترة الوحى — فقال فى حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله تعالى (يأيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحمى الوحى وتتابع [1] .

---

(١) البخارى بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن حجر : بدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة ، ثم مهد له فى اليقظة أيضاً رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر[1] .

قال صاحب السيرة الحلبية : وجاء عن عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة :

إذا خلوت سمعت نداء ، أن يا محمد ، يا محمد :

وفى رواية : أرى نورا ، أى يقظة لا مناما ، وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر .

فترد عليه خديجة : كلا يا ابن عمى ما كان الله ليفعل ذلك بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

استدلت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أنه لا يفعل به إلا خيرا لأن من كان كذلك لا يجزى إلا خيرا[1] .

يقول ابن هشام :

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الملك بن عبيد الله بن أبى سفيان ابن العلاء بن جارية الثقفى — وكان واعية — عن أهل العلم :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٥ ، راجع شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ١ ص ٢١٩ و ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ٢٧٠ .

إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ماشاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان(١) .

فكانت مقومات الجو البيئى للنبى صلى الله عليه وسلم قد هيأت له موعد البركة العظمى والرسالة الخاتمة فحبب بالبناء للمجهول إليه الخلاء للتحنف والتعبد لا من ذنب يستغفر ولا عن ذنوب يبتعد ، فقد سما روحانيا ووجدانيا ، وبدنياً ، وخلقياً ، وسلوكيًّا ، وعقليا ، وفكرياً ، وخاطرا ، وتذكرا ، وإرادة وعملا من كل شئ غير سوى يتفق مع كيانه السوى الربانى .

قال ابن حجر : قوله فيتحنث ، هى بمعنى يتحنف أى يتبع الحنفية وقوله حبب ، لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كل من عند الله ، أو لينبه على أنه لم يكن من بواعث البشر ، أو يكون ذلك من وحى الإلهام (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ تحقيق شلبى ، الابيارى ، السقا .

(٢) فتح البارى ج ١ ص ٢٥ .

فتحنث النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء هو آخر التربية الإلهية له ليلتقى بعدها مباشرة بالرحمة العامة للناس أجمعين ؛

فالتحنث فى نظرى ، هو الصعود السامى المستشعر عظمة الله جل جلاله المتلذذ بطاعته النازع بالسوية إلى سمو قدسه وواسع رحمته بالتخلى عن البيئة العامة لتستمر السوية المحمدية على طبعها الذى هيئت به لاستقبال الرسالة .

فليس التحنث تكلفاً ، ولا تقليداً لعادة عربية ، ولا رياضة مشرئبة إلى غاية أو طمع فى أمل مترقب أو انتظار لمجهول مأمول ؛

ولكنه تيسير إلهى لفطريته السوية التى رباها ربها من الطفولة هكذا لتكون بإذنه للعالمين نذيرا ؛

يقول صاحب الهمزية :

ألف النسك والعبادة والخلوة طفلا وهكذا النجباء

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

يعلق صاحب السيرة الحلبية بقوله :

أى ألف صلى الله عليه وسلم العبادة والخلوة فى حال كونه طفلا ومثل هذا الشأن العلى شأن الكرام .

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧١ .

فقد صانه الله تعالى عن التفكير ، أو الاعتقاد فى أى شئ يخالف الكمالى والأدب مع الله.

يقول الإمام الزرقانى :[1]

لأنه ولو علم بالبشارات الحاصلة قبل ولادته وأخبار الكهنة وبحيرا وغيرهم بأنه نبى آخر الزمان ، لكن صانه الله سبحانه عن اعتقاد ما يخالف ما عنده تعالى من أنها لا تنال بطلب ، فإنه صلى الله عليه وسلم قبل النبوة منشرح الصدر بالتوحيد والإيمان وكذلك الأنبياء فإنهم — كما قال عياض — :

معصومون قبلها من الشك فى ذلك والجهل به اتفاقا ، فإنما كان جواره مجرد عبادة وانعزال عن الناس

بل إن الإمام القسطلانى ليرى أن الخلوة مترتبة على الرؤيا الصالحة التى هى قسم من أقسام الوحى فيقول : فإن قلت أمر الغار[2] قبل الرسالة فلا حكم ، أجيب بأنه أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحى الرؤيا الصالحة ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء كما مر فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحى ، لأن كلمة . . ثم « للترتيب » :

---

(١) المواهب اللدنية شرح الزرقانى ج ١ ص ٢٢٠

(٢) إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى للعلامة شهاب الدين أحمد القسطلانى ط السابعة عام ١٣٢٣ هـ المطبعة الكبرى الأميرية ج ١ ص ٦٢

فكان ذلك أمعن فى الذهاب إلى أن التحنث لم يكن تبعية لعادة ، ولا رياضة نفسية خاصة بل كان وحيا يوحى من عند الله والله أعلم حيث يجعل رسالته والله أعلم حيث يلهم أنبياءه .

إنه أسلوب تربوى ربانى من الأساليب الإلهية التى تعهد بها صفيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليختصه بالرسالة الخاتمة ليكون للعالمين نذيرا :

ولذا فان سيولة التعبير الإنشائى التى يطلقها بعض الكاتبين الإسلاميين كما فعل الدكتور هيكل لاتتفق مع جلال هذا الموقف .

لقد أفرط الدكتور هيكل فى تعبيراته حتى أزعج — ويزعج — قلوب الخاشعين ، ويثير حمية الشباب الواعى ، ويتناقض مع التصور الإسلامى للتحنث فى غار حراء :

فنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم اختياره حياة الانقطاع للتأمل والتفكير كوسيلة للوصول إلى المعرفة : « وهو لم يكن يطمع فى أن يجد فى قصص الأحبار ، وفى كتب الرهبان الحق الذى ينشده ، بل فى هذا الكون المحيط به :

فى السماء ونجومها وقمرها وشمسها ، وفى الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندى ،

وفى البحر وموجه ، وفى كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود . . . فى هذا الكون كان يتلمس الحقيقة العليا[1] . . . الخ.

ويقول كذلك :

وكان إذا استدار العام وجاء شهر رمضان ذهب إلى حراء إلى تفكيره ينضجه شيئاً فشيئا ، وتزداد نفسه به امتلاء وبعد سنوات ، شغلت أثناءها هذه الحقائق العليا نفسه صار يرى فى نومه الرؤيا الصالحة تنبلج أثناءها أمام باصرته أنوار الحقيقة التى ينشد ويرى معها باطل الحياة وغرور زخرفها إذ ذاك آمن أن قومه قد ضلوا سبيل الهدى[2] . . .

فالنص سيال ومخادع فليس لمحمد أن ينشد الحقيقة من كتاب فقد كان أميا ، ولا فى الجزيرة بحر ولا نهر تطلب منه المعرفة العليا وليست رمال الصحراء وحرارة الشمس ، ولمعان أضواء القمر ، بآيات لتربية رسول ، بل ولا تصلح لمفكر عادى ، فما هدت تلك الرمال وأشعة الشمس وأضواء القمر الباحثين عن العدل الدينى .

ولا كانت الرؤيا الصادقة بعد العزلة فى الغار ، ولا كان الغار لأنه يطل على البحر وأمواجه ، والرمال وصفرتها بل كان الغار محل التحنث لأن فيه العزلة ، وصفاء التعبد ، ومشاهدة بيت الله الحرام ، ضيافة الله فى الأرض .

---

(١) حياة محمد — هيكل باشا — ص ١٣٠ . (٢) حياة محمد ص ١٣١ ، ١٣٢ .

يقول العسقلانى :

فإن قلت لم خص حراء بالتعبد فيه دون غيره ؟ قال ابن أبى جمرة : لمزيد فضله على غيره لأنه مجموع لتحنثه وينظر منه الكعبة المعظمة والنظر إليها عبادة فكأن له عليه الصلاة والسلام فيه عبادات :

الخلوة ، والتحنث ، والنظر إلى الكعبة[١] وشتان ما بين مسلم ينساق وراء سيولة الإنشاء يضيع بها على الدعاة والباحثين جلال ودقة التصورات الإسلامية وينبثها عن مفهومها الطبيعى المدلل عليه بالوثائق العلمية واللغوية وشتان بينه وبين مسلم دقيق البحث يقظ الوعى كما فعل ابن هشام إذ يقول فى عبارته :

أول ما بدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت : وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده[٢] .

والقسطلانى يستنتج من « ثم » فى لفظ حديث البخارى أن الخلوة حكم ترتب على الرؤيا الصادقة التى هى جزء من الوحى فيجعلها عبادة

---

(١) ارشاد السارى ج ١ ص ٦٢ فتح البارى ج ١٦ ص ٦ من كتاب التعبير راجع المواهب ج ١ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٤ .

مأمورا بها من الله سبحانه وتعالى ، وحول هذا كذلك يدور كلام ابن حجر[١] :

لهذا فإن التحدث عن مواطن التحرك الأولى للدعوة الاسلامية ينبغي أن يأخذ وضعاً علمياً خاصاً بعيداً عن انزلاقات العاطفة وسيولة قلم الأديب ، وأجوفية لمعان الكلمات دون جدوى .

والذى أريد أن أخلص إليه من هذا ، أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انطلق إلى غار حراء بسويته التى رباها عليه ربه[٢] ، وأن توجهه إلى غار حراء كان تعبداً بعد أن أوحى إليه بالرؤيا الصالحة ، وأن الجو من حواليه كان يقدم له العلامات أنه نبى آخر الزمان فلم يكن الدافع على التحنث اتباعه لعادة قومه ، فحاشاه أن يكون تابعا لأية فكرة أرضية ، ولا كان تحنثه رغبة منه فى رياضة نفسية ، يستقبل بها أمراً خاصاً يرجوه فى نفسه .

ولا كان تحنثه تابعاً لنشاط فكرى عرفه من ثقافات الصوامع والرهبان فقد كان أمية بن أبى الصلت يجوب الصحراء طالباً لهذا الشرف ،

---

(١) نود أن نؤكد فى هذا المجال أن الرؤيا الصالحة وحى يترتب عليه آثار سلوكية كما فعل سيدنا إبراهيم مع سيدنا إسماعيل عليه السلام : قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتى : افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . وكذلك وقائع الحديبية ، لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . . . ومحل الشاهد أنه تصرف ولم ينتظر ملكا . (٢) راجع الشفاء نسيم الرياض ج ٣ ص ٢٨٢ .

وتتلمذ على يد كثير من أهل الكتاب واستقصى كثيرا ورحل وسأل وأجيب ويئس ، وعاش كثيرا يؤرق نفسه بهذا الأمل ، ولكنه لم يكن صاحب هذا الشرف لأنه شرف لا يكتسب بالرياضة والاشرئباب .

لم يكن محمد باحثاً ، ولا طالباً ، ولكنه كان دائماً فى كنف الله .

(ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى) .

أدبه ربه فأحسن تأديبه واصطفاه منذ الأزل القديم لرسالته ، فألهمه الرشد كاملا وقدم بين يديه بشائر ، وعلى يديه بشائر وأسمعه بشائر ، وحقق رؤياه كفلق الصبح المنير ثم حبب[1] إليه الخلاء واصطفاه ليكون رحمة للعالمين :

وأختم هذا الحديث بما رواه الإمام السيوطى فى الخصائص الكبرى :

١ — أخرج أبو نعيم عن على بن الحسن قال :

إن أول ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً فى المنام إلا كان كما رأى :

٢ — وأخرج أبو نعيم عن علقمة بن قيس قال :

إن أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد.

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٨٢ نسيم الرياض على شرح على القارى على الشفاء .

٣ — وأخرج البيهقى وأبو نعيم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال :

بلغنا أن أول ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الله أراه رؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة فقالت :

أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا خيرا ، ثم إنه خرج من عندها ثم رجع إليها فأخبرها أنه رأى بطنه شق ، ثم طهر وغسل ثم أعيد كما كان ، قالت : هذا والله خير فأبشر ، ثم استعلن له جبريل وهو بأعلى مكة فأجلسه على مجلس كريم معجب كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أجلسنى على بساط كهيئة الدرنوك فيه الياقوت واللؤلؤ ، فبشره برسالة الله حتى اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال له :

اقرأ فقال : كيف أقرأ ؟ فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق : إلى قوله (ما لم يعلم) فقبل الرسول رسالة ربه وانصرف فجعل لا يمر على شجر ولا حجر إلا سلم عليه فرجع مسرورا إلى أهله موقناً قد رأى أمرا عظيما فلما دخل على خديجة قال : أرأيتك الذى كنت أخبرتك إنى رأيته فى المنام فإنه جبريل استعلن لى أرسله إلى ربى فأخبرها بالذى جاءه من الله وما سمع منه فقالت : أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرا ، فأقبل الذى جاءك من الله فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقا ، ثم انطلقت حتى أتت غلاما لعتبة بن ربيعة ابن عبد شمس نصرانياً من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له :

يا عداس أذكرك بالله إلا ما أخبرتنى هل عندكم علم من جبرائيل ؟ فقال عداس : قدوس ، قدوس ما شأن جبرائيل يذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل الأوثان ؟ فقالت : أخبرنى بعلمك فيه ؟

قال فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى فرجعت خديجة من عنده فجاءت ورقة بن نوفل فأخبرته فقال : لعل صاحبك النبى الذى ينتظر أهل الكتاب الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، ثم أقسم بالله لئن ظهر دعاؤه وأنا حى لأبلين فى طاعة رسوله وحسن مؤازرته فمات ورقة[1] .

قال فى السيرة الحلبية : إن عداسا المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وأن خديجة قالت له : أنعم صباحا يا عداس فقال : كان هذا الكلام كلام سيدة نساء قريش ، قالت : أجل ، قال : أدنى منى فقد ثقل سمعى فدنوت منه ثم قالت له : ما تقدم وهذا صريح فى أنه غير عداس الآتى ذكره ، وأنهما اشتركا فى الاسم والبلد والدين[2] ا. هـ .

قال فى المواهب : رؤيا الأنبياء وحى [3] .

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٣ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٩٥ .

(٣) المواهب ج ١ ص ٢٢٥ ، (فيندفع بذلك ما أثاره الدكتور الهراس فى تعليقه على هذه القصة ص ٢٣٢ خصائص) .

ملة النحنث

(ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) النحل — ١٢٣ :

يكاد المفسرون يتفقون على أن هذه الآية مقصود بها توجيه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الوظيفة العامة لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

يقول الآلوسى :

وهى على ماروى عن قتادة (الاسلام » — المعبر عنه آنفا بالصراط المستقيم ، وفى رواية « أنها جميع الشرائع إلا ماأمر صلى الله عليه وسلم بتركه) :

والمراد من ملة إبراهيم : التوحيد ونفى الشرك المفهوم من قوله تعالى : (وما كان من المشركين) .

ويجوز أن يكون المراد : الأمر بمتابعته — إبراهيم — فى كيفية الدعوة إلى التوحيد وهى أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ماهى الطريقة المألوفة فى القرآن [١] .

---

(١) روح المعانى ج ١٤ ص ٢٥١ شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى إدارة المطبعة المنيرية .

وفى رأى ابن حيان :

أن المعتقد الذى تقتضيه دلائل العقول لايمنع أن يوحى ليتضافر المعقول والمنقول على اعتقاده .

قال الآلوسى :

وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا — يعنى الملة — أصول الشرائع .

ويقول : فى تفسيره : « أوحينا » .

ثم الأمر باتباع الملة لااتباع إبراهيم عليه السلام[١] .

وفى كلام الطبرى مايشبه ذلك قال :

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أوحينا اليك يامحمد وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة ، حنيفا : يقول : مسلما على الدين الذى كان عليه إبراهيم بريئا من الأوثان والأنداد التى يعبدها قومك كما كان إبراهيم تبرأ منها[٢] : ا . هـ .

قال فى تفسير المنار : فلا يمكن أن يؤمر بالاقتداء فيه بمن قبله ولا هو مما يقع فيه الاقتداء ، وقوله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم)

---

(١) روح المعانى ج ١٤ ص ٢٥١ شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى إدارة المطبعة المنيرية .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٤ ص ١٩٣ .

معناه : أن الملة التى أوحاها إليه وأمره باتباعها وهى : العقيدة وأصل الدين هى ملة إبراهيم وإنما يتبعها لأمر الله أنها ماة إبراهيم إذ ليست مما علمه من ابراهيم بالتلقى عنه لأنه لم يكن فى عصره ، ولا بالنقل لأنه لم يكن عليه السلام ناقلا ذلك عن العرب وإن كان من المشهور المتواتر عند العرب أن إبراهم كان موحداً حنيفا .

وأما الشرائع العملية فلا يقتدى بها الرسول بأحد أيضا ، وإنما يتبعها لأن الله أمره باتباعها ذلك بأن الرسول لايتبع فى الدين إلا ما أوحى إليه من حيث أنه أوحى إليه .

وقال : وموافقة رسول لما قبله فى أصول الدين وبعض فروعه لايسمى اقتداء ولا تأسيا وإنما يكون التأسى به فى طريقته التى سلكها فى الدعوة إلى الدين وإقامته ، ومن الشواهد على هذا : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) فإنه تعالى أرشد المؤمنين إلى التأسى بإبراهيم ومن معه وجعلهم قدوة لهم فى سيرته العملية التى كانت من هدى الله تعالى وهى البراءة من معبودات قومهم[1] ا . ه .

والشيخ البيضاوى رحمه الله تعالى يجرى على النمط فيقول :

فى التوحيد والدعوة إليه بالرفق وايراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حساب فهمه[2] . ا ه .

---

(١) راجع تفسير المنار ج ٧ ص ٥٩٦ ط ثانية مطبعة المنار .
(٢) البيضاوى ج ٣ ص ٦٥٤ .

أما تعليق الشيخ الصاوى فى حاشيته على الجلالين فقد عمم التبعية للأصول والأنبياء فقال : ومعنى اتباع النبى فيها اتباعه فى الأصول وهى عقائد التوحيد فرسول الله أمر باتباع إبراهيم ، بل وباتباع من تقدمه من الأنبياء فى التوحيد لأنهم مشتركون فيه ، قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا) [1] الآية ا . ه .

والقضية فى ذاتها لا تحتاج إلى إثارة جدل إذا تأكد لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم منذ حداثته وهو فى رعاية الله .

يقول ابن حجر : وأما مطلق مايدل على نبوته فتقدمت له أشياء مثل تسليم الحجر كما ثبت فى صحيح مسلم وغير ذلك .

ويقول :

أخباره عما رآه من دلائل النبوة من غير أن يوحى بذلك إليه وهو أول ذلك مطلقا ماسمعه من بحيرا الراهب وهو عند الترمذى باسناد قوى عن أبى موسى ثم ماسمعه عند بناء الكعبة حيث قيل له : اشدد عليك ازارك وهو فى حديث البخارى من حديث جابر وكذلك تسليم الحجر عليه وهو عند مسلم من حديث جابر بن شمرة [2] . فقد اكتنفته العناية الإلهية وأعدته بتوءدة وحنان ورفق ليختم رسالة

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٣٤٥ .

الله إلى الناس كافة وقد بدىء قبل غار حراء بأحد أنواع الوحى وهى الرؤية الصالحة .

يقول الامام الكبير شاه ولى الله الدهلوى :

وكان أول مابدىء به الرؤيا الصالحة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وهذه شعبة من شعب النبوة[1] .

يقول الإمام الزرقانى : ومنها — أى مما خصه الله تعالى من المعجزات وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات والآيات البينات أنه كلم بالبناء للمجهول بجميع أصناف الوحى، كما نقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام [2] :

ثم يشرح هذا فى المقصد الأول عند حديثه عن مراتب الوحى فيقول :

احداها أى المراتب « الرؤيا الصادقة » بعد النبوة أو قبلها لأنها مقررة لما بعدها ، نعم المختص بما بعدها الوحى بالأحكام التى يعمل بها فكان لايرى، رؤيا الاجاءت، مثل فلق الصبح كما مر عن عائشة .

---

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٨٦٣ ط دار الكتب الحديثة تحقيق الشيخ سيد سابق ، راجع السيرة النبوية للدكتور محمد محمد أبو شهبة ص ٢٧٥ الفقرة رقم ٥ .

(٢) شرح المواهب اللدنية ج ٥ ص ٢٧٨ .

واستدل السهيلى وغيره على أنها من الوحى بقول إبراهيم : (يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . .) الآية . فدل على أن الوحى يأتيهم — الأنبياء — مناما كما يأتيهم يقظة[1] .

ومحل الاستشهاد فى نظرى برؤية سيدنا إبراهيم أنه قد سبق له أن شافه الملائكة وقد بشروه بغلام حليم . . . فلو كانت الرؤيا غير كافية لانتظر ملكاً .

وإلى هذا يميل ابن حجر إذ يقول : قوله « ثم حبب إليه الخلاء » هذا ظاهر فى أن الرؤيا الصادقة كانت قبل أن يحبب إليه الخلاء ويحتمل أن تكون لترتيب الأخبار فيكون تحبيب الخلوة سابقاً على الرؤيا الصادقة والأول أظهر[2] . ا هـ .

ودليله لنا :

أولا : ما ذكره صاحب السيرة الحلبية وزاد المعاد وفى البخارى أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ورؤيا الأنبياء وحى[3] ، قال بعضهم معناه أن النبى صلى الله عليه وسلم حين بعث أقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ، فمدة

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢٥ .

(٢) انسان العيون ج ١ ص ٢٦٨ . زاد المعاد ج ١ ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) راجع ص ٢٩٥ ج ١ الحلبية .

الوحى إليه فى اليقظة ثلاث وعشرون سنة ومدة الوحى إليه فى المنام — أى التى هى الرؤيا — ستة أشهر [١] ا. هـ .

فاذا كانت فترة التحنث مسبوقة بثم دل ذلك على أن الرؤيا الصادقة سابقة على التحنث فى غار حراء .

ثانيا : ابن حجر نفسه يعلل لتزود النبى صلى الله عليه وسلم للخلوة من كل عام بأن هذا الاستعداد والتأهب لا ينافى التوكل لوقوعه من النبى صلى الله عليه وسلم بعد حصول النبوة له بالرؤيا الصالحة وإن كان الوحى فى اليقظة قد تراخى ا . هـ . . بل إنه يقول صراحة : حكى البيهقى أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده وهو ربيع الأول بعد كماله أربعين سنة ، وابتداء الوحى اليقظة وقع فى رمضان [٢] .

وقد عد فضيلة الدكتور محمد أبو شهبة هذه الرؤيا من أقسام الوحى وجعلها رديفة لرؤية دخول المسجد الحرام [٣] .

---

(١) راجع البخارى كتاب التعبد باب الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة — فتح البارى ج ١٦ ص ٢٩ .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٣٤٦ .

(٣) راجع السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة ص ٢٧٥ فتح البارى ج ١ ص ٣٠ .

وعلى هذا فالملة التى كان يتحنث بها أو عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى ملته هو ، هى ملة الأنبياء جميعاً ، هى ملة الإسلام التى حملها نبى بعد نبى من لدن إبراهيم حتى العاقب الذى ختم الله به الرسالة ، والله هو الذى يرعاه ويصطفى إليها من يحملون شعلتها والرسول الكريم الأمين الصادق إنما هو تابع فى دعوته وهدايته إلى تلك الشجرة المباركة من الدعاة الهداة ، وهو يؤدى واجبه الذى ناطه الله به لوجه الله ولحساب الله وللبشرية جمعاء ، لا لهذا الجيل من العرب ، بل للناس أجمعين ، فليس الفاصل الزمنى بين إبراهيم الجد ومحمد الحفيد عليهم السلام بفاصل بين حقيقة الرسالتين فهما من معدن واحد ، بل هما شئ واحد فى الأصل الذى قامتا عليه وهو توحيد الله وإخلاص العبودية لجلاله[1] يقول الله تعالى :

(قل ما كنت بدعا من الرسل) الأحقاف ٩ .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) الأنبياء ٢٥ .

(واسأل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) الزخرف ٤٥ .

---

(١) راجع تفسير فى ظلال القرآن ج ٧ ص ٨٤ ، ٨٥ ط أولى الحلبى وراجع التفسير القرآنى للقرآن مجلد ٣ ص ٣٩٤ دار الفكر العربى .

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) الأنبياء ٩٢ .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألك عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين) سورة الأنعام ٩٠ .

لقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء نبياً ، وعبد الله على دين الإسلام ، كما عبده كل الأنبياء والمرسلين ، ومن هنا فليس من الجيد أن يطيل الباحثون الحديث حول الملة التي كان يتعبد بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فترة الخلوة في غار حراء .

لقد تحدث ابن حجر عن ذلك فعرض الآراء وعدها ثمانية ، وحكى منها سبعة :

أحدها : آدم حكاه ابن برهان .

الثاني : نوح حكاه الآمدى .

الثالث : إبراهيم ذهب إليه جماعة واستدلوا بقوله تعالى : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) .

الرابع : موسى .

الخامسة : عيسى

السادس : بكل شئ بلغه عن شرع نبي من الأنبياء وحجته (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

السابع : الوقف ، واختاره الآمدى ثم مال إلى الثالث فقال : ولا يخفى قوة الثالث ولا سيما مع ما نقل من ملازمته للحج والطواف ونحو ذلك مما بقى عندهم من شريعة إبراهيم والله أعلم [١] .

وهو عرض يعز على كثيرا أن أرده لأن ابن حجر له منزلة سامقة فى خدمة الإسلام فكيف يذهب إلى ذلك وقد جنح فى غيره مرة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم بدئ بالنبوة بالرؤيا الصالحة ، واختار هو وقوع الخلوة فى غار حراء بعد الرؤيا الصالحة ، أفلا يكون من المنطق أن يكون التحنث فى غار حراء فى جو نبوى خاص معلوم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان الوحى فى اليقظة قد تراخى على حد تعبير ابن حجر نفسه [٢] ؟

لم يكن ابن حجر وحده هو الذى استعرض هذا الموضوع بل جلة الكاتبين قد تظاهروا على ذلك .

لقد كتب ابن كثير فى سيرته [٣] :

وكتب الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية [٤] .

---

(١) فتح البارى ج ١٠ ص ٣٤٥ .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٤٥ ، ص ٣٤٦ فتح البارى .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣٩١ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد .

(٤) ج ١ ص ٢١٠

وكتب الشيخ طاهر الجزائرى الدمشقى فى كتابه : توجيه النظر فى أصول الأثر [١] :

وكتب ابن الجوزى فى كتابه الوفا بأحوال المصطفى [٢] .

وكتب علماء أصول الفقه :

وتركوا هذه الكتابة هكذا . . . وهم يقرءون فى إرشاد السارى وفى غيره من كتب الحديث :

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى إليه الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء [٣] . . . . . الخ .

مما يفيد أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غار حراء نبياً كما صرح بذلك الإمام الدهلوى ، وذهب إليه القسطلانى فى ترتيبه الخلوة على الرؤيا حسبما صرح به فى لفظ الحديث الذى روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها .

---

(١) ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) راجع الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ١٣٨ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد .

(٣) ارشاد السارى ج ١ ص ٦٢ راجع صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٩ باب بدء الوحى تحقيق المرحوم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

أما تصدى علماء أصول الفقه لهذا الموضوع فهو خروج على وظيفة مادة علم أصول الفقه فقد ذكروا أن أصول الفقه هو : معرفة دلائل الفقه الإجمالية .

وأن المسائل الفقهية إذا ذكرت فيه فانما على سبيل المثال ، قال فى جمع الجوامع : وقياس الأرز على البر فى امتناع بيع ببعض إلا مثلا بمثل يدا بيد كما رواه مسلم واستصحاب الطهارة لمن شك فى بقائها فليست أصول فقه وإنما يذكر بعضها فى كتبه للتمثيل[1] .

وتعبد النبي صلى الله عليه وسلم إن كان قبل الرسالة فلا يتعلق به غرض من أغراض أصول الفقه ، إذ غرضه مرتبط بالأدلة الإجمالية ، ولا كذلك تحنث النبي صلى الله عليه وسلم فى غار حراء قبل البعثة .

وإن كان تعبده بعد الرسالة فليس ثمة نص شرعى قد بلغ حتى تتعلق به وظيفة لأصول الفقه .

يقول فضيلة الشيخ الخضرى رحمه الله تعالى :

إن هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه[2].

---

(١) حاشية البنانى على شروح الجلال شمس الدين محمد أحمد المحلى ج ١ ص ٣١ ط الحلبى .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦٥ الشيخ محمد الخضرى .

وقد أكد هذا أبو اسحق الشاطبي إذ يقول : كل مسألة مرسومة فى أصول الفقه لا ينبنى عليها فروع فقهية أو آداب شرعية أو لا تكون عونا فى ذلك فوضعها فى أصول الفقه عارية . ثم قال : وعلى هذا يخرج عن أصول الفقه كثير من المسائل التى تكلم عليها المتأخرون وأدخلوها فيها كمسألة ابتداء الوضع ومسألة الإباحة . . ومسألة أمر المعدوم ومسألة هل كان النبي صلى الله عليه وسلم متعبداً بشرع أم لا [1] . . . الخ .

ونخلص من هذا — والحمد لله — إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فى غار حراء على ملة الإسلام الحنيف بعد أن هيأه ربه منذ الأزل لهذه النعمة والرحمة كما يقول الآلوسى فى تفسيره : (ألم يجدك يتيما فآوى) تعديداً لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالحاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا وانشراحا وحبورا [2] .

فكان صلى الله عليه وسلم آخر غصن فى أعلى منزلة من الشجرة المباركة التى حملت إلى الناس دين الله الحنيف ، وقد أوحى الله إليه

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة ج ١ ص ٤٣ لأبى اسحق الشاطبى ط المكتبة التجارية .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٣٠ ص ١٦١ .

القرآن وأنزله عليه بعد أن اصطفاه نبياً فكانت « اقرأ » بدء مرحلة جديدة للرسالة بعد الاطظفاء ولهذا تحدث القرآن الكريم عن نزول القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم ولم يتحدث عن اختياره رسولا لأن الاصطفاء آخر مرحلة التربية التى يترتب عليها الاتصال بالوحى فقال الله تعالى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) فمتى نزل القرآن الكريم على محمد الأمين صلى الله عليه وسلم أقبل الاصطفاء أم بعده أبا القر آن أصطفى ؟ أو بالقرآن تحمل الرسالة بعد الاصطفاء ؟

أما سورة الدخان ففاصل يبين الجواب الشافى :

(إنا أنزلاه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين) . فى ليلة الإنزال كان الإنذار فاتحدت الوظيفة بنزول القرآن فدل ذلك على تقدم مرحلة الاصطفاء للرسالة وهى التحنث الذى حبب إليه بعد الرؤيا الصادقة التى كان بها [1] نبياً :

وأختم هذا الحديث بما رواه الإمام أحمد ، حدثنا شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد [2] .

---

(١) راجع الطبرى ج ٢٥ ص ١٠٧ ، ١٠٨ الآلوسى ج ٢٥ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٣١٨ – الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٤٨ .

تصفية ... ؟

« فرجع بها يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى ، زملونى حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى » . ا . هـ البخارى .

أى شئ رجع به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن تلقى الوحى يقظة وبالصورة الطبيعية للملك ؟

لقد رجع بالنبوة الواضحة له وبالآيات البينات عنده ، ورجف فؤاده غبطة بحاله وإقباله على الله عز وجل .

وخشى أن يشتغل بغير الله عن الله فان أعباء النبوة ومعالجة شدة الوحى اعباء فوق طاقة البشر [1] .

يؤكد هذه الحقيقة حالات النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن حمى الوحى وتتابع ، وصار مألوفا عنده فقد روى البخارى رضى الله عنه عن عائشة رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام رضى الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعى مايقول ،

---

(١) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢١ .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : ولقد رأيته يتنزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقا[1] .

ولكن الكاتبين لم يعالجوا الموضوع فى ظروفه المشابهة بعد أن تتابع الوحى بل ذهبوا يضعون تفسيرات قد لا تتفق مع جلال الموقف وعصمة النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد نقل ابن حجر فى محاولة تفسير : « لقد خشيت على نفسى » اثنى عشر قولاً : أولها : الجنون وآخرها : تعييرهم إياهم وهو تفسير لا يخرج عن محيط الذات البشرية العادية ، فليس فى حساب محمد صلى الله عليه وسلم وقد أكرمه الله تعالى وهيأله الجو وسلم عليه الحجر وجاءته الرؤيا الصادقة أن يكون مغضوبا عليه فيكون مجنونا أو يأتيه هاجس أو مرض أو عجز أو قاق أو يتسلط عليه انسان بالقتل .

لم يكن فى حسابه قوى البشر ولا قوى الجن فانه يدرك أنه فى كنف ربه وفى رضوانه وعنايته ، ولكن المسألة فى أولها كالمسألة فى استمرارها .

إن الاتصال بالملك هو هكذا اصعب حتى أن جبينه الشريف ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد . قال القسطلانى : وإن جبينه ليتفصد

(١) البخارى بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٢١ — ٢٤ شرح فتح البارى — راجع الخصائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ٢٩٥ راجع كتاب التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول للشيخ منصور على ناصف ج ٣ ص ٢٥١ طبعة عيسى الحلبى ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ .

عرقا : من كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحى إذ أنه أمر طارئ زائد على الطباع البشرية ، وإنما كان كذلك ليبلو صبره فيرتاض لاحتماله ما كلفه من أعباء النبوة [1] ا . ﻫ .

وهذا هو الذى عرضه فى طول صاحب السيرة الحلبية إذ قال :

وقوله يأتيني أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا .

وكان صلى الله عليه وسلم يجد ثقلا عند نزول الوحى ، يتحدر جبينه عرقا فى البرد كأنه الجمان وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه وعن زيد ابن ثابت رضى الله عنه كان إذا نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل لذلك ، ومرة وقع فخذه على فخذى فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربما أوحى اليه وهو على راحلته ، يترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم ، وربما بركت وجاء أنه لما نزلت سورة المائدة عليه صلى الله عليه وسلم كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها وفى رواية فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة . . وجاء : ما من مرة يوحى إلى ظننت أن نفسى تقبض منه ، وعن أسماء بنت عميس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى يكاد يغشى عليه ،

---

(١) القسطلانى : ارشاد السارى ج ١ ص ٦٠ .

وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى استقبلته الرعدة ، وفى رواية كرب لذلك وتربد له وجهه ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر [١] . . . الخ .

فكان ينبغى أدبيا ، وخلقيا ثم علميا أن تفسر جميع الألفاظ التى وردت فى حديث البخارى فى باب بدء الوحى ، وفى كتاب التعبير على نحو يتساوق مع منزلة النبى صلى الله عليه وسلم وتربيته الالهية ولقد أشار ابن هشام إلى هذا بعبارة قصيرة ويا ليته كان أطنب واستفاض . يقول :

ثم تتام الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مؤمن بالله مصدق بما جاء منه قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه [٢] ا . هـ . فيضيق ابن هشام دائرة التشكيل حول عبارات الحديث التى أطنب فيها

---

(١) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ راجع كذلك كتاب الدرر لابن عبد البر ص ٣٣ تحقيق الدكتور شوقى ضيف تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٣٥ ، راجع كذلك الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٩٧ ، راجع كذلك الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٧ ، راجع الوفا ج ١ ص ١٧١ ، راجع التاج الجامع للأصول ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

الكاتبون بما لايليق بالذات النبوية الكريمة ، ثم يضع الاطار العام ، فى جوه الربانى وأثقاله الطبيعية : ولا يضع حسابا للناس أرضوا أم سخطوا .

وليس من المقبول أن تقول السيدة خديجة رضى الله عنها لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق [1] حسبما روى البخارى ، أو تقول له حسبما روى ابن هشام :

أبشر يابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمه [2] .

ليس من المقبول أن تقول السيدة خديجة هذا لمجرد ماتعرفه من دلائل النبوة ثم يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم — وحاشاه ذلك أن يكون حال تغايرها فى اليقين والتثبت .

ولهذا فان التفسير الذى ينسجم مع حق النبوة هو ما ذكره الامام الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية :

ولم تكن الرجفة المذكورة فى قوله فرعبت منه خوفا من جبريل عليه السلام فانه صلى الله عليه وسلم أجل من ذلك وأثبت جنانا ،

---

(١) البخارى بدء الوحى . (٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٠ .

وإنما رجف غبطة بحاله وهى فى الأصل حسن الحال كما فى القاموس ، وإقباله على الله عز وجل فخشى أن يشتغل بغير الله عن الله ، وقد آمن الله خوفه ، فلم يكن يشغله عن الله شىء[1] وذلك هو الرأى الصافى الذى ينبغى أن تسير عليه المفاهيم .

تصحيح ...

من حديث فى البخارى — كتاب التعبير — وفتر الوحى حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنا — حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال يامحمد : إنك رسول الله حقاً[2] . الحديث .

الأحاديث المتعلقة ببدئ الوحى ذكرها البخارى فى :

١ — باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة[3] ، وهذه الرواية ليس فيها النص المذكور آنفا ولكن فيها ابن شهاب .

---

(١) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٢١ راجعت القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤٧ ولسان العرب ج ٩ ص ١١٢ ، ١١٣ وأساس البلاغة ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ فى مادة رجف فلم أجد المعنى المشار اليه هنا .

(٢) فتح البارى ج ١٦ ص ١٢ . (٣) فتح البارى ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ .

٢ ـ فى تفسير سورة « اقرأ » من طريقى : يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة والطريق الآخر : عن سعيد بن مروان عن محمد بن عبد العزيز بن أبى رزمة عن أبى صالح سلمويه عن عبد الله عن يونس بن يزيد عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة .

وليس فى هذا الحديث النص المذكور سالفا وفى طريقيه ابن شهاب الزهرى .

وفيه أن ابن شهاب روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن جابر ابن عبدالله الأنصارى رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى قال فى حديثه : بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ففرقت منه فرجعت فقلت زملونى ، زملونى[1] . الحديث وليس فيه شئ ما عن النص المذكور .

٣ ـ فى كتاب التعبير باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب :

---

(١) فتح البارى ج ١٠ ص ٣٤ ـ ٣٥٠ .

وعبد الله بن محمد عن عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة[١] ؛

وذلك الحديث هو الذى فيه النص السالف من طريق عبد الرازق عن معمر عن الزهرى وقد كان ينبغى محافظة على المفاهيم الإسلامية عن التشويش أن يجتهد العلماء فى الموازنة بين هذه الأسانيد ويحذفوا ذلك النص فليس فيه كثير غناء بله فيه كبير شفاء للثقافة الإسلامية والسيرة النبوية من الزيغ والوسوسة ؛

ومع أن العلماء ناقشوا الموضوع وذهبوا إلى أنه من البلاغات وهى من قبيل المنقطع الضعيف غير أنهم تلمسوا تعاليل كأنها توهم بتمسكهم بهذا النص مع أن الرواية التى فيها ذلك النص الشارد عن جلال السيرة النبوية فيها عبد الرازق وقد قال فيه العلماء :

قال ابن عدى : حدث بأحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها أحد . ونسبوه إلى التشيع .

وقال الدار قطنى : ثقة لكنه يخطئ على معمر فى أحاديث ، وقال عبد الله بن أحمد سمعت يحيي يقول : ما كتبت عنه كتابة سوى حديث واحد[٢] .

---

(١) راجع فتح البارى ج ١٦ ص ٣٥٠ وما قبلها .

(٢) راجع ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٦١٠ تحقيق البجاوى ط ع الحلبى .

ولكن الكاتبين ارادوا أن يلحقوا هذه الزيادة بمعمر إذ قال فى ارشاد السارى «وكذلك صرح الإسماعيلى أن الزيادة فى رواية معمر [1]».

ولكن معمر من الأعلام الثقات قال فيه أحمد :

ليس يضم إلى معمر أحد إلا وجدته فوقه .

وقال ابن معين : معمر أثبت من ابن عيينة فى الزهرى [2].

فلم يبق إلا اسناد هذه الزيادة إلى عبد الرازق وهو غير مأمون .

قال فيه ابن عيينة : أخاف أن يكون من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا .

غير أن الذى يعكر على معمر براءته من هذه الزيادة ما رواه الطبرى فى تاريخه أن معمر روى عن الزهرى فى فترة الوحى : فحزن حزنا شديدا جعل يغدو إلى رءوس شواهق الجبال ليتردى منها . . . الخ .

لكنه لم يجعل ذلك مرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وصفا لسلوكه فى تلك الأثناء الأولى من استقبال الوحى ؟

أما نص الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحى فيما رواه معمر عن الزهرى فى تاريخ الطبرى فنصه : «فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحدث عن ذلك ، قال فبينما أنا أمشى

---

(١) ارشاد السارى ج ١٠ ص ١٢٢ .

(٢) ميزان الاعتدال ج ٤ ص ١٥٤ .

يوما إذ رأيت الملك الذى كان يأتينى بحراء على كرسى بين السماء والأرض فجئثت منه رعبا فرجعت إلى خديجة فقلت : زملونى زملونى ؟

فالرواية عن معمر هنا ليس فيها الزيادة المروية فى البخارى لكن فى كلام الطبرى نسبة التردى اليه (ص ٣٠٥ طبرى) . وعلى كل حال فان هذا الحديث قد أخرجه أحمد ومسلم والإسماعيلى وغيرهم وأبو نعيم أيضا من طريق جمع من أصحاب الليث عن الليث بدونها [١] .

والليث هو من رواة هذا الحديث عند البخارى فى كتاب التفسير (سورة العلق) وكتاب التعبير كذلك ، وعلى هذا فلا محل للدفاع بمثل قولهم : مع أنه قد يحمل على أنه كان أول الأمر أو أنه فعل ذلك لحرجه من تكذيب من يبلغه وهو من بلاغات الزهرى وليس موصولا . . . ويحتمل أن يكون يبلغه بالاسناد المذكور [٢] . . . الخ . فاذا كان هناك نص موصول إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحى بأسلوب يتفق مع كرامته وعظمته وسويته فهو أولى بالقبول وغيره مهما كان فسنده أجدر بالرفض لاسيما إذا كان فى رجاله وهن ،

---

(١) ارشاد السارى ج ١٠ ص ١٢٢ ، راجع مسلم ج ١ ص ١٤٢ باب بدئ الوحى حديث رقم ٢٥٣ تخريج محمد فؤاد عبد الله .

(٢) فتح البارى ج ١٦ ص ١٢ .

ونستأنس فى هذا[1] برأى عالم متخصص فى هذا المجال هو فضيلة الدكتور محمد أبو شهبة : إذ يقول : وفى بعض روايات صحيح البخارى : ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنا — حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ... الخ . النص وهذه الرواية ليست على شرط الصحيح لأنها من البلاغات وهى من قبيل المنقطع ، والمنقطع من أنواع الضعيف والبخارى لا يخرج إلا الأحاديث المسندة المتصلة برواية العدول الضابطين ، ولعل البخارى ذكرها لينبهنا إلى مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحى الذى لم تذكر فيه هذه الزيادة .

ولو أن هذه الرواية كانت صحيحة لأولناها تأويلا مقبولا ، أما وهى على هذه الحالة فلا نكلف أنفسنا عناء البحث عن مخرج لها (٣)

وهذا ما كنت أوده من شيوخنا القدامى فى كتبهم الجليلة التى تعد كزاد للمسلم خاصة فى التفكير والبحث .

نعم هم قد دافعوا ولكنهم زجوا بالقضية فى احتمالات عقلية ثم دافعوا عنها مثلما قالوا : فعل ذلك بنفسه ولم يرد بعد شرع بالنهى عنه فيعترض به . . ا . هـ

---

(١) المشار اليه هو رفض الزيادة بغض النظر عن مناقشة نسبتها إلى راو .

(٢) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ص ٢٦٨ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢١٦ .

فان العصمة طبع للنبي صلى الله عليه وسلم منذ النشأة روى ذلك صاحب شرح المواهب اللدنية نفسه فى تفسير : (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك . . .) .

قال : كما قال ابن عباس : أى أنه على سبيل الفرض والتقدير لأنه كغيره من الأنبياء معصومون حتى من الصغائر قبل النبوة ولو سهواً على الأصح لكرامتهم على الله (١) اه . وإليه مال الشاطبي فى الموافقات (٢) — والقاضى عياض فى الشفاء .

فكان الأليق بمقام النبوة الزكى أن يصحح هذا الجزء بالحذف أو يعرض له بالإبطال فقط دون التشقيق العقلى والدفاع بالتأويل المتكلف احتياطاً للحق فى مجال تصوير منزلة النبي الكريم .

وأختم هذا الحديث بما رواه أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أتانى جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول :

أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله تعالى أعلم ، قال) : إذا ذكرت ذكرت معى) (٣) .

---

(١) شرح المواهب ج ٥ ص ٢٧٩ ، راجع كذلك الموافقات للشاطبى ج ٤ ٢٥٤ .

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة لأبى إسحق الشاطبى ج ٣ ص ٢٥٤ ، شرح الشفاء ج ١ ص ١١٧ لعلى القارى سنة ١٣٢٥ هـ . ط . الأزهرية .

(٣) روح المعانى ح ٣٠ ابن كثير ج ٤ ص ٥٢٥ .

راجع الشفاء شرحى على القارى وخفاجى ج ١ ص ١٢٣ — ١٢٤ .

الفصل الثانى
فى التطبيق التاريخى

تمهيـد :

دلائل النبوة
بين ادراك الواعين وتجاهل الغافلين

يذهب ابن خلدون — وهو صاحب باع فى التحليل الاجتماعى للتعاشر الإنسانى من جميع جوانبه — يذهب إلى أن الأنبياء يوجد لهم قبل النبوة والوحى خلق الخير والذكاء وينسب ذلك إلى مقدمات النبوة ودلائلها[1].

ولكن بعض المعجبين بالعقل ذاتياً ويفاخرون به ينكرون أو يتجاهلون تلك المقدمات ، ويحاولون أمام الكثرة الكثيرة من النصوص التى يرويها ثقات العلماء الذين تسمح لهم ظروف حياتهم فى عصورهم باستحقاقهم الافضلية فى العلم والدين . يحاول هؤلاء المتجاهلون أن

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٤٧ تحقيق دكتور على عبد الواحد ، راجع حول هذا الموضوع الخضرى بك تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٦١ ، راجع الإسلام والايمان بفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٣١ ط الثانية ١٩٦٩ راجع فتح البارى ج ١٠ ص ٣٤٥ — ٣٥١ .

يشوهوا هذه النصوص إما بادعاء تفاهة المعنى أو أن الإسلام لا يحتاج إلى مثل هذه النصوص ، أو أن السند غير موثوق فيه — ادعاء منهم — الخ ولا يضر الإسلام فى قليل أو أكثر هذا الاتجاه بقدر مايضر سمعة المسلمين أنفسهم أن يتولى هذا التيار بعض علماء الاسلام ومن الأزهر الشريف ولقد تصدى لنموذجية هذه الفكرة فضيلة الدكتور محمد خليل الهراس فى تعليقاته على الخصائص الكبرى للامام السيوطى رحمه الله ولو أنه حدد منهجا للنقد لكان صادقا فى وجهته كخط فكرى يسير عليه ولكنه اضطرب فتارة عارض فكرة الدلائل وتارة وافق عليها دون أن يلاحظ ماسبق له من تعليق :

ومثال هذا قوله :

١ — المعروف أن العرب كانوا فى غفلة عن أمر النبوة وقد حكى القرآن منهم الانكار الشديد لأن يكون بشر رسولا فكيف يطمعون فى النبوة لأبنائهم ، نعم هناك نفر قليل من العرب فارقوا وثنيتهم ودخلوا دين النصرانية كأمية ابن أبى الصلت وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش ونحوهم . . . وكان بعضهم يطمع فى النبوة كأمية فلما فاتته كفر حسدا (١).

والنص نفسه مخلخل لأنه اعترف بأن أمية بن أبى الصلت كان يطمع فى النبوة فلماذا كان يطمع أمية ؟ ألا لأنه كان يسمع عن نبوة خاتمة

(١) الخصائص الكبرى ج ٧ ص ٥٨ حاشية رقم (٢) .

ستكون فى العرب ؟ أو لمجرد تخيل . .. ؟ أليس الأول أحق بالقبول؟ ومع هذا فان الشيخ نفسه يقول مرتضيا هذا الذى نقله فى تعليقه .

٢ — الآية المشار إليها هى قوله تعالى من سورة آل عمران (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم ، وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) ، وقد اختلف المفسرون فى المراد بها فذهب الجمهور إلى القول بأن الله أخذ الميثاق على كل نبى أنه إن عاش إلى زمان الرسول الذى يجئ بعده أن يؤمن به وينصره لأنهم بعثوا جميعاً بدين واحد فيجب أن يصدق بعضهم بعضاً ويتناصروا فى الدعوة إليه ، وروى عن على وابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالآية . أن الله أخذ الميثاق على جميع النبيين أنهم إن أدركوا زمان محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وينصروه ثم أمرهم أن يأخذوا العهد على أممهم بذلك ولا تعارض[1] .

وهذه واحدة من علامات النبوة والارهاصات بها .

ويقول فى تعليقه على السدى : لم يبعث نبى قط من لدن نوح إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد ، لينصرنه إن خرج وهو حى . . . الحديث .

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٤ حاشية رقم (٢).

قال الشيخ المراس :

١ ــ هذا موافق لما رويناه من تفسير على وابن عباس رضى الله عنهما[١].

وهذا الحديث صريح فى الارهاص بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول كذلك : لاشك أن التوراة والإنجيل كانا مشتملين على كثير من نعوته صلى الله عليه وسلم ونعت أمته والكتاب المنزل عليه وكان فيهما تحديد زمان مبعثه حتى إن اليهود والنصارى قبيل البعثة كانوا يبشرون بقرب ظهوره ولكنهم لما بعث حسدوا العرب على ذلك الفضل فجحدوا كثيرا من هذه النعوت [٢] . ا هـ .

وتلك واحدة من الدلائل واعتراف بأنه اليهود بشروا بها .

ويقول : الآية صريحة فى أن اليهود كانوا ينتظرون مبعثه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويتهددون به من يقاتلهم من العرب ، ومعنى يستفتحون كما قال ابن جرير يستنصرون بخروج محمد على مشركى العرب فلما بعث الله محمدا ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه [٣].

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢ حاشيته رقم ١ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٦ حاشيته رقم ١ .

(٣) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٥٧ حاشيته رقم ١ .

وإذن فالعرب كانت تعرف من هذا التحدى أن هناك نبياً سيبعث واسمه محمد .

ويقول كذلك :

٢ — قال ابن قتيبة ، كان زيد رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين الحنيف حتى وقع على رجل بالجزيرة فوصف له دين إبراهيم وقال : ارجع إلى بلادك فقد دنا خروج نبي فاذا خرج فاتبعه ثم رجع إلى الشام فقتله النصارى [1] .

وتلك كذلك من بشائر النبوة وعلاماتها وإذن فلم تكن العرب على غفلة من أمر النبوة بدليل ماقاله الشيخ نفسه فيما نقل عنه هنا أما تعليله لغفلة العرب بإنكارهم الشديد للرسالة فهو محل نظر ، لأن صاحب الدرر نفى انكارهم بادئ بدء وأثبت اعترافهم بالإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم عاندوه عندما سفه أحلامهم وسب آلهتهم قال فى كتاب الدرر : « فاستجاب له ماشاء الله من الأحداث والكهول وضعفة الناس حتى كثر من آمن به وصدقه وكفار قريش غير منكرين لما يقول ، يقولون إذا مر عليهم : إن غلام بنى هاشم هذا ويشيرون إليه — ليكلم * زعموا * من السماء ، فكانوا على ذلك حتى عاب آلهتهم التى كانوا يعبدون ، وذكر هلاك آبائهم الذين

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٦٠ .

ماتوا كفارا ، فغضبوا لذلك وعادوه ، فلما ظهر الإسلام وتحدث به المؤمنين أقبلوا عليهم يعذبونهم [١] . . . إلخ » .

فضاعت بذلك العلة التى استند إليها فضيلة الشيخ الهراس فى نفيه للعلامات .

والدكتور الهراس يسلم بالأحاديث التى تدل على الارهاص بالنبوة فهو يعلق فى ص ٢٤٤ على حديث : أنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث انى لأعرفه الآن ، بقوله :

نطق الجمادات له عليه السلام من جملة معجزاته الثابتة فى الصحيح . . . . إلخ ؟

وذلك تسليم بمبدأ الإرهاصات ويعلق على حديث عمر : بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ منه صارخ لم أسمع صارخاً قط اشد صوتا منه يقول : يا جليح امر نجيح رجل نصيح يقول : لا اله الا الله فوثب القوم ، قلت لا أبرح حتى أعلم ماوراء هذا ، ثم نادى كذلك الثانية ، — والثالثة فما نشبنا أن قيل هذا نبى يقول الشيخ الهراس فى تعليقه على هذا : رواه البخارى عن عمر فى باب إسلام عمر [٢] ... ويسكت فهل لظنه فى ص ٢٠١ محل بعد ذلك؟

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص ٣٨ راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٩ الحلبية ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٥٢ .

ومع هذا فان سنة الله تعالى مع أنبيائه هى كذلك دائما أن يمهد لهم بإرهاصات تسبق الإعلام بنبوتهم ومن امثلة ذلك ؟.

١ ـ الارهاص لآدم عليه السلام :

(واذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) قال الشيخ السبكى رحمه الله : أدرك الملائكة من هذا أو من امارات بجانب هذا النبأ أن ذلك تنويه بما سيكون لآدم فى هذا العالم . . . ثم قال : فذلك ارهاص مبكر تنبه له الملائكة [١] . . . الخ .

٢ ـ الارهاص لاسماعيل عليه السلام :

(فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين) ١٠١–١٠٥ من سورة الصافات .

يقول الشيخ السبكى رحمه الله : وبعد ذلك أذن الله بإرهاصة ثانية لإسماعيل وهى موقفه من أبيه حينما أخبره بما أوحى إليه من ذبحه قربانا إلى الله .

---

(١) الوحى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى ص ١٢ .

ويقول رحمه الله : ثم كانت ارهاصة ثالثة مذكورة فى قوله تعالى :
(وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) ١٢٥ من سورة البقرة . فإن يكن تطهير مكان البيت الحرام وإقامة بنائه عهدا من الله تعالى إلى ابراهيم وتلك رسالته وهو نبى مبعوث فإن هذا بالنسبة إلى إسماعيل إرهاص واضح من جانب الله بما سيكون له من شأن بعد ذلك وقد كان وتحققت رسالته بعد تلك الملامح السالفة » (١) .

٣ ــ الارهاص لاسحق ويعقوب عليهما السلام :

(وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب)
٧١ من سورة هود .

فبشرى الملائكة لإبراهم إرهاص بولد وحفيد له هما إسحق ويعقوب وتمضى آيات كثيرة فى القرآن تصور الارهاصات للأنبياء .

٤ ــ فالارهاص لسيدنا يوسف فى قوله تعالى :

(إذ قال يوسف لابيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين) ٣-٤ يوسف .

ويشاء الله تعالى أن تتم هذه الإرهاصات وتحدث وقائعها وتتحقق الرؤيا ويكون ختامها (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا

---

(١)-(٢) راجع ص ١٢ – ١٥ الوحى إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

مصر إن شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) الأيات ٩٩-١٠٠ من سورة يوسف .

٥ ـ وهكذا الارهاص لسيدنا موسى :

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) الآية ٧ سورة القصص .

٦ ـ ومثله سيدنا عيسى :

(إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ، قالت ، ربى أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون .) الآيات ٤٥-٤٧ من سورة آل عمران .

فصار الحديث الآن عن دلائل النبوة أو الإرصاهات لها أو علاماتها حديثاً غير منكر بل هى سنة من سنن الله التى سنها لكثير من أنبيائه وقد اتفق الموافقون والمعارضون فيما يتعلق بالإرصاهات على أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد سبق اسمه ونعته فى الكتب السابقة وتلك من علامات النبوة ودلائلها .

ولم ينكر واحد من المؤرخين أو المحدثين ما قال (١) بحيرا لأبى طالب عندما شاهد النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى سفرته الأولى إلى الشام وكلام بحيرا كلام فقيه من أهل الكتاب وتلك كذلك من علامات النبوة .

قال فى المواهب اللدنية ، اخرج البيهقى من طريق العلاء بن جارية الثقفى عن بعض أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان لايمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة وهى تحييه بتحية النبوة التى لم تكن معروفة قبلها إكرماً وإعلاما بأنه سيوحى إليه بالرسالة (٢) .

قال ابن الأثير فى كتابه : الكامل فى التاريخ :

وكان صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر له جبريل يرى ويعاين آثار من آثار من يريد الله إكرامه بفضله ، وكان من ذلك ماذكرت من شق الملكين بطنه واستخراجهما ما فى قلبه من الغل والدنس ،

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) راجع شرح المواهب للزرقانى ج ١ ص ٢١٩ .

راجع كذلك اعلام النبوة ص ١٥٢ ، دلائل النبوة للبيهقى تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ط أولى ، ج ١ ص ٤٠٢ .

ومن ذلك أنه كان لايمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه فكان يتلفت يميناً وشمالا فلا يرى أحداً ، وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل آمة قومها بذلك [١] .

وقد عقد الشيخ محمد بن سعد فى كتابه الطبقات الكبرى فصلا كاملا تحت عنوان ، ذكر علامات النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى [٢] إليه ومثله فى السيرة الحلبية : إنسان العيون فى سير الأمين المأمون [٣] ضمنه عديداً من الدلائل التى تعبئ البيئة وتهيئها لاستقبال بعثته الشريفة صلى الله عليه وسلم والامام العلامة أبو الحسن بن محمد الماوردى يقدم لهذه الدلائل بمنطق متزن فيقول فى كتابه (أعلام النبوة) : العقل الهى ركبه الله تعالى فى النفوس الناطقة فهو ينذر بالخواص الكائنة حدثاً ويعلم بعد الوجود حساً فقل حادث إلا تقدم نذيره وبحسب خاطره يكون تأثيره ولا حادث أعظم مما جدده الله تعالى بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فاقتضى أن تكون بشائر نبوته أشهر وشواهد آياته أظهر [٤] .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٠ — ١٦٨ ط بيروت .

(٣) ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٥٧ .

(٤) اعلام النبوة ص ١٠٣ .

قال فى حجة الله البالغة :

وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم يجبلون على هذه الصفات ويندفعون إليها فطرة فطرهم الله عليها : ذكره إبراهيم عليه السلام السلام فى دعائه وبشر بفخامة أمره ، وبشر به موسى وعيسى عليهما السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم .ورأت أمه كأن نوراً خرج منها فأضاء الأرض فعبرت بوجود ولد مبارك يظهر دينه شرقاً وغرباً وهتف الجن وأخبرت الكهان والمنجمون بوجوده وعلو أمره ودلت الواقعات الجوية كانكسار شرفات كسرى على شرفه واحاطت به دلائل النبوة كما أخبر هرقل قيصر الروم ورأوا آثار البركة عند مولده وارضاعه وظهرت الملائكة فشقت عن قلبه فملأته إيماناً وحكمة وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب اهلاكا وقد بقى منه أثر المخيط وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة ولما خرج به أبو طالب إلى الشام فرآه الراهب شهد بنبوته لآيات رآها فيه [1] :

يقول شيخنا فضيلة العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود : لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحاً مستفيضاً وتوضيحاً كاملا وتعبيراً تاماً لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات النبوة [2] . : :

---

(١) حجة الله البالغة ج ٢ ص ٨٦٢ ، ٨٦٣ .

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم لمحات من حياته ونفحات من هدية الكتاب =

ولهذا آثرت أن أقدم عدة نماذج لبعض الذين عاشوا فى بيئة الدلائل ثم شرفوا بمشاهدة أنوار النبوة ليحدث التطابق بين التهيئة والاستجابة إيجاباً أو سلباً ، « فانك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فتكون تلك هى الخط الفاصل والدليل المستبين على صدق مرحلة التمهيد وأهميتها فى توعية المجتمع ليستقبل النور الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

واختم هذا الحديث بما رواه الإمام الزهرى رضى الله عنه : كان الوحى يستمع ، فلما كان الإسلام منعوا وكانت امرأة من بنى أسد يقال لها سعير لها تابع من الجن فلما رأى الوحى لايستطاع أتاها فدخل فى صدرها وجعل يصيح وضع العناق ، ورفع الرقاق ، وجاء أمر لايطاق ، أحمد حرم الزنا[1] ؟

روى الماوردى عن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو ابن نفيل يقول : أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل من بنى عبد المطلب ولا أرانى أدركه وأنا أومن به واصدقه وأشهد انه نبي فان طالت بك مدة فرأيته فاقرأه منى السلام وساء خبرك مانعته حتى لايخفى عليك

= الرابع عشر من سلسلة البحوث الإسلامية ص٦١ دكتور عبد الحليم محمود ، راجع حول هذا رأى الأمام ابن حجر فى فتح البارى ج ١ ص ٤٦ .

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٧٧ تحقيق الدكتور الهراس ، راجع نسيم الرياض على شرح القارى ج ٣ ص ٢٧٣ الشفاء .

قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل بل ولا بكثير الشعر ولا بقليله وليس يفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد وهذا البلد مولده ، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ماجاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره فاياك أن تخدع عنه فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله عنه من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك وينعتونه مثل ما نعت لك ويقولون لم يبق نبى غيره ، قال عامر : فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد واقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : قد رأيته فى الجنة يسحب الذيول[1] .

وفى البخارى :

لما بنيت الكعبة ذهب النبى صلى الله عليه وسلم والعباس ينقلان الحجارة فقال العباس للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل ازارك على رقبتك يقك من الحجارة ، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال :

« ازارى ازارى فشد عليه ازاره » .

---

(١) اعلام النبوة للماوردى ص ١١٠ راجع كذلك السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٥٩ ، راجع البخارى باب بناء الكعبة ج ٨ ص ١٤٦ ، راجع شرح على القارى على الشفاء ونسيم الرياض ج ٣ ص ٢٨٠ .

وذكر ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث رواية أخرى : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل حجارة مما تلعب به الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ إزاره — فجعله على رقبته يحمل الحجارة إذ لكمنى لاكم ماأراه ثم قال : اشدد عليك إزارك ، قال : فشددته على ثم جعلت أحمل ، وزارى على من بين أصحابى[1] أ هـ .

وفى الآية الكريمة :

(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا) .

فيصل الأمر بين حجية القايلين للارهاصات وتكبر الرافضين لها فقد دلت الآية بالصراحة على أن مقاعد الجن لاستراق السمع قد حوصرت حفاظاً على وحى القرآن للنبى الكريم وتلك المحاصرة الشديدة بالشهب المحرقة للجن إرهاص بالنبوة جعل الجن يتساءل :(وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا[2]) وكان رشدا للناس جميعاً والحمد لله رب العالمين .

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، راجع المنتخب من السنة المجلد الثانى ص ١٠٧ .

(٢) راجع ابن كثير ج ١ ص ٤٣٩ تفسير القرآن العظيم ، راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٧٩ ، راجع الدرر ص ٣٦ الحلبية ج ١ ص ٢٤٤ ، راجع التاج الجامع الأصول فى أحاديث الرسول ج ٣ ص ٢٤٦ — ٢٥٠ .

(أ) شـــهادة العشير

(كلا والله مايخزيك الله أبدا ، نك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة[١].

أبشر يا ابن العم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة[٢]) .

من أول الأمر تقول السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ذلك القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما عاد من حراء يخبرها بما حدث من أمر الوحى .

فهل كان قولها مجرد عاطفة نبيلة من زوجة وفيه نحو زوجها : : : لما بينهما من روابط الأسرة ؟

هل كان قولها تعصباً من سيدة وفية ترجو مجدا ما لزوجها ؟

هل هو مجرد رأى ؟ أو للمسألة جذور عميقة عرفت بها خديجة نورانية هذا المستقبل وكانت تترقبه وتعمل له ؟

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ متنا وشرحا الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٠٤ .

لقد عاشت خديجة عمرها تنتظر هذا اليوم وكانت تعرفه وتستعد له وبحثت عن ذلكم الرجل الذى قالوا عنه انه النبى الخاتم المنتظر . . . وخديجة مجمع عليها فى التاريخ :

إنها كانت حازمة عاقلة شريفة لقبت فى الجاهلية بالطاهرة وإنها كانت كريمة المنبت رفيعة المحتد .

وإنها كانت أمنية كبار القوم لو وجدوا إلى ذلك سبيلا[1] .

ومع هذا فقد رغبت عن الرجال مع مالها من الجمال والحسب ، والمال والسمعة الطاهرة الشريفة ، فلماذا ؟ .

إن ظاهرة عدم زواج سيدة مثلها فى البيئة القبلية يثير تساؤلا . . . ؟

لماذا رغبت السيدة خديجة عن الزواج رغم ماتملكه من الإمكانيات وتهافت العظماء من الرجال عليها ؟

والجواب أنها بعد حياتين عاشتهما مع رجلين[2] من كبارات قريش لم تجد فيهما علامات النبوة ، لم تشأ أن تتسرع بقبول واحد آخر من العظماء مالم تكن امارات النبوة التى تسمع عنها قد بدت لها .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٦٣ ، الحلبية ج ١ ص ١٦٣ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٨١ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ١٣١ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٠ ، ابن هشام ج ١ ص ١٨٩ الوفا ج ١ ص ٤٤ محمد رسول الله اتين دينيه ص ٩٧ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٤٥ .

يحدثنا الإمام الماوردى : أنه كان لقريش فى الجاهلية عيد يجتمع فيه النساء دون الرجال ، فاجتمعن فيه فوقف عليهن يهودى وفيهن خديجة ، فقال لهن ، يامعشر نساء قريش ، يوشك أن يبعث فيكن نبى فأيكن استطاعت أن تكون له أرضا فلتفعل فحصبنه ، ووقر ذلك فى نفس خديجة حتى حققه[1] الله لها .

وحول هذا يروى الإمام السيوطى فى الخصائص : ان نساء أهل مكة اختلفن فى عيد كان لهن فى رجب فبيناهن عكوف عند وثن مثل لهن كرجل حتى صار منهن قريباً ، ثم نادى بأعلى صوته : يا نساء تيماء ، انه سيكون فى بلدكن نبى يقال له : أحمد ، يبعث برسالة الله فأيما امرأة استطاعت أن تكون زوجا له فلتفعل ، فحصبته النساء وقبحته وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض له فيما عرض له النساء[2].

فهى إذن تدرك أن نبياً سيبعث وإنها ترى من كياستها وعقلها ، وحزمها أهلية لتحمل شرف العمل معه لدين الله ، يؤكد لنا هذا صاحب السيرة الحلبية : والسبب فى ذلك أى فى عرض خديجة رضى الله تعالى عنها نفسها عليه صلى الله عليه وسلم أيضا مع ما أراد الله تعالى

---

(١) اعلام النبوة لأبى الحسن على الماوردى ص ١٠٥ شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ راجع الوفا ج ١ ص ٦١ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٦٦ .

بها من الخير ماذ كره ابن اسحق قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى المسجد فاجتمعن يوما فيه فجاءهن يهودى وقال :

يا معشر نساء قريش انه يوشك فيكن نبى قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشا له فلتفعل ، فحصبته النساء أى رمينه بالحصباء وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ووقع ذلك فى نفسها فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هى أى وماقاله لها ورقة لما حدثته بما حدثها به ميسرة مما تقدم قالت : إن كان ما قاله اليهودى حقا ماذاك إلا هذا . . .[1].

ويوضح ذلك الموقف : أن السيدة خديجة رضى الله عنها ذكرت للنبى صلى الله عليه وسلم الأسباب التى جعلتها تختاره للوكالة عنها فى إدارة تجارتها ومضاعفتها له الأجر : دعانى إلى البعثة إليك مابلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك[2] وفى أثناء الحل والترحال والبيع والشراء والسفر والإقامة شاهد ميسرة من علامات النبوة ما شاهد .

لقد شاهد الراهب نسطورا وهو يقبل رأس محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : آمنت بك وأنا أشهد انك الذى ذكره الله فى التوراة .

---

(١) الحلبية ج ١ ص ١٦٦ ، راجع كذلك المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ١٥٨ ، شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ١٩٨ ابن هشام ج ١ ص ١٨٨ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٨٠ الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٩ .

وسمع ميسرة من الرجل المشترى الذى اختلف مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ثمن سلعة فطلب إليه أن يحلف باللات والعزى فرفض عليه السلام فقال الرجل لميسرة : هذا نبى والذى نفسى بيده انه لهو الذى تجده أحبارنا منعوتا فوعى ميسرة ذلك .

وشاهد ميسرة كيف سلم البعيران من المرض الذى حاق بهما بعد أن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على أخفافهما[1] .

وشاهد ميسرة فى الهاجرة ملكين يظلانه فى الشمس وشاهدت ذلك خديجة عند أوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لديها فقه بالمسألة ، وكان — عندها عزم حازم على الوصول إلى هذا النبى يدل على ذلك أيضا أنها لما رأت الغمامة تظل النبى صلى الله عليه وسلم عند رجوعه بالتجارة أرادت أن — تتثبت من هذه الإرهاصة هل هى لمحمد وحده إذ فى القافلة رجلان : محمد وميسرة فلمن كانت الغمامة ؟ فلما وصل النبى صلى الله عليه وسلم إلى دارها وهى تنتظره فى علية لها طلبت إليه أن يعود ليسرع بإيات ميسرة فلما رجع ليستعجل ميسرة رجعت السحابة تظلله .

---

(١) الحلبية ج ١ ص ١٦٠ ، شرح المواهب ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، راجع حول هذا شرح على القارى ونسيم الرياض على الشفاء ج ٣ ص ٢٨٠ .

يروى صاحب انسان العيون ذلك فيقول :

وقدم حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة وخديجة فى علية مع نساء فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم — فخبرها بما ربحوا وهو ضعف ما كانت تربح فسرت بذلك وقالت : أين ميسرة ؟ قال : خلفته فى البادية ، قالت عجل بالاقبال . . . وانما أرادت أن تعلم : أهو الذى رأت أم غيره ؟ فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصعدت خديجة تنظر فرأته على الحالة الأولى ، فاستيقنت انه هو فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة : قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا وقول الذى خالفه فى البيع وقصة البعيرين وحينئذ أعطت خديجة له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمته له[1].

والنص يعطينا حقيقة :

وهى بيت القصيد : أن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت تتبع أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم لتتثبت منه : أهو النبى المنتظر ؟

---

(١) الحلبية ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ محمد رسول الله ، راجع الشفاء ج ٣ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ — شرح على القارى ، ونسيم الرياض .

وتريد السيدة خديجة أن تتثبت من هذه الأوصاف فتذهب إلى ورقة ابن نوفل للقرابة بينهما ولشهرته العلمية فى المجتمع الجاهلى الأول يقول ابن هشام :

وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وكان ابن عمها وكان نصرانيا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً ياخديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة وقد عرفت انه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه[1] .

فتجمع لدى خديجة الآن عدة وثائق :

١ — مشاهدتها هى للسحاب الذى أظله .

٢ — اختبارها لهذه الحقيقة والتأكد من ارتباطها بشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — تعجب نسائها مما شاهدن :

٤ — اخبار ميسرة بما رأى وما شاهد وما سمع :

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٩١ ، ابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ ، الحلبية ج ١ ص ١٦٢ .

٥ — اغتباط ورقة مما سمعه من خديجة .

٦ — الشذى العطر لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه .

وهذه الحقائق كلها ترجع لديها أن صفات النبوة التى تبشر بها جماعات أهل الكتاب لاتوجد إلا فى محمد صلى الله عليه وسلم وإذن فقد حان لها أن يكرمها الله مع ما لها من رجاحة العقل ومضاء العزم أن تتقدم هى لخطبة محمد : تتقدم بنفسها أو بأختها هالة ، أو بغلامها ميسرة ، أو بصديقتها نفيسة بنت منية[١] .

تتقدم هى أو بكل هؤلاء . . . انها الآن وهى راجحة العقل ماضية العزم تتأكد أن أوصاف النبوة التى سمعت عنها قديماً قد اجتمعت فى محمد عليه الصلاة والسلام فلتتخذ لذلك كل سبيل فانما هى الطاهرة وهو الأمين وبين الإشراف والإطهار مودة ونسب وجل الله العلى العظيم إذ يقول : (والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات)[٢] وهو بدء بالطيبات لما بدأت السيدة خديجة . . . وتلحق خديجة الطاهرة فى سنها الذى يؤهلها لتكون لباسا للنبى الخاتم ببيت محمد صلى الله عليه وسلم فتكون أعظم بيت فى الوجود الإنسانى . . . وترقب خديجة

---

(١) راجع شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٠٠ الطبقات الكبرى لابن سعد ج ص ١٣١ الحلبية ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٤١ أعلام النبوة ص ١٠٩ . . . .

(٢) من الآية رقم ٢٦ سورة النور . .

ذلك اليوم وتذكره دائماً فيما يقصه ابن حجر . . « فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ثم قالت : بأبي وأمي ، والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث فإن تكن هو فأعرف حقي ومنزلتي وأدع الإله الذي سيبعثك لي ، قالت فقال لها : والله لئن كنت أنا هو قد اصطنعت عندي مالا أضيعه أبدا وإن يكن غيري فان الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدا[1] » .

وكان أمر الله مفعولا . . . فبعد خمسة عشر عاما من هذا البناء الأسرى السامي المقدس كانت السيدة خديجة في أثنائها تستعجل مشرق النبوة . . . جاءت البشائر الأولى فيما يقصه ابن هشام :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدائه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ماشاء الله أن يمكث[2] .

---

(١) فتح الباري ج ٨ ص ١٣٣ الحلبية ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٥ الحلبية ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ شرح المواهب ج ١ ص ٢١٩ .

وفى هذه الاثناء كانت تبدو له أحوال : منها ما أخرجه السيوطى عن البيهقى وأبو نعيم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : بلغنا أن أول ما رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن الله أراه الرؤيا فى المنام فشق ذلك عليه فذكرها لخديجة فقالت : أبشر فإن الله لن يصنع بك إلا خيرا[١].

ويضيف صاحب السيرة الحلبية شرحا لهذا . . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء : أن يا محمد يا محمد وفى رواية أرى نورا ، وأسمع صوتا وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر . . . فقالت : كلا يا ابن عم ماكان الله ليفعل ذلك بك فوالله انك لتؤدى الامانة وتصل الرحم وتصدق الحديث وفى رواية ، ان خلقك الكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل .

استدلت رضى الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على انه لا يفعل به إلا خيرا لأن من كان كذلك لايجزى الا خيرا [٢].

والسيدة خديجة مع تأكدها من صدق مايعيش فيه النبى صلى الله عليه وسلم من الأحوال لكنها حازمة عاقلة تريد أن تتثبت من الأمور على المستوى الفكرى العالى فتطلب هذه المرة من أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يذهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ورقة :

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣١ . (٢) الحلبية ج ١ ص ٢٧٠ .

لقد ذهبت المرة الأولى عندما أخبرها ميسرة وقال لها ورقة ، لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة . . . وبناء على هذا الفرض تزوجته خديجة .

ففي السيرة لابن كثير :

أبشر فوالله لقد كنت أعلم أن الله لن يفعل بك الا خيرا ، وأشهد انك نبي هذه الأمة الذى تنتظره اليهود قد أخبرنى به ناصح غلامى وبحيرا الراهب وأمرنى أن أتزوجك منذ أكثر من عشرين سنة[1] .

واليوم وبعد خمسة عشر عاماً تبدو أحوال هى علامات خاصة تريد أن تتأكد منها هل هى امتداد لما شاهدته منذ خمسة عشر عاما مضت ؟

ويمضيان معا محمد صلى الله علية وسلم ، وصديقه أبو بكر ويقص رسول الله صلى الله عليه وسلم حاله على ورقة :

إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى ، يا محمد يا محمد فانطلق هاربا فى الأرض ، فيقول له ورقة : لا تفعل إذ أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتنى فأخبرنى .

ثم يسمع ما شاء الله أن يسمعه إياه فيأتى ورقة فيقول له : أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم وأنك على مثل ناموس

---

(٢) ابن كثير ج ١ ص ٤٠٨ .

موسى وأنك نبي مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك[١] .

وتستمر الرؤيا الصادقة وتأتي اللحظة الحاسمة ويظهر جبريل بالنبوة وتنكشف الأحوال المستورة وتؤمر بالقراءة ويرجع بها فرحا[٢] خائفاً أن يشتغل بغير[٣] ربه ويخبر خديجة بالأمر فتقول له في إيمان وثقة ومعرفة وفرحة كانت ترقبها وترجوها : إنك لتصل الرحم ؛

وتحمل الكل ؛

وتكسب المعدوم ؛

وتقرى الضيف ؛

وتعين على نوائب الحق ؛

فتنطلق بقواعد العدالة الاجتماعية في النظام الإسلامي لأنها عاشت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل هذا المستوى الرفيع الذي يحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الدهر .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ شرح المواهب ج ١ ص ٢٢١ — أسباب النزول للواحدى ص ١٧ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢٢١ .

ولكن المسألة عند السيدة خديجة لم تنته، إنها تلاحظ وتختبر الظواهر والملاحظات حقيقة أن المستوى الأخلاقى والوجدانى فى محمد صلى الله عليه وسلم فذ فريد فليس هناك رجل مطلقاً على مثاله أو يقرب منه.

ولكن السيدة خديجة عاشت حياتها تنتظر هذا اليوم فهل حقاً محمد صار نبياً . . ؟

أخبار الأحبار والرهبان والكهان وأهل النظر مستفيضة تتنبأ بظهور نبي قرب زمانه ، فهل الذى جاء إلى محمد هو الوحى ؟

فلتجرب ثم لتختبر التجربة ويروى البخارى مع ورقة بعد نزول جبريل : فيقول :

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يا ابن أخى ، ماذا ترى ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة ، هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ياليتنى فيها جزعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . . .[1] .

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

وفى الخصائص أنها ذهبت به إلى ورقة بعد أن استطلعت خبر جبريل من عالم نصرانى يقال عداس قال لها :

قدوس قدوس ما شأن جبريل بهذه الأرض التى أهلها أهل الأوثان ؟

فقالت أخبرنى بعلمك فيه ، قال : فإنه أمين الله بينه وبين النبيين وهو صاحب موسى وعيسى[1] .

وإذن فالسيدة خديجة قد تأكدت أولا من مفهوم (جبريل) ثم انطلقت بعد ذلك إلى ورقة .

ولا يقف أمرها عند هذا الحد بل تختبر ظاهرة نزول جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم هل هو حقاً جبريل الذى وصفه عداس أو شىء آخر؟ يقول ابن هشام : أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم ، قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة ، يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى .

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٢ الحلبية ج ١ ص ٢٧٨ — ٢٩٥ راجع شرح المواهب ج ١ ص ٢١٣ ابن كثير ج ١ ص ٤٠٦ .

قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .

قالت : هل تراه ؟ .

قال : نعم .

قالت : فتحول فاجلس على فخذى اليمنى .

قالت : فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى .

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول فاجلس فى حجرى :

قالت : فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فى حجرها :

قالت : هل تراه ؟ قال : نعم .

قال : فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرها ثم قالت له هل تراه ؟

قال : لا :

قالت : يا ابن عم ، اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان[1] :

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٣٩ الحلبية ج ١ ص ٢٨٦ السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤١٠ الطبرى ج ٢ ص ٣٠٣ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٩ .

ولقد غشى عليها من الفرح عندما تأكدت من نبوءته كما ذكره صاحب المواهب [١] .

لهذا كانت خديجة أول من أسلم[٢] من بنى البشر ولقد قادها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النبع الذى تفجر تحت قدم جبريل فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل فصلت بصلاته .

وكانت بذلك أول دليل على صحة مرحلة التمهيد للرسالة التى هيأ الله بها المجتمع البشرى من قبل ليستقبل النور الذى أرسله الله للعالمين بشيرا ولهذا استحقت التحية من عند الله ففى الصحيحين :

قال : أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب[٣] .

---

(١) شرح المواهب ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٠٣ وشرح المواهب ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٤٢ الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) البخارى مناقب الأنصار ، باب تزويج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة ، مسلم باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها .

(ب) شـــهادة المثقفين

الإرهاصات بالنبوة الخاتمة كانت فقهيا شائعا بين عديد من البيئات مهد الله جل شأنه ليستقبل الفكر الصافى الواعى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما هو له أهل .

وكانت بيئة المثقفين الذين لهم دراية بالعلم الدينى وعندهم وجدان صادق بالطريق السواء الذى يجدر بالبشرية أن تسلكه إلى ربها . كان عند هذه البيئة نزعة عارمة لاستقبال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكانت ترقب يومه وتتشوف لشروق فجره الصادق :

١ — زيد بن عمرو بن نفيل

• وكان فى مقدمة هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبيا من ولد اسماعيل من بنى عبد المطلب ، ولا أرانى أدركه وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبى فإن طالت بك مدة فرأيته فاقرئه منى السلام وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك .

قلت : هلم ، قال : هو رجل ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بكثير الشعر ولابقليله ، وليس يفارق عينيه حمرة وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه : أحمد وهذا البلد مولده ، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه

فإنى طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأله عنه من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعت لك ويقولون: لم يبق نبى غيره، قال عامر فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد وأقرأته منه السلام فرد عليه السلام وترحم عليه وقال: قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا [1] .

٢ — ورقة بن نوفل

* كان مع زيد بن عمرو بن نفيل فى رحلة البحث عن العدل الدينى ورقة بن نوفل الذى قبل النصرانية دينا مؤقتا يتعبد عليه حتى يأتى الدين الحنيف.

فلما عرضت السيدة خديجة على ورقة مشاهدات ميسرة التى قصها عليها قال ورقة فى حذر العالم العارف بمصير الأمور :

لئن كان حقا يا خديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر هذا زمانه .

يقول ابن كثير : فجعل ورقة يستبطىء الأمور ويقول :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا

لهـــم طالمـــا بعـــث النشيجا

(١) اعلام النبوة للماوردى ص ١١٠ ، راجع تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٩٥

ووصف من خديجة بعـــد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجــا

ببطن المكتين على رجائـــى
حديثك أن أرى منـــه خروجا

بما خبرتنا مـــن قـــول قس
من الرهبان أكـــره أن يعوجا

بأن محمدا سيســـود يومـــا
ويخصم من يكون له حجيجـــا

ويظهر فى البـــلاد ضياء نـــور
يقيم به البرية أن تموجـــا[1]

فورقة يعلم علم الكتاب ويدرك أوصاف النبوة العاقبة وينتظر يومها ولكنه لا يتعجل الأمور فيضع كلام خديجة فى حيز الافتراض .

وتعود إليه خديجة يوم (اقرأ) فيقول لها : والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة[2] لقد تكررت الدلائل والعلامات وطابقت

---

(١) راجع السيرة لابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٣٩ .

(٢) السيرة لابن كثير ج ١ ص ٤٠٤ راجع السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤٧ .

مرحلة التمهيد التى عرفها ورقة من قديم فأقسم أن لو كانت خديجة صادقة لهو النبى المنتظر .

فلما قابل النبى صلى الله عليه وسلم وقص عليه الأمر قال له :

أبشر فأنا أشهد أنك الرسول الذى بشر به ابن مريم وانك على مثل ناموس موسى وأنك نبى مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد وإن أدرك ذلك لأجاهدن معك [١].

وفى كلام ورقة علم إذ يقول له :

أشهد أنك الرسول الذى بشر به ابن مريم فليست شهادة ورقة عاطفة خاصة أو رأيا ذاتيا ولكنها علم معروف وأوصاف مدروسة وعلامات عرفها العلماء فى كتب السابقين [٢] .

ودقة التبعير عند ورقة تلفت النظر فإنه لما خاطب السيدة خديجة قال لها هذا ناموس عيسى ، وعيسى بالنسبة لتدينه هو نبى فهو مصدر معارفه الدينية وخديجة تعلم أنه عالم من علماء المسيحية يكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب فأجابها بما يؤكد عندها صدق معلوماته من مصدر معروف لديها باعتباره رجلا معروفا بفقه المسيحية .

---

(١) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ ، الحلبية ج ١ ص ٢٧٤ ، ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) راجع حول هذا دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٤٠١ .

ولما كان يتحدث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذا ناموس موسى لأنه غير مشكوك فى نبوته فجوانب القياس مكتملة الوحى والنبوة لموسى والوحى والنبوة لمحمد .

ويوجه عام فقد زاوج ورقة فى إجابته بموسى تارة وعيسى تارة أخرى لأنهما معا مصدرا التبشير بالنبوة الخاتمة إن فى التوراة أو الانجيل المعروفين عنده بأنهما يحملان صفة النبي العاقب .

أما ما قاله ابن حجر :

وقوله : (على موسى) ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيا لأن كتاب موسى مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم أو لأن موسى بعث بالنقمة على فرعون ومن معه بخلاف عيسى وكذلك وقعت النقمة على يد النبي صلى الله عليه وسلم بفرعون هذه الأمة وهو أبو جهل بن هشام ومن معه ببدر (١) فهو كلام لا يتفق مع أصول القرآن الكريم فإن كتاب موسى هو كتاب عيسى كذلك يقول الله تعالى :

(وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) (آيه رقم ٤٦ من سورة المائدة) .

---

(١) راجع فتح البارى ج ١ ص ٣٩ .

قال ابن كثير فى تفسيرها :

أى مؤمنا بها حاكما بما فيها أى متتبعا لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل [1] وفى تفسير فى ظلال القرآن :

« وقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة » فاعتمد شريعتها فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة [2] . يقول الله تعالى :

(ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) ٤٨ — آل عمران .

ليس محمد صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين بنص القرآن الكريم :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) آية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ورفع الله العذاب عن أمته مادام هو فيها (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) آية رقم ٣٣ من سورة الأنفال .

وأبو جهل ومن معه فى بدر إنما أهلكوا أنفسهم بأيديهم فقد قدم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل « الليل » وألح عليهم أن يؤمنوا حتى عبس فى وجه ابن أم مكتوم وعوتب فيها من أجل حرصه عليه الصلاة والسلام عليهم وقال له ربه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) . آية رقم ٦ من سورة الكهف .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) تفسير ظلال القرآن ج-٦ مجلد ٣ ص ١٧٧ ط ثالثة .

وإذن فالتعليل الأسلم الذى يتلاءم مع الجو الإسلامى ما قاله ابن حجر نفسه وهو « أو قاله تحقيقا للرسالة » .

رحم الله ورقة فلقد قدم للتاريخ حقيقتين :

الأولى : أن مرحلة التمهيد للرسالة المحمدية قد أتت ثمارها بمواءمة حاضر الوحى عند نزوله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لما كان يعلمه المثقفون قديما على يد الأحبار والرهبان .

الثانية : أن نبوة محمد لم تكن تفاجىء المجتمع فقد كانت على الطريق إليها معالم ، وأنه حقا رسول الله وخاتم النبيين دون حاجة إلى إجهاد فى التدليل .

رحم الله ورقة وجعله من الشهداء المسلمين ، روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيه :

* لقد رأيت القس فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى [١] .
* ورقة فى بطنان الجنة عليه السندس [٢] .
* ورقة على نهر من أنهار الجنة [٣] .

---

(١) راجع دلائل النبوة للبيهقى ج١ ص ٤١٣ المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ ، الحلبية ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) ، (٣) المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٤٢ .

٣ ـ النجاشى

أضاف ورقة بن نوفل إلى مرحلة التطبيق التى تؤكد حكمة الله بالإرهاصات التى تقدمت البعث المحمدى الخاتم ، أضاف إلى هذه المرحلة أبعاد الأحداث المستقبلة التى ستواجهها الدعوة كما واجهها من قبل الأنبياء والمرسلون على نحو ما قرأ ورقة وما وصل إليه من علم الكتاب ، وبكل إخلاص وأمانة وثقة قال للنبى صلى الله عليه وسلم :

ياليتنى فيها جذعا :

يا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى .

وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا[١] .

فحوى النص اعترافات عدة :

أنه نبى هذه الأمة .

وأن أمته فى مكة الجاهلية سوف تكذبه .

وسوف يؤذونه ويخرجونه وسوف يقاتلونه .

وما كان ذلك نبوءة من ورقة بل موجز تاريخ لدعوة الله التى تعانى دائما هذا الضيق والحرج ، ولم يكن ورقة سلبيا بل كان إيجابيا

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٩ ، ٣٠ ، راجع كذلك تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٠٢ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٩ ، السيرة لابن كثير ج ١ ص ٣٩٧ .

متمنيا أن يحظى بشرف الجهاد فى سبيل الله « ولئن أنا أدركت ذلك اليو م لأنصر الله نصرا مؤزرا » .

فلطالما ترقبها ورقة وإخوانه الحنفاء والباحثون عن العدل الدينى وها هو ذا يرى بدء الفجر الصادق ولكنه صار شيخا كبيرا قد عمى فما يملك إلا أنه يتقبل يافوخ محمد عليه الصلاة والسلام[1] نزوعا عاطفيا لصفاء قلبى يبرهن به ورقة على أنه ارتضى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا حنيفا .

وكان هذا الموقف من ورقة موقف عالم مسيحى من علماء العرب الذين كانت لهم جولات فى العالم القريب منهم بحثا عن الحقيقة الدينية . . . ولقد صادف ورقة فى حله وترحاله مع زيد بن عمرو بن نفيل عالما ملكا من علماء المسيحية هو النجاشى وكان إقليم النجاشى عنده فكرة عن النبى الخاتم فيروى ابن هشام أن حليمة السعدية « مما هاجها على رد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمه أن نفرا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره[2] .

---

(١) الحلبية ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٦٧ ، الحلبية ج ١ ص ١١٤ .

علماء النصارى من الحبشة يعللون أخذه بما يعرفونه لهذا الغلام من شأن ، ويقولون صراحة إننا نود أن نحمله إلى ملكنا . . . فليكهم إذن عنده معرفة بشأن هذا الغلام . وإذن فما رواه الإمام السيوطى عن اللقاء الذى تم بين زيد بن عمرو بن نفيل ومعه ورقة بن نوفل وبين النجاشى وسألهم النجاشى عن مسائل تتعلق بمولد النبى العربى المكى [١] .

يفسر لنا موقف هذا الملك من المسلمين عنده عندما هاجرت كتيبة من الأوائل السابقين إلى الحبشة وقال لهم : مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله فإنه الذى نجد فى الإنجيل وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم انزلوا حيث شئتم . والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه [٢] .

وفى رواية أخرى عند صاحب المواهب اللدنية :

« مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده وأنا أشهد أنه رسول الله » [٣] .

وفى السيرة الحلبية :

« أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل » [٤] .

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ١٣٠ — ١٣٢ .

(٢) الوفا ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) شرح المواهب ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) الحلبية ج ١ ص ٣٧٧ .

ثم يكون النجاشي إيجابيا نحو قساوسته ونحو مخابرات قريش ، ونحو المسلمين .

* فيقول لقساوسته :

« والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله . فقال : وإن نخرتم[1] .

وفى المواهب :

فقال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان مايزيد على ماتقولون أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل[2] .

* ويقول لعمرو بن العاص ، وصاحبه مخابرات قريش :

« ما أحب أن يكون لى دير من ذهب —أى جبلا— وأن أوذى رجلا منكم — جماعة المسلمين — ردوا عليهم هداياهم فلاحاجة لى بها[3] .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٧ ، راجع زاد المعاد ج ٢ ص ٤٦ ، السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) المواهب ج ١ ص ٢٨٨ ، راجع الحلبية ج ١ ص ٣٧٧ .

(٣) الحلبية ج ١ ص ٣٧٧ ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨ راجع السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٢ .

* اختلفت الروايات فيمن كان مع عمرو بن العاص : ذهب ابن هشام إلى أنه عبد الله ابن أبى ربيعة ج ١ ص ٣٣٤ وفى الخصائص عمارة بن الوليد بن المغيرة ج ١ ص ٣٧٢ ، ولهذا آثرت أنه أقول وصاحبه — راجع الحلبية ج ١ ص ٣٧٩ .

وزاد ابن كثير واخرجا من بلادى .

ورواية الإمام السيوطى :

والله لا أقول فى عيسى غير هذا أبدا ثم قال :

أرجعوا إلى هذا هديته يريد عمرو بن العاص والله لو رشونى فى هذا دير ذهب ما قبلته[1] .

* يقول لجعفر وأصحابه :

امكثوا فأنتم سيوم — آمنون — وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق وقال : من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عدم — عصانى :

وفى زاد المعاد :

قال : اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ثم قال للرسولين لو أعطيتمونى ديرا من ذهب ما أسلمتهم إليكما ، ثم أمر فردت عليهما هداياهما ورجعا مقبوحين . :

---

(١) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ٤٦ .

وفى الكامل :

وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم[١] .

لقد بكى النجاشى حين سمع (كهيعص) حتى اخضلت لحيته وقال ، إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[٢] .

فقرر بذلك التقاء مرحلة التمهيد بالفجر الصادق ، وهو فى منزلة الملك — وسعة العيش لايبتغى من وراء ذلك مالا ولا جاها اللهم إلا الذمة الأصيلة والعهد الأمين والنفس الجليلة والقلب الصادق :

وحق له أن يؤمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه البخارى عن جابر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات النجاشى : مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحبه[٣] .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٨١ بيروت .

(٢) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ راجع الروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٧ تثبيت دلائل النبوة ج ٢ ص ٥٠٧ .

(٣) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩ ، راجع البخارى ج ٨ ص ١٩٠ ، ١٩١ فتح البارى .

وعند أبي داود :

لما مات النجاشي رضى الله عنه كنا تتحدث أنه لا زال يرى على قبره نور [1] .

راهبان أسلما :

كان ورقة بن نوفل عالما عربيا اتجه إلى المسيحية كلذين موثقت فى مرحلة بحثه عن الدين الحنيف فلما جاء الحق صدق به وآمن .

وكان النجاشى ملكا مثقفا بالمسيحية فلما عرف بظهور النبى الخاتم الذى بشر به عيسى ابن مريم آمن وصدق وتمنى أن يحمل نعل النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان ذلك فى تفهم الأحداث دليل على أن مرحلة التمهيد كانت منحة من الله لمن شاء أن يستقيم على الصراط الحنيف .

وتمتلىء بطون الكتب الأمهات بنماذج عديدة للذين كتب الله لهم الفوز بالإيمان بناء على ما شاهدوه وما قرأوه من قيل عن أوصاف النبوة العاقية .

---

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٨ راجع السيرة النبوية للدكتور أبو شهبه ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، راجع شرحى الشفاء ج ٣ ص ٣٩٧ .

٤ — بحيرا

وكان بحيرا راهبا فى صومعته وله علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قطنها راهبا . . . فلما نزل أبو طالب وقافلته قريبا من بحيرا — وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شئ رآه وهو فى صومعته أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الركب وغمامة تظله من بين القوم . . . فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل اليهم فقال :

أنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروه كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم :

والله يابحيرا إن لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟

قال بحيرا :

صدقت لقد كان ماتقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه فى رجال القوم تحت الشجرة فلما نظر بحيرا فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده فقال :

يا معشر قريش لايتخلفن أحد منكم عن طعامى قالوا له : يابحيرا ، ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلاغلام ، وهو أحدث القوم سنا فتخلف فى رحالهم .

فقال : لا تفعلوا ، أدعوه فيحضر هذا الطعام معكم .

قال : فقام رجل من قريش مع القوم فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قدكان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرا فقال له :

يا غلام : أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضها .

فقال له بحيرا :

فبالله إلا ماأخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سلنى عما بدا لك فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره . . . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره . . . فيوافق ذلك ماعند

بحيرا من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

فلما فرغ بحيرا من ذلك أقبل على عمه أبى طالب فقال له : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم [1] .

وهذا التحذير من بحيرا لأبى طالب ليرعى ابن أخيه من شر اليهود متفق مع موقف اليهود يوم ولد النبى صلى الله عليه وسلم فيما يقصه الماوردى :

كان يهودى يسكن مكة فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حضر مجلس قريش فقال يامعشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

فقال القوم : والله مانعلم :

قال : الله أكبر ، أما إذا اخطأكم فلا بأس ، انظروا واحفظوا ما أقول لكم ، ولد فى هذه الليلة نبى بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنها عرف وثن .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ، راجع أعلام النبوة للماوردى ص ١٠٦ ، راجع الحلبية ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٠٨ — ٢١٠ الطبرى ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، راجع نسيم الرياض ج ٣ ص ٢٥٧ — ٢٦٥ ، راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٣ — ١٥٥ .

فتصارع القوم عن مجالسهم — وهم متعجبون من قوله — فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله . . فقالوا : ولد لعبد الله ابن عبدالمطلب غلام سموه محمدا فانطلق القوم إلى اليهودى فأخبروه فقال : اذهبوا بى حتى أنظر اليه ، فأدخلوه عند آمنة وقالوا : اخرجى إلينا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره ، فرأى اليهودى تلك الشامة فوقع مغشيا عليه . فلما أفاق قالوا له : ما لك ؟

قال : ذهبت — والله — النبوة من بنى إسرائيل يا معشر قريش : والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب[1] .

فالمعلومات عند أهل الكتاب : أن النصارى أو اليهود متحدة فى ذكر أوصاف النبوة الخاتمة ، ولهذا كان بحيرا مخلصا وكان يمثل المسيحية المتدينة التى جاءت من عند الله لتكون للإسلام العاقب مقدمة تمهد للناس مشرق الدين الحنيف .

وفى المواهب اللدنية شرح فياض لموقف بحيرا :

فرآه بحيرا واسمه جرجيس فعرفه بصفته فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد المرسلين هذا سيد العالمين فقيل له : وما علمك بذلك ؟

قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا ولا يسجدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل من

---

(١) أعلام النبوة ص ١٠٤ ، ١٠٥ الحلبية ج ١ ص ٨٢ ، راجع المواهب ج ١ ص ١٢٠ — ١٣٤ .

غضروف كتفه مثل التفاحة وإنا نجده فى كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده خوفا عليه من اليهود[١] .

قال الذهبي فى تجريد الصحابة : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل المبعث وآمن به[٢] .

وفى الإصابة على نحو مايرويه الشيخ الزرقانى فى شرحه للمواهب : فكشف له عن ظهره فرآه فقال :

أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمى الذى بشر به عيسى بن مريم[٣] .

٥ ــ نسطورا

تلاح رجل مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : احلف باللات والعزى ؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط وإنى لأمرؤ أعرض عنهما .

فقال الرجل : القول قولك :

---

(١) المواهب ج ١ ص ١٩٤ ، راجع دلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٠٨ — ٣١٠ ، الخصائص ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) ، (٣) المواهب ج ١ ص ١٩٥ ، راجع الإصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ١٨٤ ط السعادة عام ١٣٢٣ هـ .

ثم قال لميسرة : هذا والله نبي تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم[1] .

كان بعض رجال الدين المسيحى آنذاك مازالوا على المستوى الشريف فى الوعظ الدينى ، وكان الشعب يثق فيهم ويسمع لهم ومن هؤلاء الرجال الصادقين راهب تلك المنطقة التى كان السوق على كثب منها . كان نسطورا فى « بصرى » يبشر صادقا بما يعلمه عن محمد النبي الخاتم . فلما كانت التجارة الخديجية السعيدة وكان ميسرة معها فى كنف الأمين الصادق محمد بن عبد الله ونزل عليه الصلاة والسلام تحت ظل شجرة — هى عند الراهب ذات معنى خاص حسب — دراساته ومعارفه — .

قال نسطورا : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي[2] .

وليس التفسير لهذه العبارة محيرا للدرجة التى غص بها قرطاس الكاتبين : فكل ما عند الرجل من المعلومات أن ساعة معينة من الزمن فى مكان معين تحت شجرة خاصة من سيستظل تحتها يكون هو صاحب العلامات التى ذكرتها الكتب السماوية . يدل على هذا الاتجاه فى تفسير العبارة النسطورية السالفة أن نسطورا نفسه سأل ميسرة عن علامات ذاتية فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لميسرة أفى عينيه حمرة ؟

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٩ ، ابن هشام ج ١ ص ١١٨ الوفا ج ١ ص ١٤٣ .

قال : نعم لا تفارقه ، قال : هو نبى . وهو آخر الأنبياء ، ويااليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج [1] فربط بذلك بين العلامتين المكانية والذاتيه.

وفى الحلبية شرح انسيابى للموقف كله :

فلما رأى الراهب الغمامة تظلله صلى الله عليه وسلم فزع وقال : ما أنتم عليه ؟ أى : أى شئ أنتم عليه ؟

قال ميسرة غلام خديجة رضى الله عنها : فدنا إلى النبى صلى الله عليه وسلم سرا من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال : آمنت بك وأنا أشهد أنك الذى ذكره الله فى التوراة ، ثم قال :

يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها — أى العلامات الدالة على نبوتك المذكورة فى الكتب القديمة —" خلا خصلة واحدة فأوضح لى عن كتفك ؟ فأوضح له فاذا هو بخاتم النبوة يتلألأ فأقبل عليه يقبله ويقول :

أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله النبى الأمى الذى بشر بك عيسى بن مريم فإنه قال : لا ينزل بعدى تحت هذه الشجرة الا النبى الأمى الهاشمى العربى المكى صاحب الحوض والشفاعة وصاحب لواء الحمد [2] .

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٢٧ الحلبية ج ١ ص ١٥٨ ، راجع الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ١٥٨ شرح المواهب ج ١ ص ١٩٨ .

سمع الله لمن حمده من هؤلاء الرجال الذين عاشوا لحظة التوعية يترقبون مشرق النور والبركة ، فأثبتوا لأصحاب البصيرة أن الارهاصات القديمة كانت علامات المهتدين عند الاذان المنادى بالفلاح .

على الأطراف من بعيد :

من بعيد كان النجاشي وقساوسته يتشوقون لمعرفة النبي الأخير الذى سيختم الله به الرسالة ويجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ومن بعيد كذلك كانت الأحبار فى صوامعها ترصد الطريق ، شجرا وحجرا وسحابا وانسا ، ولما رأوا تثبتوا ثم أيقنوا وآمنوا وأسلموا .

ومن بعيد كذلك تأتينا أدلة صادق مرحلة التمهيد للرسالة فقد بات فى المكان والزمن البعيد رجلان من الرجالات التى استيقظ فيهما جانب الربانية فتعطشت للقاء الربانى وصحبة النور المحمدى ففيه الأنس والبهجة والسعادة والحياة .

٦ ــ عبد الله بن سلام

وكان عبد الله بن سلام كبير علماء اليهود وسيدهم وأمامهم من أولئك النفر الذين باتوا يترقبون اللحظة الأولى لأذان الفجر الصادق : حى على الإسلام والإيمان .

يقول ابن كثير راويا عنه :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس ، فكنت فيمن انجفل ، فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب فكان أول شئ سمعته يقول :

أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام .[1]

ولم تكن معرفة عبد الله بن سلام للنبى صلى الله عليه وسلم معرفة ساذج من الدهماء ، بل هى معرفة عالم حافظ واع .

ففى الدلائل للبيهقى .

كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان حبرا عالما — قال : لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعرفت صفته واسمه وهيئته والذى كنا نتوقف له ، فكنت مسرا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى اعمل فيها ، وعمتى « خالدة بنت الحارث » تحتى جالسة فلما

---

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٤ ، الوفا ج ١ ص ٢٥٣ ، دلائل البيهق ج ١ ص ٢٥٣ ، راجع الفتح الكبير ج ١ ص ٢٠٦.

سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى :

لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زاد ؟ . قال : قلت لها : أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به .

قال : فقالت : يا ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر به أنه يبعث مع بعث الساعة ؟ . قلت لها : فذاك إذن .

قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامى من اليهود ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

إن اليهود قوم بهت ، وأنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك تغيبنى عنهم ثم تسلهم عنى فأخبروك كيف أنافيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا بذلك بهتونى وعابونى .

قال : فأدخلنى بعض بيوته فدخلوا عليه فكلموه وسألوه . . .

قال لهم : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يامعشر اليهود : اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله إنكم لتعلمون أنه رسول

الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة : اسمه ، وصفته ، فانى أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه وأعرفه .

قالوا : كذبت ، ثم وقعوا فى .

قال : فقلت ، يارسول الله ، ألم أخبرك أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور ؟

قال : فأظهرت إسلامى ، وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى ابنة الحارث فحسن إسلامها (١) .

وفى النص عدة حقائق :

١ ــ أن عبد الله بن سلام كان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم اسما وصفة وهيئة طوال فترة الحياة المكية قبل الهجرة إلى طابة ، وأنه كتم ذلك حتى قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة :

٢ ــ أنه توقع غدر اليهود به إن أعلن إسلامه وأنهم يعرفون حقيقة النبوة فى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم قوم بهت .

٣ ــ أنه كتم إسلامه عن اليهود حتى يكون عليهم حجة ؛

---

(١) السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٢٩٤ – ٢٩٨ ، الدلائل للبيهقى ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

السيرة لابن هشام ج ١ ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

٤ — أنه فرح فرحا عارما ملك عليه أقطار وجدانه حتى كبر وهو فى أعلا النخلة عندما علم بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ووصوله إلى المدينة المنورة وهذا يدلل على صدق نيته فى أن يدخل فى السلم كافة :

٥ — وأنه آثر الإسلام على قوميته وقومه وأمجاده فيهم ، ولذا فقد حق له أن يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا أحد يمشى على الأرض أنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام[1]) .

٧ — مخيريق

وتستمر عوامل التوعية تثير الحماس المنصف فى نفوس اليهود الذين استمروا على ضلالتهم وفرديتهم حتى استيقظ فيهم دافع الإيمان فآمنوا وتابوا إلى الله .

وكان مخيريق حبرا عالما وكان رجلا غنياً كثير الأموال ، وكان يعرف صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يجد فى علمه ولكن غلب حب المال واستقطبت أقطار نفسه نحو دينه فلم يزل على ضلالته حتى إذا كان يوم أحد وكان يوم السبت قال يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق .

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٢٩ .

قالوا : إن اليوم يوم السبت .

قال : لا سبت لكم .

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموا لى لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى — يقول :

(مخيريق خير يهود ، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله[1]) .

من بعيد كان مخيريق يعرف حقيقة النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن عنصريته وكثافة ظلماته القلبية حجبته عقدا ونصف عقد عمن تذوق حلاوة الإيمان التى من الله بها عليه فى آخر اللحظات .

٨ — سلمان الفارسى

ومن بعيد كذلك :

من بعيد فى شقة السفر وفى طول الحل والترحال ، وطول السؤال وكثرة النصب يتقلب سلمان الفارسى فى فترة التمهيد للرسالة حتى يتغشاه نورها الصادق الأمين :

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٥١٨ ، السيرة لابن كثير ج ٢ ص ٣٤٤ ، راجع نسيم الرياض شرح الشفاء ج ٣ ص ٢٦٥ ، راجع حول هذا الشفاء شرحيه ج ٣ ص ٢٥٧ .

١ ــ فسلمان شاب فارسى من أهل أصبهان وكان أبوه سيد أهل بلده أحب ولده سلمان حباً شديداً لم يحبه شيئاً من ماله ولا من ولده حتى احتدمت عاطفة الحب فجعلته يحبسه فى البيت كالجارية الكاعب وأجتهد سلمان فى المجوسية حتى صار لها مثل القطن الذى يوقد نارها وما كان يتركها لحظة تخبوا حتى أذن الله له وأرسله أبوه إلى ضيعته ليعمل فيها عملا . . . فمر بكنيسة لنصارى فسمع أصواتهم وأعجب بصلاتهم فأنشد إلى عبادتهم حتى غربت الشمس وبعث أبوه فى طلبه لما أمسى ولم يعد إليه ، فلما قص على أبيه ما حدث منه جعل فى رجليه حديداً وحبسه حتى لا يترك دين أبائه .

٢ ــ ثم احتال حتى خرج من احتباسه عن رغبته وسافر مع قافلة من التجار إلى الشام وعرض نفسه على صاحب الكنيسة وعاش معه على دينه ورأى منه منكرا وزورا فقد كان يأمر بالصدقة ويرغب فيها ثم يجمعها ويكنزها لنفسه ويمنعها من المساكين فأبغضه سلمان وقص على القوم سيرته لما مات وأخرج لهم سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً كان الرجل قد اكتنزها فصلبوه ورموه بالحجارة قبل أن يدفنوه .

٣ ــ ثم جاء مكانه رجل آخر فأعجب سلمان بصلاته ووصفها لابن عباس رضى الله عنه بقوله : ما رأيت رجلا قط لا يصلى الخمس أى أنه أفضل منه أشد اجتهادا ولا زهادة فى الدنيا ولا أدب ليلا ونهارا

دينه ، ما أعلمنى أحببت شيئاً قط قبله حبه . ثم مات الرجل وأوصى سلمان أن يتبع رجلا آخر « بالموصل » .

٤ — ولحق سلمان « بالموصل » وارتضى من صاحبه دينه فلما حضرته الوفاة سأله سلمان أن يوصيه بمن يلحق ؟ . فقال له : والله ما أعلمه إلا رجلا « بنصيبين » وهو على مثل ما نحن عليه فالحق به :

٥ — وسافر سلمان إلى « نصيبين » ولحق بصاحبه فلما حضرته الوفاة سأله بمن يلحق من بعده ، فقال له : والله ما أعلم أحدا أ على مثل ما نحن عليه إلا رجلا « بعمورية » من أرض الروم فأته فإنك ستجده على مثل ما كنا عليه .

٦ — وقدم سلمان « عمورية وأقام عند صاحبه حتى وافاته المنية فسأله أن يوصيه بمن يلحق به ، فقال له : والله أعلم أنه أصبح أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبى يبعث بدين[1] إبراهيم الحنيفية يخرج من أرض مهاجره[2] وقراره ذات

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٧ بيروت ، الحلبية ج ١ ص ٢٢١ ، راجع ابن هشام ج ١ ص ٢١٤ — ٢٢٠ .

(٢) هذه عبارة الطبقات الكبرى وفى دلائل النبوة للبيهقى ، نبى مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخيل ص ٣٦١ ، وفى الحلبية : نبى مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ج ١ ص ٢٢١ ومثلها عبارة ابن هشام ج ١ ص ٢١٨ .

نخل بين حرتين ، فإن استطعت أن تخلص إليه فاخلص وإن به آيات لاتخفى ، أنه لا يأكل الصدقة وهو يأكل الهدية ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة إذا رأيته عرفته[1] .

٧ — قال سلمان :

فلما واريناه أقمت حتى مر رجال من تجار العرب من « كلب » فسألتهم عن بلادهم فأخبروني عنها ، فقلت : أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني حتى تقدموا بي أرضكم ؟ قالوا : نعم ، فاحتملوني حتى قدموا بي « وادي القرى » فظلموني فباعوني عبدا لرجل يهودي « بوادي القرى » فوالله لقد رأيت النخل وطمعت أن يكون البلد الذي نعت لي صاحبي .

٨ — ولكن اليهودي في وادي القرى يبيع سلمان إلى يهودي آخر من المدينة ، يقول سلمان : فخرج بي حتى قدم بي المدينة ، فوالله ما هو إلا أنه رأيتها فعرفت نعته ، فأقمت في رقي مع صاحبي ، وبعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم بمكة ما يذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرق حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء وأنا أعمل

---

(١) راجع النص كاملا في : دلائل النبوة للبيهقي ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٦٣ ، الحلبية ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢١ ، الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٥ — ٧٨ ، الخصائص الكبرى للسيوطي ج ١ ص ٤٨ — ٥٣ .

لصاحبي فى نخلة له ، فوالله أنى لفيها إذ جاء ابن عم له فقال فلان قاتل الله بنى قيله — الأوس والخزرج — والله إنهم الآن لفى قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي — فوالله ما هو إلا أنه سمعتها فأخذتنى العرواء حتى ظننت لأسقطن على صاحبي ونزلت أقول ما هذا الخبر ؟ فرفع مولاى يده فلكمنى لكمة شديدة ، وقال : مالك ولهذا ، أقبل على عملك ، فقلت لاشئ ، إنما سمعت خبرا فأحببت أنه أعلمه :

(أ) فلما أمسيت — كان عندى شئ من طعام — ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء فقلت :

بلغنى أنك رجل صالح ، وأن معك أصحاباً لك غرباء وقد كان عندى شئ من الصدقة فرأيتكم أحق من بهذه البلاد بهفها هوذا فكل منه ؟

قال سلمان : فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال لأصحابه كلوا ، ولم يأكل ، فقلت فى نفسى هذه خلة مما وصفت لى :

(ب) وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجمعت شيئا كان عندى ثم جئته به فقلت : إنى قد رأيتك لا تأكل

الصدقة وهذه هدية وكرامة ليست بالصدقة ، قال سلمان : فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل أصحابه ، فقلت : هذه خلتان :

(ج) وطالت الأيام وسلمان ما زال فى الرق وما زال يختبر معلومات الأحبار التى لقنوها إياه فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتبع جنازة ، يقول سلمان :وعلى شملتان لى ، وهو — النبى — فى أصحابه فاستدرت به لأنظر إلى الخاتم فى ظهره فلما رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستدير به عرف أنى أستثبت شيئاً قد وصف لى فوضع رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه كما وصف لى صاحبى فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال تحول يا سلمان هكذا فتحولت فجلست بين يديه وأحب أن يسمع أصحابه حديثى عنه فحدثته يا ابن عباس كما حدثتك ، فلما فرغت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يا سلمان ، فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أحييها وأربعين أوقية وأعاننى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل[١] . . . الخ :

---

(١) راجع النص فى الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٧٥ — ٨٠ ودلائل النبوة للبيهقى ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٦٣ والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٢ وا صائص الكبرى للسيوطى ج ١ ص ٤٨ — ٥٢ .

والنص مع طوله يصور لنا طول تقلب سلمان الفارسى فى البلاد والترحال والحرية والعبودية رجاء أن يصل إلى ما أوصاه به علماء الدين الذين عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى كتبهم كما يعرفون أبناءهم وكان منهم فريق يقول الحق ويهدى السبيل .

وفى النص دلالة كذلك على أن العصر كان يسمح بالتحرك الدينى للفرد حتى ولو كان عبدا رقيقا أكثر مما يسمح به العصر الحديث .

وهكذا اتضح لنا مأثورات تاريخية مباركة تلتقى بها أطراف مرحلة التمهيد للدعوة المحمدية بالحلقة الأولى من حياة الدعوة ، وبذلك تبرز الموازين الدقيقة التى تفرز معادن الناس ومستوى عقولهم ، ومدى تفكيرهم كما تحدد هذه المرحلة :

إن الإيمان بالرسالة الخاتمة لم يكن أمرا بعيدا عن التفكير فى العصر الجاهلى فقد أرهص الله للناس بعلامات ودلائل بشر بها علماء الدين واهتدى إليها أصحاب الفطرة السليمة من قريب مثل ورقة ومن بعيد مثل النجاشى :

من قريب جدا مثل خديجة رضى الله عنها .

ومن بعيد جدا مثل سلمان الفارسى .

يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم :

يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك ؟

فأتاهم أبو بكر فقال : يا اخوتاه ، أغضبتكم ؟

قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي [1] .

---

(١) مسلم باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال من كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٥٠٤ ص ١٩٤٧ جزء ٤ اخراج المرحوم فؤاد عبد الباقي .

(ج) الاعتراف المبتور

١ ـ امية بن أبى الصلت وأبو سفيان ورفاقهما :

وعلى الصفحة المقابلة نرى فريقاً من معاصرى مرحلة التمهيد قد أثقلتهم مواريثهم الثقافية وجذبتهم جبرية العادات وقدسية القومية ونأى بهم عن التشرف بالإيمان وقبول النور والأنس بالدين الحنيف صدأ فطرتهم وأنانية نفوسهم فسلبوا حلاوة الإيمان وجلال الاعتراف بالحق وشرف الإذعان للعدل .

كان أمية ابن أبى الصلت[1] عارفاً بالنبوة الخاتمة تجول فى الكنائس وتقلب عند الرهبان ليعرف أوصافها وعلاماتها ، وكان معه أبو سفيان ابن حرب ، فهو على علم بها ودراية بسعى أمية لها فلما ظهرت وجاءت ممنوحة من الله إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم وجم لها أبو سفيان .

وكفر بها أمية لأنها ليست له أو ليست فى بنى ثقيف .

ويتحدث أبو سفيان نفسه عن ذلك فيقول فيما يرويه ابن الجوزى عن أبى سفيان بن حرب قال :

خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت تجارا إلى الشام فكنا كلما نزلنا منزلا أخرج من رحله سفرا يقروءه علينا .

---

(١) راجع الباب الأول الفصل الأول مسألة الحنفاء (أمية بن أبى الصلت) من هذا الكتاب .

فكنا كذلك حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى فرأوه وعرفوه وأهدوا له ، وذهب معهم إلى بيعتهم ، ثم رجع فى وسط النهار فطرح ثوبه واستخرج ثوبين أسودين فلبسهما ثم قال :

يا أبا سفيان ، هل لك فى عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم الكتاب تسأله عما بدا لك ؟ قلت : لا .

فمضى هو وحده ، وجاءنا بعدهدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ، ثم انجدل على فراشه فوالله مانام ولا قام حتى أصبح .

وأصبح كئيبا حزينا مايكلمنا ولا نكلمه ، فسرنا ليلتين على مابه من الهم .

فقلت له : ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك :

قـــال : لمنقابى .

قـــلت : وهل لك من منقلب ؟

قـــال : أى والله لأموتن ولأحاسبن .

قـــلت : فهل أنت قابل أمانى ؟

قـــال : على ماذا ؟

قـــلت : على أنك لاتبعث ولا تحاسب .

فضحك وقال : بل والله لنبعثن ولنحاسبن وليدخلن فريق في الجنة وفريق فى النار .

قـــلت : ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

قـــال : لا علم لصاحبي بذلك فى ولا فى نفسه .

فكنا فى ذلك ليلتنا يعجب منا ونضحك منه ، حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا وأقمنا شهرين ثم ارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى فلما رأوه جاءوا وأهدوله ، وذهب معهم إلى بيعتهم حتى جاءنا مع نصف النهار فلبس ثوبيه الأسودين فذهب حتى جاءنا بعد هدأة من الليل ، فطرح ثوبيه ثم رمى بنفسه على فراشه ، فوالله مانام ولا قام فأصبح مبثوثا حزينا لايكلمنا ولا نكلمه فرجعنا فسرنا ليالى ثم قال :

يا صخر ، حدثنى عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المحارم والمظالم ؟

قـــلت : أى والله .

قـــال : ويصل الرحم ويأمر بصلتنا ؟

قـــلت : نعم .

قـــال : وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

قـــلت : نعم .

قـــال : فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

قـــلت : لا والله .

قـــال : أمحوج هو ؟

قـــلت : لا ، بل هو ذو مال كثير .

قـــال : كم أتى له من الستين ؟

قـــلت : هو ابن سبعين قد قاربها .

قـــال : فالسن والشرف أزريا به .

قـــلت : لا والله بل زاده خيرا .

قـــال : هو ذاك .

ثم إن الذى رأيت بى أنى جئت هذا العالم فسألته عن هذا الذى ينتظر .

فقـــال : هو رجل من العرب من أهل بيت تحجه العرب .

فقلت : فينا بيت تحجه العرب .

قـــال : هو من إخوانكم وجيرانكم من قريش ، فأصابنى شيء ما أصابنى مثله إذ خرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون أنا هو .

قـــلت : فصفه لى ؟

قـــال : رجل شاب حين دخل فى الكهولة بدء أمره أنه يجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ، ويأمر بصلتها وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة .

قـــلت : وما آية ذلك ؟

قـــال : قد رجفت الشام منذ عيسى بن مريم ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصيبة يخرج على أثرها .

فقلـــت : هذا هو الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا مسنا شريفا[1] .

قال أمية : والذى يحلف به إنه لهكذا .

فخرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان أدركنا راكب من خلفنا فاذا هو يقول :

أصابت الشام بعدكم رجفة دمر أهلها فيها وأصابتهم مصائب عظيمة.

فقال أمية : كيف ترى يا أبا سفيان ؟

فقلـــت : والله ما أظن صاحبك إلا صادقا .

وقدمنا مكة ثم انطلقت حتى جئت أرض الحبشة تاجرا ، فمكثت فيها خمسة أشهر ، ثم قدمت مكة فجاء الناس يسلمون على وفى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وهند تلاعب صبيانها فسلم على ورحب بى وسألنى عن سفرى — ومقدمى ثم انطلق .

---

(١) إذن مقالة قريش: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) تعبيرا لا شعوريا صادر عن مثل هذا المستوى الوجدانى وقد افتتحته هذه النزعة السفيانية الصلتية .

فقلـــت : والله إن هذا الفتى لعجب ، ما جاءنى أحد من قريش له معى بضاعة إلا سألنى عنها وما بلغت ووالله إن له معى لبضاعة ما هو بأغناهم عنها ثم ما سألنى عنها .

فقالت : أو ما علمت بشأنه ؟

فقلـــت : ــ وفزعت ــ وما شأنه ؟

قـــالت : يزعم أنه رسول الله .

فذكرت قول النصارى ووجمت .

ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية فقلت هل تذكر حديث النصارى؟

قـــال : نعم .

قـــلت : قد كان .

قـــال : ومن ؟

قـــلت : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

فتصبب عرقا ... وقال :

إن ظهر لنا وأنا حى لأبلين الله فى نصره عذرا .

فعدت من اليمن فنزلت على أمية فقلت ، قد كان من أمر الرجل ما بلغك فأين أنت منه . ؟

قـــال : والله ماكنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا[1] .

---

(١) الوفاء ج ١ ص ٥١ — ٥٤ .

ومع أن النص ملىء بالحقائق :

* ففيه تصوير لجانب من البيئة العربية التى نشأت فيها الدعوة حيث يوجد رجال يجتنبون المحارم والمظالم ، ويصلون الأرحام .

* وأن الارهاصات بالدعوة وبدء النبوة الخاتمة اتخذت عند أهل المنطقة وضعا مشهوراً وثقافة متداولة بين ذى الحجا .

* وأن أمية بن أبى الصلت كان على صلة بالرهبان والأحبار للتعرف على ذات النبى المبعوث ويظهر ذلك جليا فى سؤاله أبا سفيان عن ، عتبة بن ربيعة كنموذج للرجل الذى يمكن أن يتحلى بهذه الصفات .

* وأن عتبة فقد عدة أوصاف منها السن وكثرة المال فما زال الأمل يداعب أمية .

إلا مع كل هذا يظهر غباء أبى سفيان وصدأ نفسيته ذلك انه قابل الحقائق التى ذكرها له أمية عن البعث والحساب والجنة والنار بالأمانى مع مشاهداته لأمية وهو يقرأ سفرا ، ويعلم أن له اتصالات بعلماء أهل الكتاب .

وإنه صدق النصارى فى كل ما قالوه لأمية عندما أخبرهم الرجل الذى كان خلفهم بالرجفة الأخيرة التى عمت الشام وذكرها الراهب لأمية على أنها العلامة الأخيرة للبعث ولكنه عندما أنبأته زوجته بأن محمدا بعث وجم حتى قالت له هند . . ما لك[1] ؟ .

(١) السيرة لابن كثير ج ١ ص ١٢٨ .

فيتنبه ويقول لها ، إن هذا هو الباطل . . . هو أعقل من أن يقول هذا ؟..

لماذا هو الباطل يا أبا سفيان وقد شاهدت أمية تتصدع مهج قلبه وينجدل على فراشه لاينام ولا يقوم طوال الليل للأمل الذى يؤرقه من أجل النبوة ؟

لماذا هو الباطل يا أبا سفيان وقد صدقت النصارى فى كل ماذكروه لأمية من أوصافه . وقالوا : انه رجل من العرب ، من أهل بيت تحجه العرب ، من اخوانكم وجيرانكم من قريش . . . ؟

لماذا يا أبا سفيان وليس غير محمد هو الأمين الصادق ؟ باجماع طبقات المجتمع كله ؟

لقد وجم أبوسفيان كما تردى فى الحسة أمية حيث أعان اتباعه ، والانتصار له .

ثم أغلبته أهواء النفس وصدأ الأنانية وشهوة الفخر ، وعز القبلية الجاهلية فكفر لأنه لم يكن هو ولم يكن ثقيفيا .

ومن الآن تبرز واحدة من معالم : لماذا كفر الناس ؟

نعم ، أبوسفيان أسلم فيما بعد ولكن لهذا الموقف حسابه فى نظر الإسلام فالقاعدة القرآنية :

(لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) آية رقم ١٠ من سورة الحديد .

وكذلك الأمر هنا فبعيد جداً منزلة أولئك السابقين الذين انتظروا البعثة بما كان عندهم من العلامات والارهاصات فلما جاءت الرسالة آمنوا وصدقوا ، ومنزلة أولئك الذين عاشوا فى جو الارهاصات ، وسمعوا بها وعرفوا آياتها ثم جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا يدل على ذلك الفرق البعيد مارواه الامام مسلم رضى الله عنه :

إن أبا سفيان أتى على سلمان ، وصهيب وبلال فى نفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها . . . قال : فقال أبوبكر ، أتقول هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟

فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال :

يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك .

فأتاهم أبوبكر فقال : يا اخوتاه . . . أأغضبتكم ؟

قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخى[1] ؟ .

---

(١) حديث رقم ٢٥٠٤ ص ١٩٤٧ ج ٤ مسلم اخراج المرحوم فؤاد عبد الباقى .

إن منزلة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه معروفة انه لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح .

وسلمان الفارسي أسلم من بعيد لما علمه من الدلائل ويرى فى أبى سفيان صورة رجل مريض القلب سيان كان أبوسفيان آنذاك مسلما أو كافرا فرأى سلمان فيه انه كان أحق بالقتل ، فان مثله فى نظر سلمان رجل مظلم القلب أعمى البصيرة وبطن الأرض لمثل هذا أولى من ظهرها . . . ذلك رأى سلمان الفارسي وسيدنا أبوبكر رجل لطيف المشاعر كريم الإحساس لين الجانب يود أن يجامل أبا سفيان سيان كان آنذاك مسلما أو كافرا فلئن كان مسلما فإنه يحب الفخر وطبيعة سيدنا أبوبكر طبيعة هادئة لاترى بأسا فى تحقيق رغبة أبى سفيان بأن يكون له شئ من الفخر ، وإن كان كافرا فالكلمة الطيبة عند سيدنا أبي بكر أفضل من كلمة الحماس المتأجج وان كانتا لله رب العالمين فقال أبو بكر كلمته ثم قص الرجل الصديق ماحدث للنبي صلى الله عليه وسلم فأقر موقف سلمان وصاحبه وسأل أبا بكر : لعلك أغضبتهم فإن من أغضبهم فقد أغضب ربه . . . وتلك إذا قيلت لغير أبى بكر كان من السهل تفسيرها ، أما وقد قالها النبي صلى الله عليه وسلم لأبى بكر فقد صار معناها بعيداً وتفسيرها دقيقاً . فإن منزلة سلمان أرفع بكثير من منزلة رجل مثل أبي سفيان حتى ولو كان مسلما للفارق البعيد بين الموقفين : موقف رجل ينكب على رسول الله يقبله لما تعرف عليه ، ورجل يصاب بالوجوم ويصف الرسالة بأن هذا هو الباطل ؟

يا أبابكر ، لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك
لا : يغفر الله لك يا أخى .

٢ – هرقل :

كان ابن الناطور يحدث أن هرقل حين قدم ايلياء بعد أن تم لهم : (من بعد غلبهم سيغلبون) أصبح يوما وهو خبيث النفس ، لقد تم له النصر على الفرس ولكن أصبح عبوسا قمطريرا فقال له بعض بطارقته ، قد استنكرنا هيئتك ؟ فقال لهم هرقل : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم أن ملك الختان قد ظهر .

وهرقل لم يقل هذا عن تخبط أو اختلال فى التفكير ولكن عن علم خاص وثقافة خاصة يقول ابن الناطور : « وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم » ثم سألهم هرقل ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟
قالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مداين ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود .

إذن هناك علامة يعرفها هرقل هى ، أن الدليل الكونى الدال على بعثة محمد صلى الله عليه وسلم قد سطع فى السماء وتعرف عليه هرقل بعد أن تم له النصر على الفرس حسبما تشير آيات القرآن الكريم :

(آلم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين) ، الآية ١–٤ من سورة الروم .

وبينما هرقل فى مجلسه وتساؤله مع بطارقته أتاه رجل من غسان أرسله صاحب بصرى — ملك غسان — ليخبر هرقل خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد حمله الصحابى الجليل دحية الكلبي .

وكان هذا خبرا يستحق التثبيت من علاماته فقال هرقل : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟

ثم جاءوا فحدثوه أنه مختتن .

فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر وأراد أن يتثبت فأرسل إلى عالم مثله بمدينة رومية وكان نظيره فى العلم وانصرف هرقل إلى حمص وظل ينتظر رأيه حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي [١] .

وإذن فقد تثبت هرقل .

وتمر الأمور وتصل قافلة تجارية عربية فيها أبوسفيان بن حرب وكان كبير الركب وكان الزمن فى أعقاب صلح الحديبية فيدعوهم هرقل وحوله عظماء الروم ثم يسألهم : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟

ويجيب أبوسفيان : أنا أقربهم نسبا .

---

(١) راجع فتح البارى متنا وشرحا ج ١ ص ٤٥ — ٤٨ .

فيدنيه هرقل منه ويجعل أصحابه خلفه عند ظهره ويطلب منهم عن طريق المترجم إذا كذب أبوسفيان فى إجابته على أسئلة هرقل فكذبوه .

وتبدأ عملية الاختبار : الأسئلة والأجوبة .

يقول هرقل : كيف نسبه فيكم ؟

ويجيب أبوسفيان : هو فينا ذو نسب .

هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .

فيقول أبوسفيان : لا .

هل كان من آبائه من ملك ؟

فيقول أبوسفيان : لا .

فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم .

فيقول أبوسفيان : بل ضعفاؤهم .

أيزيدون أم ينقصون ؟

فيجيب أبوسفيان : بل يزيدون .

فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فيرد أبوسفيان : لا

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فيقول أبوسفيان : لا .

فهل يغدر ؟

فيلتوى فى الإجابة فقد أحس بالصدق واضحا يهدى القلب الخاشع إلى الإيمان بمحمد نبيا ورسولا .

ويقول : لا ونحن فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، مع ملاحظة أن ذلك الحديث بعد صلح الحديبية الذى ينص على الهدنة عشرة أعوام ، وهو شرط يلتزمه خلق محمد صلى الله عليه وسلم وصرح به أبوسفيان فى إجابته الطويلة على هرقل ، ولكنه الوجوم الذى أصابه فى قلبه وعقله .

ثم يسأل هرقل : هل قاتلتموه ؟ ، فقال أبوسفيان : نعم .

فكيف كان قتالكم إياه ؟ . فيرد : الحرب سجال بيننا وبينه ينال منا وننال منه .

بماذا يأمركم ؟ ، فيشرح أبوسفيان مبادئ الإسلام رغم أنفه : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا مايقول آباؤكم .

ويأمرنا بالصلاة .

والصدق .

والعفاف .

والصلة .

وإذن فقد تمت معارف هرقل فاستنتج من كل إجابة إرهاصة وعلامة :

* سألتك عن نسبه : فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

* وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت ، أن لا ، فقلت ، لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله .

* وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت : أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطالب ملك أبيه .

* وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال . . . فذكرت ، أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

* وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت ، ان ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

* وسألتك : ايزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

* وسألتك ، أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ ، فذكرت : أن لا .

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

* وسألتك ، هل يغدر ، فذكرت ، أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر :

* وسألتك ، بما يأمركم ، فذكرت ، أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم .

فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1] حبا وتقديرا لا طالبا لجاه ولا ولاية .

لقد تثبت هرقل كل التثبت وأقر انه كان يعلم أن نبيا سيبعث ، وأنه يتمنى أن يخلص إليه ولو كان عنده لغسل قدمه وهو الملك المعظم . . . ثم ذكر فى استنتاجه من حديث أبي سفيان : أن هذا النبي سيملك ما تحت قدمه . لكن ماذا فعل هرقل ؟

لقد جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، ويحمله مسئولية شعبه فإن الناس غالبا على دين ملوكهم وجمع الرجل

---

(١) راجع فتح البارى ج ١ ص ٣٥ — ٤١ .

عظماء الروم فى قصره وقال لهم : « يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ » .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة قد غلقت فلما رأى نفرتهم وأيس من الإيمان قال :

ردوهم على ، أنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم .

لقد نخر أساقفة النجاشى ، فما اهتم ولا راعه أمرهم ، وقال لهم « وإن نخرتم » إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وكان كذلك ملكاً وكان كذلك منتصراً على عدوه فى حرب .

فما شغله الملك ، ولا أسكرته فرحة النصر عن الاعتراف والإقرار بالحق المبين .

أما هرقل فقد أرعبته حيصة رجاله فنافقهم وهو يعلم ، أن محمدا سيملك ما تحت قدميه مستقبلا إن شاء الله .

وما وقف أمر هرقل عن هذا بل واجه الإسلام فى حرب ضارية ، فى سرية مؤته سنة ثمان بعد قصته هذه وقد نزل فى مائة ألف من المشركين على ما هو معروف فى السير والغزوات[1]

---

(١) راجع الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٢٢٢ ، راجع فتح البارى ج ١ ص ٤١ ، زاد المعاد ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وتلك واحدة أخرى تبين ان انتكاسة البشر تابعة لعلة فى النفس وضعف فى الإرادة مع معرفة الحق والإقرار به فقد حصل له علم ضرورى من النظر فى الأخبار والدلائل كما حدث للنجاشى ، لكن النجاشى أسلم وجهه فآمن وهرقل كفر وجحد ، يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم :

« كذب عدو الله ليس بمسلم »[١] .

٣ ـ القرشيون :

(أ) لقى الأخنس بن شريق أبا جهل يوم بدرفقال له : يا أبا الحكم ، أخبرنى عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ههنا غيرى وغيرك ؟

فقال له ، والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش[٢] .

إذن ، محمد صادق ولكنها العنجهية والأثرة وحب الذات .

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٤١ ، راجع تثبيت دلائل النبوة ج ٢ ص ٥١٢ — ٥١٤ ومراجع هذا البحث الإسلام والايمان ص ٢٤٦ — ٢٤٨ . ط ا . ثانية دكتور عبد الحليم محمود .

(٢) شرح على القارى على الشفاء ج ١ ص ١٨١ .

ويستمر أبو جهل في جهالته وتبدو أحقاده ، تتبلور في سلوك عدائي طفولي .

لقد تشجع أمام قريش وتوعد أنه سيقتل محمدا غدا بحجر يلقيه على رأسه المحفوفة برعاية الله وظن أبو الجهالة الجاهلية أنه نافذ إلى مأربه الإبليسي ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة وسجد واحتمل أبو جهل حجره وأقبل نحو النبي الكريم والناس ينظرون إلى بطولته ولكنه سرعان ما يرجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده واستغاث برجال قريش . . . وحضروا مسرعين لقد هالهم الأمر : إنهم لم يروا شيئا يرعب فمن أي شيء ارتعد البطل ؟

يقول أبو جهل المغوار المقدام :

« قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته — أصل عنقه — ولا أنيابه لفحل قط فهم بي أن يأكلني [١] » .

وما اعتبر ولا تحرك وجدانه ولا عقله واستقام على ما هو عليه من الجهل والضلال

(ب) والنضر بن الحارث يقول :

يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ .

أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ؛ وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يامعشر قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم :

نعم ، هو أمر عظيم لا سبيل إلى تكذيبه لكن ماذا فعل النضر بن الحارث؟

ثم قال ، أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . . . [1] .

فهل هذا يتصور من عاقل ؟

(ج) وكان عتبة بن ربيعة أخطبوطا قعيدا فاسد الرأى مع تكبره عن الحق فها هو يسمع القرآن الكريم فلا يجد سبيلا من أن يخشع لذكر الله وما نزل من الحق .

ويرجع إلى قومه وعلى شفتيه تتحرك كلمتا الإسلام ويقول لهم :

« دعوا محمد وشأنه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم » .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ولكن الرجل لايلبث أن تعميه الجاذبية الاجتماعية الجاهلية فلا يستجيب لله وللرسول :

يقول ابن هشام : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه فلما سمعها منه أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك [١] .

وفى الحلبية : مافهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه فأنشدته الرحم أن يكف وقد علمت أن محمداً صلى الله عليه وسلم إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب .

فقالوا له : ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية لاتدرى ماقال ؟

قال : والله ماسمعت مثله ، والله ماهو بالشعر ولابالسحر ، ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها إلى ، خلوا إلى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه [٢] .

ولكنه ماكان من المسلمين ، لقد رده عن الحق الأبلج حياة مجتمعه المظلمة وتقاليده الضالة وهنا ندرك أن مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤ حلبية ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٢) الحلبية ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

ينبغى أن تحتل أهمية كبيرة من الداعية المسلم لأنها تعتبر أساس المعايير التى توزن بها مواقف العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية مستقبلا .

واعلنا نلاحظ فى هذه المرحلة التطبيقية أن هناك صفحتين :

١ — صفحة إيجابية هى التى تصور كرم النفوس التى كانت تستعد من قبل لاستقبال الهدى والنور والبعث المحمدى وكانت تترقب زمانه وتحلم بلحظته وتتمنى أن تسعد بهذا اللقاء وتشرف به وتتلذذ بحلاوة إيمانه مثلما وجدناه تلقائيا من السيدة خديجة رضى الله عنها وورقة بن نوفل والنجاشى وبحيرا ونسطورا وعبدالله بن سلام وسلمان الفارسى .

وهم جماعة من العارفين بالكتاب ، إن التوراة أوالإنجيل .

وكانوا جميعاً يعيشون لحظة الترقب للنبوة الخاتمة بنفس راضية متشوقة سعيدة بيوم اللقاء .

وقد كانت تهيئة الرسول صلى الله عليه وسلم بما أودعه الله جل شأنه من الخصائص الخاصة به هى الطرف الثانى فى حلقة التمهيد بكلتا الظاهرتين ، ظاهرة تعبئة المجتمع بما نشره أهل الكتاب والحنفاء . . . إلخ من الدلائل والعلامات .

وظاهرة التربية الإلهية فى محمد صلى الله عليه وسلم حتى كان وحده البشر السوى فمن رزقه الله قدرة الفهم والإدراك وفتح عليه بإحاطة معانيها فقد رزق الشهادة ودخل فى دين الله مختاراً .

٢ - وصفحة سلبية هي التي تصور رداءة النفوس الخبيثة التي ترقب الرسالة مع المترقبين وعرفت دلائلها ووعت حقيقتها فلما جاءتهم النبوة خاصة في محمد صلى الله عليه وسلم جحدوا بها ظلما وعلوا أو فسقاً وعصياناً ، تكبرا وتعصباً ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فزين لهم شهوة الصد عن سبيل الله فكفروا وأفسدوا وناوأوا وعذبوا وشردوا وقتلوا . . . إلخ ، انتقاماً لهزيمة قلوبهم وانتكاسة وجدانهم وضلالة عقولهم . . مثلما رأيناه في تردي أمية بن أبي الصلت ، ولولبية أبي سفيان ، وضلالة هرقل ، وحيرة عتبة ، ووضاعة النضر ، وفجور أبي جهل .

وبذلك يتأكد علميا أهمية مرحلة التمهيد للدعوة الإسلامية كما أرادها الله وأظهرها لخلقه وانتفع بها الصادقون وصاروا لها رمزا وحجة ونبراسا . . . . وكما جحدها المارقون أنانية ، وكذباً وافتراء وقومية وعتوا عن الحق والعدل والصدق فتبدأ بذلك علامات الطريق لمن شاء أن يستقيم وقد (حفت الجنة بالمكاره[1] وحفت النار بالشهوات وقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وإلى الله عاقبة الأمور .

---

(١) الفتح الكبير ج ٢ ص ٧٣ .

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

وكيل اول

رئيس مجلس الادارة

على سلطان على

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٧٩٣ / ١٩٧٣

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٤١٣٠س-١٩٧٣-١٣٠٠٢